محمود عوض



دار الشروق

إهـــــــداء ٢٠٠٧

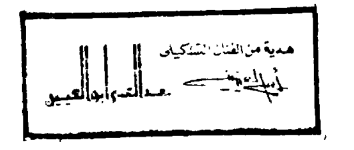
الأستاذ / عبد الغنى أبو العينين

جمهورية مصر العربية

القاهرة : ١٦ جواد حسنى ت ٥١٢١٤ برقيا : شروق القاهرة
بيروت : ص.ب ٨٠٦٤ ت ٢٢٣٨٣٨ برقيا : داشروق بيروت

محمود عوض

ممنوع من التداول



دار الشروق

- الطبعـــة الاولى : ٥ يونيـــو ١٩٧٢
- الطبعـــة الثانية : ٢٢ يونيـــو ١٩٧٢
- الطبعـــة الثالثة : أول ديسمبر ١٩٧٢
- الطبعـــة الرابعة : ٣١ ديسمبر ١٩٧٢
- الطبعة الخامسة : أول ابريل ١٩٧٣

الغلاف بريشة الفنان مصطفى حسين

محتويات
الكتـــاب

الموضـــوع الصفحة

مقدمة
بقلم الدكتور محمد عبد القادر حاتم

منذ ثلاث سنوات ، ظهر « موشى دايان » وزير الدفاع الاسرائيلى على شاشة التليفزيون البريطانى ، ووقتها .. سأله المذيع : ان الخطة التى اتبعتها فى حرب ١٩٦٧ هى الخطة نفسها التى ذكرتها فى كتابك « مذكرات حملة سيناء — ١٩٥٦ » .. ألم تكن تخشى أن العرب قد يعرفون من كتابك .. خطتك المستقبلة التى ستتبعها فى حرب ١٩٦٧ ، فيستعدون مقدما لمواجهتها ؟ .

ورد موشى دايان قائلا : لا .. لأن العرب لا يقرأون!

ولم يكن هذا الرد غريبا من موشى دايان ..

ففى صباح الخامس من يونيو سنة ١٩٦٧ ، كان أعلى الشعارات صوتا فى حياتنا العامة ، شعار «اعرف عدوك» . وفى الوقت نفسه كان أقل الشعارات تطبيقا فى جهازنا الاعلامى هو شعار : « اعرف عدوك»

ولم تكن صدمة الساعات الأولى من القتال .. كافية لكى تسد بسرعة تلك الفجوة الواسعة بين الشعار المعلن ، وعدم تنفيذه . على العكس ، مع تطور القتال فى ساحة المعركة .. كانت الفجوة تتسع وتتسع بين الشعار والتطبيق . لهذا كنا نرى أننا نحن — وليست اسرائيل — الذين أحسسنا بخيبة الأمل فى جهازنا

الاعلامى . وهى خيبة أمل تطورت بعد ذلك الى أزمة ثقة فى الجهاز الاعلامى ، فتحت الطريق واسعا أمام « العدو الاسرائيلى » لكى يخوض ضدنا حربا نفسية عنيفة وشرسة وضارية .

ان الحرب النفسية ليست جديدة علينا فى مصر ..

لقد تعرضنا لها وعشنا فيها ، قبل ذلك بسنوات طويلة .. بل ومنذ اليوم الأول لثورة ١٩٥٢ . وفى وقت من الأوقات .. كانت هناك ١١ محطة اذاعة سرية تعمل ضدنا فى وقت واحد ، وفشلت كلها فى وقت واحد .. !

ان ما جعل ١١ محطة تفشل فى الحرب النفسية ضدنا سنة ١٩٥٦ ، هو نفسه ما جعل النجاح المؤقت من نصيب محطة اسرائيلية واحدة تعمل ضدنا فى سنة ١٩٦٧ . هو سبب واحد فى الحالتين ، ولكنه سبب ذو وجهين :

اننا فى الحالة الأولى (حالة حرب ١٩٥٦) اعتمدنا على الصدق فى مخاطبة الجماهير . الصدق والواقع والحقيقة ، التى كانت تبدو مؤلمة أحيانا ، ولكنها كانت فى النهاية .. تمثل تحصينا للشعب ضد الحرب النفسية الضارية .

وفى الحالة الثانية .. كان اعتمادنا على المبالغة والتهويل وتجاهل الحقيقة ، بل وتجاهل العدو نفسه .. هو الذى أدى الى هزيمتنا الاعلامية سنة ١٩٦٧ .

وعندما قام الرئيس أنور السادات ، بعملية التصحيح الكبرى فى ١٥ مايو سنة ١٩٧١ ، كان جزءا من التصحيح هو اعادة الأساس العلمى للعمل الاعلامى

ان أمامنا عدوا شرسا .. ومتشعبا .. ومتلونا ،وعلينا فى جميع الأحوال أن نحــاربه .

وفى حربنا ضد اسرائيل ، فان أول سلاح نعتمد عليه .. لابد أن يكون هو معرفتنا بهذا العدو .. معرفتنا بأساليبه وخططه وأفكاره ، وتصوره نفسه ، وتصوره للرأى العام العالمى ، وتصور الرأى العام العالمى له . أن هذه المعرفة .. هى التى ستمكننا بعد ذلك من مواجهته فى المكان الصحيح ، وبالأســـلوب الصحيح ، وبالسلاح الصحيح .

لهذا .. كان لابد أن تعتمد الســـياسة الاعلامية الجديدة على تحويل شعار « اعرف عدوك » من مجرد شعار ، الى تطبيق حى يمارسه كل مواطن . لقـــد اتخذنا فى هذا الصدد خطوات عديدة ، كان من أهمها رفع الحظر عن الكتب الاسرائيلية التى ظلت لسنوات طويلة ممنوعة من التداول ، ثم اتاحتها أمام المعلقين والدارسين والباحثين فى بلادنا ، بغير نقص أو تحريف.

وقد تبدو الأفكار التى تتضمنها هذه الكتب الممنوعة، مثيرة للمرارة .. أو مجافية للحقيقة .. ولكن ، هل نحن نتوقع من عدونا غير ذلك ؟!

ان المهم .. ليس هو أن نناقش نسبة الحقيقة الى الأكاذيب فى مثل تلك الحالات ، لأن العـــدو يستخدم كثيرا من الأكاذيب ، وحتى حينما يستخدم جزءا من الحقيقة .. فانه يفعل ذلك من زاوية تحقق مصلحته هـــو .

ليس هذا اذن هو المهم .. ولكن المهم ان نتصرف طبقا للقول المأثور : من تعلم لغة قوم .. أمن مكرهم .

ونحن حينما ننشر عشرات الكتب التى صدرت عن الصهيونية واسرائيل .. انما نبين بذلك لهذا الجيل والأجيال القادمة .. كيف يخطط العدو لنا ، كيف يبنى جيشه ، كيف يحاول تضليل الرأى العام العالمى ، كيف يضاعف — بالحرب النفسية — حجم انتصاراته مائة مرة ؟ ! .. الخ ..

ان هذا هو الأسلوب الصحيح .. الذى يجعلنا نرسم خططنا المستقبلة ، على أساس دراسة علمية حقيقية .. لكل شئون اسرائيل والصهيونية ، فقد خططت الصهيونية منذ مؤتمر « بازل » الصهيونى سنة ١٨٩٧ ونفذت كل خططها بعد ذلك ، حتى قامت دولة اسرائيل فى سنة ١٩٤٨ ، وما زالت هناك خطط أخرى ، تريد اسرائيل أن تحقق بها لنفسها امبراطورية ، تمتد من النيل الى الفرات !.

لذلك ، فان سماحنا بتداول الكتب التى تبحث فى شئون اسرائيل — وهذا الكتاب يقدم أهمها — قد أصبح ضرورة استراتيجية من أجل الدفاع عن حياتنا ، ومقاومة هذا المخطط العدوانى ضد بلادنا . لقد أصبح من الضرورى .. أن نضع أفكار عدونا تحت ميكروسكوب دائم .. نفحصها دائما ، ونراجعها دائما ، وندرسها دائما ، لكى ننتصر على عدونا فى النهاية .. دائما .

د . محمد عبد القادر حاتم
نائب رئيس الوزراء للثقافة والاعلام

الجزء الأول

البداية

عندما نامت مصر

نامت مصر فى تلك الليلة مبكرا !

نامت مصر ، مع اننا ما زلنـــا فى الصيف ، فى الواقع نحن فى الشهر الأخير منه . ومازلنا فى وقت مبكر ــ الساعة التاسعة مساء .

ونحن فى يوم ٢٩ اغسطس سنة ١٨٩٧ ..

وفى هذا اليــوم .. كانت قد مضت خمسة أشهر على وفاة جمال الدين الأفغانى ، وسبعة أشهر على تعيين أحمد لطفى السيد وكيلا للنيابة ، وعشرة أشهر على وفاة عبد الله النديم ، وثمانى سنوات على مولد طه حسين وعباس محمود العقاد ، و ١٣ سنة على نفى احمد عرابى الى « جزيرة سيلان » !

ولكننا فى ٢٩ اغسطس سنة ١٨٩٧ ، وعباس حلمى هو خديو مصر ، واللورد كرومر هو المندوب السامى البريطانى ، وبالتالى فهو الحاكم الفعلى فى مصر .

هذا عن مصر ..

ولو ابتعدنا قليلا ــ فى اليوم نفسه ــ سنجد الاحتلال الفرنسى فى الجزائر منذ ٦٧ سنة ، وفى تونس منذ ١٦ سنة ، وســـنجد بريطانيا موجودة فى عدن منذ ٥٨ سنة . وسنجد أن الشـــام ــ وتضم سوريا ولبنان وفلسطين ــ تابعة للخلافة التركية هى والعراق .

مرة أخرى : نحن مازلنا فى ٢٩ اغسطس سنة ١٨٩٧ .

الجو حار ، وان كان هادئا . وتلك مصر على الحال التى رايناها فيه ، الى أن نامت مبكرة فى تلك الليلة ..

ولكن ..

وهذه أكبر « لكن » .. فى التاريخ العربى المعاصر .. !

لكن .. على بعد ١٧٠٠ كيلو متر تقريبا من القاهرة ، كانت تدور قصة أخرى فى مدينة « بازل » السويسرية . ان « بازل » — فى ذلك اليوم — لم تكن تزيد فى مساحتها ، ولا فى عدد سكانها ، عن نصف مدينة المنصورة ، أو خمس مدينة بيروت .

فى مدينة (بازل) هذه .. يوجد مكان عادى للموسيقى والرقص اسمه **Stadt Casino** مجاور لمبنى المتحف التاريخى فى بازل .

لكن هذا المرقص فى هذا المساء — مساء ٢٩ اغسطس ١٨٩٧ — لم يكن فيه موسيقى ولا رقص . ان فى مدخل صالة الرقص راية معلقة شمالا ويمينا فيها شريطان أزرقان . وفوق المدخل رسمت نجمة داود السداسية .

وفى هذا المساء .. دخل الى صالة الرقص ١٩٧ وفدا من ١٥ دولة مختلفة هى : روسيا . المانيا . النمسا . المجر . رومانيا . بلغاريا . هولندا . بلجيكا . فرنسا . سويسرا . السويد . انجلترا . الولايات المتحدة . الجزائر . فلسطين .

وهم لا يعرف بعضهم بعضا قبل هذه الليلة ، ولأول وهلة لا يبدو ان هناك شيئا يربط بينهم . فمنهم الاشتراكى .. والراسمالى .. والليبرالى ، ومنهم المتزمت .. والمتحرر ، ومنهم المتدين .. والملحد .

شىء واحد يجمع بينهم : انهم يهود . شىء ثان : انهم صهيونيون . لقد جاءوا الليلة .. يحضرون أول مؤتمر صهيونى .

انهم جميعا يمثلون جمعيات (حب صهيون) وهى حركة يهودية سياسية بدا تأسيسها قبل ١٥ سنة من الاجتماع . وهدف هذه الجماعات .. هو هجرة اليهود الى فلسطين ، واعادة احياء اللغة العبرية ــ التى ماتت منذ الفى سنة .. وكان رئيس هذه الجمعية رجلا اسمه « ليون بنسكر » ولقد سبق له أن وضع كتابا فى سنة ١٨٨١ بعنوان (التحرير الذاتى) يتناول فيه مشكلة اليهود فى أوربا ، وقال فيه :

« ان اليهودى شخص مكروه فى كل مكان يذهب اليه . ولذلك فعلى اليهود ، أن يحرروا أنفسهم من هذه الكراهية .. بأن يقيموا لأنفسهم دولة خاصة بهم . ولا يهم مكان هذه الدولة » .

ولكن تلك الحركة فشلت وخمدت .. لأن عددا كبيرا من اليهود انفسهم حاربوها .

ومع ذلك ، فان الشخص الذى اعاد تلك الحركة الى الوجود مرة أخرى ، هو نفسه الذى دعا الى هذا الاجتماع فى (بازل) وهو الذى سيصبح فيما بعد (نبى) الحركة الصهيونية الحديثة .. انه يهودى اسمه « تيودور هرتزل » ولد سنة ١٨٦٠ فى مدينة « بودابست » ــ عاصمة المجر الان ــ انه يعمل صحفيا ومراسلا فى باريس لصحيفة تصدر فى فينا .

وقد اصدر هرتزل كتيبا فى ١٤ فبراير سنة ١٨٩٦ ــ بعنوان (الدولة اليهودية) ، طالب فيه بانشاء دولة لليهود فى فلسطين أو الأرجنتين . وقال أيضا : ان موجة التحرر والمساواة ، التى بدأت فى أوروبا بعد الثورة الفرنسية ، هى سبب وجود المشكلة اليهودية .. وفى الوقت نفسه ستكون هى أكبر عقبة فى سبيل اقامة دولة يهودية .. لان تحقيق المساواة سيغرى اليهود بالاندماج والذوبان فى مجتمعات الدول التى يعيشون فيها .

ثم قال : (ان ضغط الظروف ، قد ادى الى تكوين طبقة متوسطة يهودية .. هى فى منافسة مباشرة مع الطبقة المتوسطة المسيحية) .

ثم قال : (ان المشكلة اليهودية يجب معالجتها كمسألة سياسية يتم تناولها مع احدى الدول الكبرى) .

ولو توقفنا الان لحظة واحدة .. فاننا سنضع أيدينـــا على الحقائق التالية :

● أولا : ان الحركة الصهيونية لانشاء وطن قومى لليهود ــ من اللحظة التى بدأها هرتزل الى الآن ــ هى حركة سياسية بحتة لا علاقة لها بالدين اليهودى . وهذا على عكس الدعاية الصهيونية الحديثة تماما .

● ثانيا : ان هذه الحركة ، كانت هى الرد على موجة معاداة السامية التى كانت قائمة فى أوربا ، وأنها بالتالى لم تجد لها أساسا فى المجتمعات التى اختفت منها نزعة معاداة السامية ..

● ثالثا : أن الفكرة الدينية اليهودية القديمة ، عن العودة الى فلسطين ، قد أدخلت فى مرحلة تالية على الفكرة الصهيونية لمجرد استغلالها لدى اليهود لكى ينضموا الى الحركة .

على أن هذه الحقائق ــ وكثيرا غيرها ــ ستتضح تماما كلما تقدمنا أكثر فى دراسة تطور الحركة الصهيونية فاليهود أنفسهم يعترفون بهذه الحقائق ــ صراحة أو ضمنا ــ حسب الأحوال .

ولعل هذه لحظة مناسبة لكى نرجع الى الوراء قليلا . الى (يوميات هرتزل) التى كتبها بنفسه قبل وبعد انعقاد المؤتمر الصهيونى الأول فى (بازل) سنة ١٨٩٧ . مع ملاحظة أن هذه (اليوميات) هى مذكرات خاصة كتبها هرتزل ولم تنشر الا بعد وفاته بوقت طويل ، وعندما نشرت .. فان أول طبعة كاملة لها صدرت سنة ١٩٦٠ ، وأنا هنا أعتمد على الطبعة التى أصدرتها المنظمة الصهيونية العالمية نفسها .

لقد بدأ هرتزل ، منذ أيام تخيله الأولى للدولة اليهودية ، ومن قبل أن يختار « فلسطين » موقعا لهذه الدولة .. بدأ يعبر فى

يومياته عن ضرورة الاتصال بالدول الكبرى ، وعن الدور الذى لابد أن تلعبه . ولقد كتب فى ٧ يونيو ١٨٩٥ يقول : (حالما يتم الاتفاق على الاراضى ، وتوضع اتفاقية أولى مع الحاكم الموجود ، سوف نبدأ مباحثاتنا الدبلوماسية مع الدول الكبرى) وبالفعل .. بدأ هرتزل يبذل مساعيه لدى المانيا أولا ، ثم لدى بريطانيا ، وتركيا (كانت تركيا هى الخلافة العثمانية التى تتبعها فلسطين) .

ثم نأخذ الان عينات حرفية من يوميات هرتزل :

● فى صفحة ٣ كتب هرتزل سنة ١٨٩٥ يقول : (أن البارون موريس دى هيرش هو — مثل عائلة روتشيلد ، واحد من أكبر أصحاب الملايين اليهود فى القرن التاسع عشر — قد أبدى اهتماما انسانيا عميقا بجمعية الاستعمار اليهودى — وهى جمعية يهودية تأسست سنة ١٨٩١ — وخصص لها نهائيا مبلغ ٤٠ مليون دولار لتوطين المهاجرين اليهود فى الأرجنتين ، ولكن فى سنة ١٨٩٥ لم تكن الأمور على ما يرام فى المستعمرات التى تم انشاؤها هناك) .

● ان هرتزل يشرح كيفية الاستيلاء على الأرض من جانب الحركة الصهيونية ، فيقول فى ١٢ يونيه سنة ١٨٩٥ : (عندما نحتل البلاد ، سنعمل سريعا على افادة الدولة التى ستأخذنا .. ويجب أن نستخلص ملكية الأرض التى ستعطى لنا ، ولكن باللطف والتدريج سنحاول أن نشجع فقراء السكان على النزوح الى البلدان المجاورة ، وذلك بتأمين أعمال لهم هناك ، ورفض اعطائهم اى عمل فى بلدنا . أما أصحاب الاملاك فسيكونون بجانبنا ، على اننا يجب أن نقوم بكلتا العمليتين — استخلاص الأرض وابعاد الفقراء — بتعقل وحذر . يجب أن نعمل على ايهام أصحاب الأملاك غير المنقولة .. بأنهم يخدعوننا ببيعها لنا بأكثر مما تساوى) .

● فى ٢٧ فبراير ١٨٩٦ يكتب هرتزل تساؤلا : هل نقدم للخليفة التركى مليونى جنيه ثمنا لفلسطين ؟ هذا المشروع درسته مع عدد من أثرياء اليهود فى أوربا .

● فى ٤ مارس من السنة نفسها : « الدكتور بيرن (صديق له) يريد أن يكون الزعيم الاشتراكى فى الدولة اليهودية . نحن لم نحصل عليها بعد ، وها هم يريدون تمزيقها مقدما ! »

● ٢٢ ابريل — من السنة نفسها : (نحن نريد أن نحصل على مساعدة قيصر ألمانيا . انه سيساعدنا لأنه يتمنى اخراجنا من بلده . حسنا . ولكنه سيساعدنا) !

● ١٥ يوليو — من السنة نفسها : (نحن مستعدون لان ندفع عشرين مليون جنيه للسلطان التركى ثمنا لفلسطين، وبذلك نحسن ميزانيته) .

● الشهر نفسه ، والسنة نفسها : (قال السلطان عبد الحميد لصديقه الذى تفاوض معه : اذا كان هرتزل صديقك بقدر ما أنت صديقى ، فانصحه بالا يسير أبدا فى هذا الأمر .. لا أستطيع أن أبيع ولو قدما واحدة من البلاد ، لأنها ليست لى بل لشعبى ، لقد حصل شعبى على هذه الامبراطورية باراقة دمائهم ، وقد غذوها فيما بعد بدمائهم وسوف نغطيها بدمائنا ، قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا . لقد حاربت كتيبتان من جيشنا فى سوريا وفى فلسطين ، وقتل رجالنا الواحد بعد الاخر فى « بلفنة » لأن أحدا منهم لم يرض بالتسليم ، وفضلوا أن يموتوا فى ساحة القتال . ان الامبراطورية التركية ليست لى دائما .. بل للشعب التركى ولا استطيع أبدا أن أعطى أحدا أى جزء منها . فليحتفظ اليهود بملايينهم .. فاذا قسمت الامبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين بغير مقابل . وانما لن تقسم الا جثتنا ، ولن أقبل بتشريحنا لأى غرض كان) .

● بعدها بأيام كتب هرتزل : (نصحنى صديق بأن يشترى اليهود أى مقاطعة أخرى ويقدموها لتركيا كبديل لفلسطين مع مزيد من المال . ففكرت رأسا فى قبرص) .

● وفى أول ديسمبر سنة ١٨٩٦ ، كتب هرتزل فى يومياته يصارح نفسه : « صديق لى أخبرنى بأن هناك اشاعة منتشرة الان

فى بودابست (المدينة التى ولد فيها هرتزل) وهى أن اليهود هناك يقولون : اننى تسلمت مبلغا ضخما من المال من شركة اراضى بريطانية تريد أن تبيع أملاكا لها فى فلسطين ، وذلك فى مقابل طبع كتابى عن الدولة اليهودية . هكذا نحن اليهود دائما لا نؤمن بأن أى شخص يمكن أن يتصرف أبدا الا بسبب المـــال » !

● فى اليوم نفسه .. كتب يعرض خدماته على قوة استعمارية جديدة هى بريطانيا ، فيقول : « هذا عامل يجدر بالسياســة الانجليزية فى الشرق أن تقدره حق قدره ، عامل جديد بكل تأكيد .. ان تقسيم تركيا فى الوضع العالمى الحاضر .. لابد أن يكون خسارة بالنسبة لانجلترا . ولذلك فعليها أن تسعى نحو التوازن الدولى الذى لا تتم المحافظة عليه الا اذا تم تصحيح مالية تركيا .. ان هذا يتم بانشاء دولة يهودية فى فلسطين لها استقلال ذاتى مثل مصر ــ تحت سيادة الســلطان .. والأمر ممكن اذا توافر لنا دعم دولة كبرى » .

ومثلما كان هرتزل يحاول الاتصال بكل الدول الكبرى ، لكى يقنع واحدة منها بتبنى مشروع الدولة اليهودية .. كذلك فانه حاول استغلال بعض السياسيين من الشرق . ومن الذين حاول هرتزل ان يكسب ودهم أولا : أغاخان الزعيم الاســماعيلى المعروف ، والزعيم مصطفى كامل .

عن مصطفى كامل .. كتب هرتزل يوم ٢٤ مارس سنة ١٨٩٧ يقول :

« الموفد المصرى ، مصطفى كامل ، الذى كان قد زارنى من قبل . زارنى مرة أخرى . انه فى رحلة أخرى لجمع المشاعر المؤيدة لقضية الشعب المصرى الذى يسعى للخلاص من السيطرةالبريطانية ان هذا الشاب الشرقى يعطى انطباعا ممتازا ، وهو مثقف وراق وبليغ ، وقد دونته فى ذاكرتى .. لأنه قد يلعب يوما ما دورا فى سياسة الشرق ، حيث قد نلتقى ثانية . ان سليل مضطهدينا فى مصر القديمة يتنهد اليوم من عذاب الرق ، وتقوده طريقه الى ــأنا اليهودى ــ طالبا مساعدتى الصحفية .. اننى أشعر ــ مع أننى

لم أجزم بذلك ـــ بأنه لما يفيد قضيتنا أن يضطر الانجليز الى مغادرة مصر . انهم سيضطرون آنذاك .. الى أن يبحثوا عن طريق آخر الى الهند بدل قناة السويس التى ستضيع منهم ، أو على الأقل تصبح غير مأمونة . آنذاك تصبح فلسطين اليهودية الحديثة ـــ مناسبة لهم ـــ الطريق من يافا الى الخليج الفارسى » .

***

عودة الى المؤتمر الصهيونى ..

ان هذا هو المؤتمر الأول ، وهذا هو تفكير الرجل الذى عمل مهندسا للمؤتمر الأول ، ومهندسا للحركة الصهيونية كلها فيما بعد . ان الحاضرين فى المؤتمر لا تجمع بينهم ـــ حتى ـــ لغة مشتركة . لهذا فانهم يقررون استخدام اللغة الالمانية كلغة رسمية للمؤتمر ..

ان هرتزل بدأ كلامه فى المؤتمر بقوله :

« اننا هنا لنضع حجر الأساس فى بناء البيت الذى سوف يؤوى الأمة اليهودية » .

وقد قدم هرتزل للمؤتمر عدة اقتراحات معينة :

أولا : انشاء منظمة تسمى « المنظمة الصهيونية العالمية » . لمحاولة ضم صفوف اليهود وتجميعهم خلف القضية الفلسطينية .

ثانيا : الحصول عى اعتراف دولى من احدى الدول العظمى بمشروع توطين اليهود فى فلسطين .

ثالثا : تنظيم هجرة يهودية واسعة النطاق الى فلسطين ـــ أو أى مكان آخر يستطيع اليهود الحصول عليه . وتنظم هذه الهجرة بوسيلتين : اولا ، بواسطة انشاء المنظمة الصهيونية نفسها

.. وتضم كل اليهود الذن يوافقون على فكرة « الدولة اليهودية . » وثانيا ، بانشاء شركة يهودية للاراضى .. تكون هى الأداة الاقتصادية لتحقيق أهداف المنظمة الصهيونية .

وبعد هذه الخطوات .. خرج هرتزل بالقرارات فى جيبه ، وبقرار تعيينه أول رئيس لمنظمة الصهيونية العالمية ، وبسطور كتبها فى يومياته . كتب هرتزل فى ٢٩ أغسطس ١٨٩٧ يقول :

« لو طلب منى تلخيص مؤتمر بازل فى كلمـة ــ وعلى أن أحرص على عدم تلفظها بصوت عال ــ لكانت هى: فى بازل أسست الدولة الصهيونية . لو قلت ذاك بصوت عال لضحك الجميع منى . لكن ربما فى خمس سنوات ــ وبالتأكيد فى خمسين سنة ــ سيعلم كل واحد بالأمر . ان تأسيس دولة لا يكمن فى ارادة شعب بانشاء دولة ، بل يكمن أيضا فى ارادة فرد قوى قوة كافية .. ان الارض هى فقط الأساس المادى . والدولة ، حينما تملك الأرض ، هى دائما شيء معنوى .. فى بازل اذن ، انشأت هذا الكيان المعنوى الذى تراه اغلبية الناس الساحقة . أنشأته بوسائل قليلة جدا ! وبالتدريج وضعت الناس فى جو مناسب للدولة ، وجعلتهم يشعرون بأنهم هيئة وطنية » .

هكذا اذن .. انتهت جلسات المؤتمر الأول للحركة الصهيونية فى ٣١ اغسطس ١٨٩٧ .

لقد كان لابد أن يبدأ الطريق أمام المنظمة الجديدة بمحاولة كسب تأييد احدى الدول العظمى . على أن تلك المهمة لم تكن هى وحدها المهمة العاجلة ، فلقد كانت هناك مهمة أخرى أكثر الحاحا . وهى التغلب على المعارضة التى بدت تواجه المنظمة الجديدة داخل اليهود أنفسهم .

فلقد انقسم اليهود الى اتجاهين : الاتجاه الأول كان يرى أن « ذوبان » اليهودى فى المجتمع الذى يعيش فيه .. هو العلاج الحقيقى والدائم لمعاداة السامية ، وأن كراهية اليهود أنفسهم ترجع الى عدم ولائهم للمجتمعات التى يعيشون فيها . ولكن ، لو اقتنع اليهود بأن تقدم الحضارة ، وانتشار المساواة السياسية ، ووجود دليل من اليهود على ولائهم للمجتمع الذى يعيشون فيه وتعلقهم به .. كل هذا سيؤدى فى النهاية الى استئصال المشاعر المتبقية ضدهم .

أما الاتجاه الثانى .. فقد فقد أصحابه الأمل فى أن اليهود يستطيعون الذوبان فى أى مجتمع أو الاندماج فيه .. وأصحاب هذا الاتجاه هم الذين منهم هرتزل .

ولذلك .. فأنه فى السنة نفسها التى تأسست فيها المنظمة الصهيونية — أى فى سنة ١٨٩٧ — تأسست فى روسيا وشرق أوربا جمعيات من اليهود أنفسهم لمعارضة الحركة الصهيونية . جمعيات كانت تسمى نفسها « البوندز » Bunds أى « المنظمة العامة للعمال اليهود فى روسيا وبولندا » . وكانت هذه المنظمة ترى أن الحركة الصهيونية تدفع أعضاءها الى أحلام مدمرة لليهود أنفسهم .. لان الحركة الصهيونية تقوم فى جوهرها على أساس عدم قدرة اليهودى على الذوبان فى المجتمع الذى يعيش فيه .. وهذا يؤدى الى اثارة الشك والريبة فى اخلاص وولاء اليهودى للمجتمع الذى يحمل جنسيته .

ومع ان تلك المعارضة بدأت من شرق أوربا ، وامتدت الى غرب أوربا والولايات المتحدة ، الا أن مؤيدى الحركة الصهيونية أيضا كانوا أساسا من شرق أوربا .

المهم .. انه من اللحظة الأولى تمثل الحركة الصهيونية .. حركة سياسية بحته .. ولقد رأينا من قبل ذلك ان المؤتمر الأول قد ناقش ايجاد وطن قومى لليهود فى فلسطين . أو فى الأرجنتين .

وخلال الفترة التالية للمؤتمر الصهيونى الأول ، أنشىء فعلا صندوق استثمار يهودى ليقوم بمهمة تنظيم الهجرة اليهودية وتدبير الأراضى — وبصفة عامة — لكى يكون هو الأداة الاقتصادية لتنفيذ أهداف الحركة الصهيونية .

وفى الوقت نفسه .. بدأت المنظمة الصهيونية فى اجراء اتصالات مع عدد من الدول الكبرى لكسب اعترافها بأهدافها . وقد بدأت المحاولة مع المانيا .. وكان هرتزل — الذى أصبح الان أول رئيس للمنظمة الصهيونية العالمية — قد لجأ الى « القيصر غليوم الثانى » فى سنة ١٨٩٦ ووالى اتصالاته معه بعد ذلك . وحينما

استطاع أن يقابله فى أول مرة قال له : اننا نحتاج الى محمية يهودية فى فلسطين ، لان اليهود يرحبون بحماية المانيا بالذات اكثر من اى دولة أخرى . واقترح عليه هرتزل انشاء شركة لشراء واستثمار الأراضى فى فلسطين ، تكون تحت حماية المانيا .. بعد أن حصل على موافقة السلطان العثمانى .

ووعده القيصر بالتفكير فى الموضوع .. ولكن هرتزل عندما عاد الى مقابلته – أثناء زيارة القيصر للقدس فى ٢ نوفمبر سنة ١٨٩٨ – كتب فى يومياته يقول : « ان مرافق القيصر ، (أثناء المقابلة) قال لى بلباقة : كما تفضل به جلالة القيصر ، فان الماء (فى فلسطين) هو أهم شيء » ..

ولحظتها رددت عليه : اننا سنؤمن الماء للبلاد ، وسوف يكلفنا هذا الملايين ولكنه سيعود علينا بالبلايين .

قال القيصر لى : ان المال متوافر لكم بكثرة . عندكم مال أكثر مما عند أحد منا ..

ورد المرافق متمتما لى : « نعم ، المال الذى هو مشكلتنا .. عندكم منه الكثير » !

هكذا تلقى هرتزل كلمات طيبة من قيصر المانيا ، ولكنه لم يتلق أكثر من ذلك .. فقد تأكد أن القيصر ليس مستعدا أن يفعل شيئا . لقد خرج هرتزل بهذا الانطباع فى مقابلته مع القيصر يوم ٢ نوفمبر سنة ١٨٩٨ . وكان على الحركة الصهونية أن تنتظر تسعة عشر عاما بالضبط ، الى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ ، قبل أن تفعل مع بريطانيا ما فشلت فى أن تفعله مع المانيا : تقنعها بتبنى الأهداف الصهيونية لحسابها الخاص ، وتصدر وعد بلفور .

المهم .. ان هرتزل بدأ بعد ذلك يبحث الاتصـــال المباشر بالسلطان العثمانى . وكان يعلم أن السلطان قد رفض قبل ذلك بيع فلسطين لليهود ، حينما أجريت أول محاولة معه سنة ١٨٩٦ .

ولكن هرتزل ، كان يعلم ايضا أن الخزانة التركية قد اصبحت فى حالة أكثر سوءا . فلقد كان الدين التركى قد وصل الى ١٠٦

ملايين جنيه استرليني.وأصبحت موارد الخزانة التركية تحت رقابة مجلس الدائنين .. ومن ثم فان الفرصة قد تكون الان أكثر اغراء للسلطان العثماني ، ولابد للسلطان من أن يؤمن أخيرا بأن المال هو كل شيء .

لقد اتفق هرتزل مع زميلين يهوديين له ، هما السير صمويل ، والكولونيل جولد شميث في لندن .. واستطاعوا جمع عشرة ملايين جنيه استرليني من جمعية الاستعمار اليهودي لدفعها فورا الى السلطان كدفعة أولى في حالة موافقته

ولكن السلطان رفض أيضا للمرة الثانية .

وبذلك فشلت نهائيا محـــاولات المنظمة الصهيونية مع اثنتين من الدول الكبرى : المانيا وتركيا . بقيت محاولة أخرى — مع بريطانيا هذه المرة .

***

زار هرتزل لندن في سنة ١٩٠٢ لكي يؤسس فيها المقر الرئيسي لنشاط المنظمة الصهيونية . وكانت لديه ثلاثة أسباب لذلك :

أولا : ان لندن هي المركز المالي للعالم ، وبالتالي فسوف تفهم لغة المصالح الاقتصادية أكثر من غيرها .

ثانيا : ان بريطانيا لها امبراطورية استعمارية واسعة .. وبالتالي فان لها أحلاما توسعية في أوربا ، وهذا سوف يجعل بريطانيا « تفهمنا وتفهم اهتماماتنا » بتعبير هرتزل .

ثالثا : انه لو اقتنعت بريطانيا بأن لها مصلحة في مشروع الوطن القومي اليهودي فانها ستعمل لتحقيقه .

ويكفي الان أن نتذكر أن هذا الارتبـــاط في المصالح ، الذي أشار اليه هرتزل في يومياته ، سوف يتكرر كثيرا في علاقة بريطانيا بالحركة الصهيونية .

لقد رأينا ــ قبل الان ــ ان الحركة الصــهيونية فــكرت فى الارجنتين .. ثم فى قبرص ، كبديل أساسى لفلسطين بالنسبة للدولة اليهودية .. ولكن تلك لم تكن هى البدائل الوحيدة .

ففى سنة ١٩٠٢ بدأت المباحثات الجدية بين المنظمة الصهيونية والحكومة البريطانية ، والتى كان يراسها فى ذلك الوقت « آرثر جيمس بلفور » وكانت بريطانيا تحتل مصر منذ سنة ١٨٨٢ .

وقد سارت المفاوضات مع الحكومة البريطانية أولا على أساس أن تعطى ســيناء لليهود .. ثم تطورت المفاوضات لتصبح منطقة العريش هى المكان المطلوب .

لقد كان هرتزل يرى انه « .. مادام الباب الأمامى لفلسطين سيكون مغلقا أمامنا ، فلابد ان نجىء من أبواب خلفية اخرى » .

وفى يوم ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٢ كتب هرتزل فى مذكراته يقول : « اجتمعت اليوم مع المستر تشمبرلين (وزير المستعمرات بالحكومة البريطانية حينئذ) . تحدثت معه أولا عن مشروع قبرص . ولكنه قال لى : ان الحكومة البريطانية لا توافق على هذا المشروع بسبب رد الفعل الذى يمكن أن يحدث .

« ولكننى رددت على المستر تشمبرلين قائلا : ليس كل شىء فى السياسة يتم كشفه للناس . ان النتائج فقط ، أو الأشياء المفيدة فقط .. هى التى تظهر . لقد كشفت لك خطتى الخاصة بقبرص . انها تعتمد على جو ملائم فى قبرص لهجرة اليهود . يجب أن نتلقى الدعوة للذهاب الى هناك .. اننى سوف أمهد لذلك عن طريق ستة مبعوثين ســأرسلهم الى قبرص . وحينما ننشىء الشركة الشرقية اليهودية ــ برأسمال خمسة ملايين جنيه ــ للاستيطان فى سيناء ، أو فى العريش .. فان أهالى قبرص أنفسهم سيكونون متلهفين على تحويل جزء من هذا المطر الذهبى الى جزيرتهم ، وهذا سيكون قصدنا الحقيقى . وحين يتحقق ذلك .. سنحصل على الأراضى ، واهــل الجزيرة بعضهم مسلمون ، والبعض الاخر

يونانيون ، المسلمون سوف يرحلون . أما اليونانيون .. فسوف يسعدهم أن يبيعوا لنا بسعر مرتفع ، ثم يهاجروا الى اثينا أو الى كريت » .

ثم كتب هرتزل بعد ذلك فى مذكراته يقول : « اننا لو حصلنا من الحكومة البريطانية على قبرص .. فان هذا سوف يضعنا فى مركز أفضل للمساومة مع السلطان العثمانى .. وكذلك لو حصلنا على سيناء أو منطقة العريش . وكل منطقة من المناطق الثلاث، سوف تكون هى نصف الطريق الى فلسطين .. لان كلا منها يصلح مركزا لتجميع اليهود يقفزون منه مباشرة الى فلسطين » .

على أن المشروعات الثلاثة فشلت جميعا .. أما قبرص فقد رفضتها الحكومة البريطانية ، لأنها ستدخلها فى منازعات دولية عديدة .. أما العريش وسيناء فقد كتبت الحكومة المصرية فى ردها الى الحكومة البريطانية : « ان لدينا من المشاكل ما لا يحتاج الى مشكلة جديدة » .

وفى ربيع سنة ١٩٠٣ انتقل البحث مع الحكومة البريطانية الى مشروع جديد .. فقد عرضت الحكومة البريطانية على المنظمة الصهيونية أن تعطيها محمية فى شرق أفريقيا هى مستعمرة كينيا . وقد عرف المشروع بعد ذلك خطأ بأنه مشروع أوغندا ، أو مشروع شرق أفريقيا . والصحيح ــ كما هو ثابت من سجلات وزارة المستعمرات البريطانية أن كينيا هى التى كانت موضوع المفاوضات .

وقد حررت الحكومة البريطانية فعلا خطابا رسميا فى ١٤ اغسطس سنة ١٩٠٣ الى المنظمة الصهيونية بالمشروع الجديد . وعرض الخطاب على المؤتمر الصهيونى بعدها بأسبوع .. مما أدى الى ذيوع الخبر .

وبمجرد أن علم المستوطنون البريطانيون فى كينيا بذلك .. أسرعوا بالتعبير عن سخطهم وقدموا احتجاجا للحكومة البريطانية

ضد « السماح بهجرة اليهود الدخلاء الى كينيا » وارسلوا الاحتجاج برقيا الى وزارة الخارجية فى لندن .

وقد أدى هذا الى أن المؤتمر الصهيونى السابع عندما اجتمع فى ٣٠ يوليو سنة ١٩٠٥ — بعد وفاة هرتزل — قرر نهائيا رفض مشروع شرق أفريقيا وقرر تركيز مجهودات المنظمة على الهجرة الى فلسطين ، بعد خلاف حاد فى المؤتمر .

ولكن الظروف لم تكن مواتية بعد بالنسبة لفلسطين — على الأقل لم تكن لبريطانيا سلطة على فلسطين حتى ذلك الوقت — وكان هذا هو السبب فى أنه عندما حدثت الثورة التركية سنة ١٩٠٨ تصورت الحركة الصهيونية أن الثورة خلقت لها ظروفا جديدة للتعامل مع تركيا .. فأنشئت وكالة صهيونية فى القسطنطينية فى نفس السنة . وقدمت الوكالة الى تركيا مشروعا جديدا للسماح باقامة مستعمرات يهودية فى الجزء الآسيوى ، وبالذات فى الجزء الواقع مابين نهرى دجلة والفرات .. يعنى : فى العراق هذه المرة !

ولكن المشروع الجديد فشل أيضا . كما سجله ليونارد شتين السكرتير السياسى للمنظمة الصهيونية العالمية فى كتابه : وعد بلفور .

وكان هذا هو المشروع السابع الذى يواجه الفشل بالنسبة للحركة الصهيونية .. فالمنظمة قد حاولت أولا فى فلسطين .. ثم فى الارجنتين .. ثم فى قبرص .. ثم فى سيناء .. ثم فى منطقة العريش .. ثم فى كينيا .. ثم فى العراق .

وهذه التطورات نفسها هى أكبر دليل على أن الحركة الصهيونية .. هى حركة سياسية ، دفعتها عوامل سياسية بحتة ، وستظل هذه العوامل ملتصقة بالحركة الصهيونية دائما .

و .. نحن مازلنا فى سنة ١٩٠٨

ومازالت الحركة الصهيونية تبحث عن قوة كبرى تتبناها .. ؟

فاين ستجد هذه القوة ؟ !

الصفقة

كانت فترة العشرينات من هذا القرن العشرين ، هى سنوات الاستعداد بالنسبة للحركة الصهيونية . ولكنها كانت سنوات الخلاف فى مصر .

فبعد ثورة شعبية هزت مصر قرية قرية فى سنة ١٩١٩ ، اصبح الشعب مشغولا بالمقارنة بين سعد وعدلى ــ اقصد سعد زغلول وعدلى يكن .

وعندما نلقى نظرة على مصر خلال تلك السنوات ، نجد أن سيد درويش قد بدأ يحدد للغناء والموسيقى شخصية مصرية الملامح . العقاد والمازنى أصدرا كتابا مشتركا فى النقد الأدبى اسمه « الديوان » . طلعت حرب افتتح بنك مصر فى ٧ مايو ١٩٢٠ برأس مال ٨٠ الف جنيه .

واذا قفزنا الى الامام خمس سنوات ــ الى سنة ١٩٢٥ ــ فسوف نجد أن الانجليز والملك تخلصوا من سعد زغلول باقالته من الوزارة . يوسف وهبى يمثل مسرحية « راسبوتين » على مسرح رمسيس . طه حسين عين أستاذا فى الجامعة المصرية ، التى تم ضمها فى نفس السنة الى وزارة المعارف العمومية . الشيخ على عبد الرازق أصدر كتاب « الاسلام وأصول الحكم » الذى هز مثقفى مصر حتى أقدامهم . لقد هاجم فيه الخلافة والنظام الملكى . فردت عليه الحكومة بأنه لابد أن يكون ــ بالضرورة ــ خائن وكافر ــ .. بنفس ما ردت به على طه حسين فى السنة التالية . بأنه هو الاخر خارج عن الطاعة والأدب والقانون .. وبينما كان المثقفون يطالبون بحرية الرأى .. والحكومة تصادر حرية الرأى .. بينما المثقفون مشغولون بالمستقبل ، والحكومة مشغولة بالسلطة .. نقرأ فى القدس خبر قيام المنظمة الصهيونية بافتتاح الجامعة العبرية .

كانت الصهيونية فى حالة استعداد . وكانت مصر فى حالة مخاض . لكنه مخاض محاط بكثير من الضباب . لعل أصدق تمثيل له ، هو أنه بعد ٨ سنوات ـ أى فى سنة ١٩٣٣ ـ أصدر توفيق الحكيم مسرحيتين فى وقت واحد لم يلفتا النظر فى البداية . المسرحيتان هما «أهل الكهف» . . و «عودة الروح» .

وأعود خلفا الى السنوات التالية لانتهاء الحرب العالمية الأولى . . فهى سنوات الأستعداد بالنسبة للحركة الصهيونية . . وقد كان المناخ ملائما أكثر ما يمكن لهذا الاستعداد .

ان شخصيتنا الرئيسية على المسرح فى هذه المرحلة هى : حاييم وايزمان . . الذى أصبح رئيسا للاتحاد الصهيونى فى بريطانيا ، وهى بدورها البلد الذى بدات المنظمة الصهيونية تلقى بثقلها الرئيسى فيه .

لقد أصبح وايزمان أذن هو العقل الجديد الذى قاد السفينة فى سنوات العمل الهادىء السابقة على نشوب الحرب العالمية الأولى .

ومن البداية نلاحظ ان هذه الفترة تميزت بتغييرات عميقة داخل المجتمع اليهودى الأوربى . وقد كان لهذه التغيرات انعكاسات أخرى ـ بنفس العمق ـ على تطور الحركة الصهيونية نفسها .

فأولا : تميزت تلك الفترة بصفة عامة بهجرة يهودية واسعة النطاق من شرق أوربا الى العالم كله . ففى الفترة من سنة ١٨٨١ الى سنة ١٩١٤ خرج من شرق أوربا مليونان ونصف مليون يهودى مهاجرين الى العالم كله .

أما فى فلسطين . . فقد هاجر اليها بين سنتى ١٨٨١ و ١٩١٤ ـ أى خلال ٣٣ سنة ـ ٣٥ الف مهاجر . . فقط . .

وثانيا : ان الانقسام فى المجتمع اليهودى كان يزداد عمقا . فلقد كان البعض يرى أن الحل الاخير لمشكلة اليهود يكون بجعلهم

اكثر قدرة على الذوبان فى المجتمعات الأوربية نفسها . والبعض الاخر كان يرى أنه لا يوجد حل سوى اقامة دولة يهودية . وهذا البعض هو الأقلية التى تعتمد عليها المنظمة الصهيونية .

وثالثا : انه حتى فى داخل المنظمة الصهونية كان هناك أنقسام آخر . ان البعض كان يرى — مثل هرتزل — ان المنظمة الصهيونية لابد ان تحصل أولا على ضمان دبلوماسى رسمى من احدى الدول الكبرى .. قبل أن تبدأ اى جهود منظمة لتهجير اليهود الى فلسطين .. وذلك على أساس أن هذا هو الضمان ضد عدم انتكاس عمليات الاستيطان الجديدة فى المستقبل . ومن ناحية أخرى كان البعض الآخر يرى أن فشل هرتزل فى مفاوضاته مع الدول الكبرى هو دليل على أن هذا الضمان الدبلوماسى لن يأتى ابدا ، وأن البديل لذلك هو نسيان هذا الموضوع تماما .. والتركيز بدلا منه على خلق أمر واقع فى فلسطين .

ثم جاء حاييم وايزمان ليوفق بين الجناحين فى نظرية جديدة اقرها المـــؤتمر الصهيونى الثـــامن سنة ١٩٠٧ . ان النظرية الجديدة تعتمد على أن كلا من المجهودين هو شرط لنجاح الاخر .. وانه يجب التركيز على الاتجـــاهين معا : اتجـــاه العمل الدبلوماسى .. واتجاه استعمار الأرض .

كان هذا هو الموقف اذن عندما قامت الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ . جهود حثيثة لاقامة مستعمرات نشطة فى فلسطين ، وفى نفس الوقت جهود مضنية للتفاوض مع الدول الكبرى ، وخصوصا فى لندن .

وبنشوب الحرب العـــالمية ، وجدت الحـــركة الصهيونية أن الظروف التى ستخلقها الحرب يجب استغلالها الى اقصى قـــدر لمصلحة المطالب الصهيونية ، والا فقد لا تتكرر مثل هذه الفرصة ابدا .

والســـؤال الذى واجهته المنظمة الصهيونيـــة هو : الى اى جانب تقف ؟ هناك كتلة الحلفاء ــ تتزعمهم بريطانيا وفرنسا .

مقابل الكتلة الأخرى وتتزعمها المانيا وتركيا . فعلى أى طرف من هؤلاء تقامر الحركة الصهيونية بمصيرها ؟

انه سؤال جوهرى . ويحتاج الى حسابات دقيقة ، حتى تكون نسبة المجازفة أقل ما يمكن .

وقررت المنظمة الصهيونية ألا تقف — تماما — مع طرف دون آخر . فبعد كل شىء هنـــاك احتمالات متساوية بانتصار كل طرف من الطرفين المتحاربين .

كان الحل هو : الا تلقى الحركة بكل البيض فى سلة واحدة !

سوف يبقى المقر الرئيسى للمنظمـــة الصهيونية فى برلين — عاصمة المانيا — بينما المجهود الفعلى سوف يتركز فى لندن — عاصمة بريطانيا . وسوف يكون حاييم وايزمان هو المسئول الأول عنه .

وكان عمر حاييم وايزمان عند قيام الحرب قد أصبح اربعين سنة . وقد مضى على اقامته فى بريطانيا عشر سنوات ، وهو أصلا من مواليد روسيا ، واصبح عند قيام الحرب يعمل فى خدمة المجهود الحربى البريطانى ، وخصوصا بالنسبة لانتاج المتفجرات، لأنه أصلا كيمائى .

لقد قدر لوايزمان بعـــد ذلك أن يكـــون الزعيم الدبلوماسى الصهيونى لهذه المرحلة . كان هرتزل هو المفكر ، وسوف يصبح بن جوريون هو المنظم ، وموشى ديان هو المحارب ، ولكن وايزمان هو الزعيم . انه هو الذى ظفر بوعد بلفور ، وهو أول من تفاوض مع فيصل بن الحسين ، ومع تشرشل ، ومع ممثلى الدول الكبرى فى كل المراحل التالية .

وكانت نظرية وايزمان — كما رأينا من قبل — هى نفسها النظرية التى أعلنها فى المؤتمر الصهيونى الثامن سنة ١٩٠٧ ،

نظرية تقول ـ بكلمات وايزمان ـ : « طبعا يلزمنا أن نبقى قضيتنا ماثلة أمام مجالس العالم . الا ان عرضنا لقضيتنا لن يقدر له النجاح والفعالية الا اذا قامت معه أعمال الهجرة ، والاستعمار . والتعليم » .

وهى نظرية فسرها وايزمان أكثر فيما بعد ، عندما قال فى كتابه « التجربة والخطأ » أن : « .. لعملنا الدبلوماسى اهميته . ولكن هذه الأهمية تتزايد ، بفضل عملنا الفعلى فى فلسطين » و « .. ان جميع الصيغ السياسية ، حتى اذا أقرتها وقدمتها السلطات المعنية بالأمر ، لا تحمل لنا أية فائدة ـ بل تحمل لنا بعض الضرر ـ ما دامت لم تنبثق عن جهود مضنية بذلناها نحن على تراب فلسطين . فمستعمرتا ناحال وداجانيا ، والجامعة العبرية ، ومشروع روتنبرج الكهربائى ، وامتياز البحر الميت ـ هذه كانت تعنى بالنسبة لى ، سياسيا ، أكثر من جميع الوعود الصادرة عن الدول العظمى أو عن الأحزاب السياسية الكبرى . أن هذا ليس سببه عـدم احترامي للحكومات والأحـزاب ، ولا عدم تقديرى للتصريحات السياسية . بل لأن التصريح السياسى ، فى اعتقادى ، يكون حقيقيا فقط عندما يوازيه عمل نقوم به نحن فى فلسطين . ان التصريحات تعتمد على الاخرين ، أما الانجاز فلا يعتمد الا علينا نحن . هذا هو كنه حياتى الصهيونية .. فهناك من يتوق الى انتهاج الطرق التى شقها الغير وعبدها الاخرون : أما أنا فانني تواق الى الطريق التى نعبدها نحن بأقدامنا ، مهما أثخنت أقدامنا الجراح » .

بهذا الأسلوب أذن .. بدأ وايزمان يقود العمل الصهيونى : استعمار يتم فى فلسطين ، وفى نفس الوقت مجهود يتم لكسب الدول الكبرى .

وطالما أن الدول الكبرى تعنى بريطانيا ـ بالنسبة لوايزمان ـ لأنها الجزء الذى يتحمل هو مسئوليته ، فقد بدأ يضاعف من المجهود الصهيونى فى هذا الاتجاه .

لقد كتب الى صديق له فى ١٠ اكتوبر سنة ١٩١٤ يقول : « أن خططى تعتمد طبعا على افتراض أساسى هو أن الحلفاء هم

الذين سيكسبون الحرب . أن هذا هو ــ على الاقل ــ ما آمله وأرغب فيه . كما أننى لا أشك فى أن فلسطين سوف تقع فى منطقة نفوذ بريطانيا ، ان فلسطين هى امتداد طبيعى لمصر ، وهى الحاجز الذى يفصل قناة السويس عن البحر الأسود .. وأية أعمال عدائية قد تحدث من هذا الجانب سوف تجعل من المنطقة بلجيكا آسيوية . واننا ــ نحن الصهيونيين ــ نستطيع بسهولة أن نحرك مليون يهودى الى فلسطين فى خلال الخمسين او الستين سنة القادمة . بهذا تحصل بريطانيا على حاجز فعال .. ونحصل نحن على وطن . »

بهذه اللهجة بدأت مفاوضات «وايزمان» مع الحكومة البريطانية . حكومة أصبحت منذ سنة ١٩١٦ .. برئاسة لويد جورج ، وآرثر جيمس بلفور للخارجية . ان الحركة الصهيونية سبق أن اتصلت بالاثنين مبكرا وضمنت اتفاقهما وتعاطفهما معها .. علاوة على عدد آخر من أعضاء الوزارة الجديدة ، ومدير المخابرات العسكرية ، ورئيس تحرير جريدة التايمز !

ولكن المفاوضات الجديدة بين الحركة الصهيونية والحكومة البريطانية الجديدة ــ والتى أدت فى النهاية الى صدور وعد بلفور ــ لم تبدأ الا مع سنة ١٩١٧ .

فى ربيع تلك السنة كانت الحكومة البريطانية قد اصبحت مقتنعة بأن الصهيونية هى قوة فعالة فى الحياة اليهودية .. وتبالغ اكثر مما يجب فى تصورها لنفوذ اليهود فى الشئون الروسية . وكانت تعتقد أيضا أن مصلحتها العسكرية قد تستفيد لو أن انتصار الحلفاء اقترن فى عقول اليهود بتحقيق المطالب الصهيونية . وكلما كانت الحرب تتطور الى الأسوا..فان بريطانيا كانت تزداد تمسكا بالأمل فى أنه لو أصبح هناك حافز قوى لدى اليهود .. فان اليهود الروس سوف يضعون كل ثقلهم ضد المتطرفين اليساريين ، وفى الابقاء على روسيا فى الحرب ، او ــ على الأقل ــ منعها من عقد صلح منفرد مع المانيا .. ومن استغلال الموارد الروسية لصالح المانيا .

ويقول « ليونارد شتين » الذى كان سكرتيرا للمنظمة الصهيونية العالمية لمدة تسع سنوات ــ يقول فى كتابه « بيان بلفور » : ان احد النقاط الرئيسية التى كانت وزارة الخارجية البريطانية تستخدمها بقوة للضغط فى سبيل اصدار تأكيد بريطانى عاجل للصهيونيين .. هو أن اليهود يلعبون دورا هاما فى روسيا .. وان كل يهودى فى روسيا هو فى نفس الوقت صهيونى » .

هكذا كانت الحركة الصهيونية تستخدم مع بريطانيا لهجتين :

● ان الاستجابة للمطالب الصهيونية سوف يفيد بريطانيا عسكريا فى المدى القصير .

● أن قيام دولة يهودية فى فلسطين يضمن ايضا ــ فى المدى الطويل ــ وجود صديق مخلص يحمى المصالح البريطانية فى مصر .

وبناء على ذلك فأن جريدة فلسطين (اليهودية) التى تصدر فى لندن كتبت فى ٧ أبريل سنة ١٩١٧ تقول : « ان الحكومة البريطانية كانت ترى ان فلسطين يجب أن تكون بريطانية .. فأصبحت ترى أنه لكى تكون فلسطين بريطانية .. يجب ان تكون يهودية »

* * *

وفى نفس الوقت كان على المنظمة الصهيونية أن تخوض معركة اخرى أكثر مشقة ، معركة مع اليهود أنفسهم لاقناعهم بالوقوف خلف المنظمة الصهيونية أثناء مفاوضاتها الجارية مع الحكومة البريطانية .

لقد ارسل وايزمان الى المؤتمر الذى عقده الصهيونيون الروس يقول فى يونيو سنة ١٩١٧ متوسلا : « لابد أن نحصل على تأييدكم فى هذه الظروف . ولابد أن تحاولوا الحصول على تأييد الحكومة الروسية لخطط بريطانيا » .

وقبلها بشهرين أرسل وايزمان الى صديقه الصهيونى «برانديس» مستشار الرئيس الأمريكى « ويلسون » خطابا يقول فيه : « أننا ننتظر هنا تدعيما لعملنا من الحكومة الامريكية . ان تصريحا يصدر منك ــ وربما من الاخرين المتصلين بالحكومة الأمريكية ــ لصالح قيام فلسطين يهودية تحت الحماية البريطانية .. سوف يقوى مركزنا كثيرا » .

وبعدها بأسبوعين فقط أرسل من جديد ــ برقية هذه المرة ــ الى «برانديس» يناشده فيها قائلا : « أرجو أن تدرك طبيعة الظروف القائمة ضدنا هنا ، والتى لو تركناها فستكون النتيجة وجود اشراف دولى مشترك على فلسطين .. وهذا معناه كارثة لنا . ان التأييد منــك ومن الحكومة الأمريكية ومن اليهود الأمريكيين سوف تكون له قيمة كبيرة جدا . أرجو أن يكون ردك سريا » .

ان « وايزمان » كان فى سباق مع الوقت للضغط على الحكومة البريطانية بينما مسدس الحرب مصوب الى رأسها . وكان أسوأ ما يخشاه هو أن يخذله اليهود أنفسهم . لذلك فانه كان يوالى الأجتماع بهم لضمان تأييدهم وحماسهم ..

وفى مؤتمر صهيونى بلندن عقد فى ١٦ مايو (١٩١٧) قال لهم « وايزمان » : ان الدول يجب بناؤها ببطء .. وبالتدريج .. وبانتظــام .. وبصبر . ومن ثم نحن نقــول انه بينما هدفنا النهــائى هو خلق دولة يهودية ، فان الطــريق لتحقيق ذلك يكون على عدة مراحل متداخله . وأحدى هذه المراحل ــ التى أرجو أن تتحقق نتيجة لهــذه الحــرب ــ هى أن .. فلسطين اليهودية سوف تتمتع بحماية قوة ضخمة وكبيرة مثل بريطانيا ، وتحت جناح هذه القوة يصبح اليهود قادرين على اقامة جهاز ادارى وتنفيذى ينجز أهدافنا الصهيونية .. بينما لا نزعج أنفسنا بالمصالح المشروعة للاهالى من غير اليهود . واننى مخول بأن أعلن فى هذا الاجتماع موافقة الحكومة البريطانية على هذه الخطة » .

ونلاحظ فى كلام وايزمان حرصه الشديد على أن يقنع اليهود بوجود ضمان بريطانى ــ لم يوجد بعد ــ وفى نفس الوقت يقنع

الحكومة البريطانية بأنه يتحدث باسم جميع اليهود ـ وهو أمر ليس صحيحا .. بعد .

ففى ١٧ يونيو (١٩١٧) قام وايزمان والمليونير اليهودى روتشيلد بمقابلة بلفور ـ وزير الخارجية فى الحكومة البريطانية ـ وقالا له ان الوقت قد حان لكى تعطينا الحكومة البريطانية وعدا محددا بتأييدها لمطالب المنظمة الصهيونية .

وطلب منهم بلفور أن تعد له المنظمة الصهيونية مشروع بيان يكون مرضيا للمنظمة الصهيونية ، وسوف يحاول هو أن يقدمه الى الحكومة . وكان المفهوم ان المنظمة ستتقدم لبلفور مشروع البيان هذا بطريقة غير رسمية ، وضمن خطاب شخصى يوجهه روتشيلد الى بلفور .

ومن المهم هنا ان نسلط بعض الأضواء على هذه النقطة التفصيلية ، لأنها توضح لنا طبيعة اللهجة التى كانت تستخدمها المنظمة فى مفاوضاتها السياسية هذه ،والتى سوف تتمخض حالا عن صدور وعد بلفور المشهور .

لقد كانت الصيغة الأصلية التى أعدتها المنظمة تنص على :
« .. أن الحكومة البريطانية ـ بعد أن وضعت فى اعتبارها أهداف المنظمة الصهيونية ـ توافق على مبدأ الاعتراف بفلسطين كوطن قومى للشعب اليهودى ، وعلى حق الشعب اليهودى فى بناء حياته القومية تحت حماية يتم اقرارها بعد نهاية الحرب . ان الحكومة البريطانية ترى ـ كضرورة لتحقيق هذا المبدأ ـ ضمان الاستقلال الذاتى الداخلى للقومية اليهودية فى فلسطين ، واقامة مؤسسة قومية يهودية للإستعمار .. من اجل اعادة التوطين والتنمية الاقتصادية فى فلسطين .. »

وعندما قرأ روتشيلد هذه الصيغة اعترض عليها قائلا ان بيانا بهذا الشكل سوف يكون طويلا جدا ، كما أنه يحتوى على تفاصيل كثيرة ليس من المستحسن ان تظهر فى الوقت الحاضر . لهذا رأى روتشيلد انه يكفى ان يضم البيان المقترح نقطتين جوهريتين فقط :

أولا : الاعتــراف بفلسطين باعتبارها « بيتا قوميا » للشعب اليهودى .

ثانيا : الاعتراف بالمنظمة الصهيونية باعتبارها ممثلة للشعب اليهودى .

وفعلا .. تم تعديل الصيغة ، وكتبها روتشيلد فى خطاب شخصى منه .. وجهه الى بلفور فى ١٨ يوليو ١٩١٧ .

* * *

وفى ٣ سبتمبر اجتمع مجلس الوزراء البريطانى . وفى هذا الاجتماع نوقش مشروع البيان الصهيونى لأول مرة بصفة رسمية ضمن جدول أعمال مجلس الوزراء .

ولابد ان نتوقف الان قليلا أمام عدة ملاحظات :

● ان أحد الافتراضات الأساسية لاصدار البيان المقترح هو قوة المنظمة الصهيونية وتجميعها لكل اليهود . وهذا افتراض غير صحيح .

فحتى ذلك الوقت ــ وبنــــاء على الأرقام الرسمية للمنظمة الصهيونية نفسها ــ نجــد ان العدد الاجمالى لأعضـــاء المنظمة الصهيونية كان مائة وثلاثون ألف يهودى صهيونى . بينما كان مجموع يهود العالم ١٤ مليونا .

وعدد أعضاء المنظمة الصهيونية فى بريطانيا كان ثمانية آلاف يهودى صهيونى ، بينما فى بريطانيا ثلاثمائة ألف يهودى .

وفى الولايات المتحدة كان هناك اثنى عشر الف عضو فى المنظمة بينما عدد اليهود هناك ثلاثة ملايين .

وفى روسيا كان عدد اعضاء المنظمة ستة وثلاثون الفا ، من بين أجمالى اليهود فى الامبراطورية الروسية حينئذ وهو ستة ملايين يهودى .

هذه واحدة ..

● ومن ناحية أخرى كانت حكومة بريطانيا تتعامل مع المنظمة الصهيونية باعتبارها لسان حال يهود العالم كله وهذا أيضا غير صحيح .

ان « ادوين مونتاج » ـــ وهو الوزير اليهودى فى الحكومة البريطانية حينئذ ـــ كتب خطابا الى لويد جورج رئيس الوزراء ـــ ورئيسه هو ـــ يقول له فيه : « انك تسمح لهذا الصهيونى الأجنبى الخيالى (يقصد وايزمان) بتضليلك مكتسحا بذلك كل الصعوبات القائمة . واذا أصدرت بيانا باعتبار فلسطين وطنا قوميا لليهود ، فان كل منظمة وصحيفة معادية للسامية سوف تتساءل فى اليوم التالى : بأى حق اذن يوجد وزير يهودى فى الحكومة البريطانية ؟ »



المهم ..

كان أول اجتماع وزارى يناقش فيه البيان المقترح بصفة رسمية ، هو اجتماع مجلس الوزراء البريطانى فى ٣ سبتمبر (١٩١٧) .

وكانت النتيجة الوحيدة التى أسفرت عنها المناقشات فى الاجتماع هى : ضرورة الحصول على رأى الرئيس الامريكى ويلسون بوضوح، وان لم يكن المطلوب رأيا رسميا .

وفعلا .. أبرقت وزارة الخارجية البريطانية فى اليوم التالى مباشرة الى المصادر المتصله بالرئيس الأمريكى تطلب رأيه . وقالت الخارجية البريطانية فى برقيتها أنها ترغب فى الحصول على اجابة مبكرة من الرئيس الأمريكى ، حيث أن ١٧ سبتمبر سوف يصادف بداية السنة اليهودية الجديدة ، وان صدور البيان فى تلك المناسبة سيكون له أثر طيب .

وفعلا .. خلال أسبوع واحد وصل رد الرئيس « ويلسون » .. ولكن بعكس ما توقعت الحكومة البريطانية . لقد قال ويلسون

انه « .. لا يرى ان الوقت ملائم لصدور أى بيان محدد لصالح المنظمة الصهيونية .. الا اذا كان مجرد بيان تعاطف لا يتضمن أى التزام أو تورط من جانب بريطانيا .. فضلا عن انه لا يفهم سر تعجل الحكومة البريطانية ومبالغتها فى تقدير أهمية الحركة الصهيونية» .

كان هذا الرد من رئيس الولايات المتحـــدة مفاجئا للحكومة البريطانية . وبمجرد أن علم وايزمان بهذا الرد انزعاج بشدة ــ وأرسل برقية « عاجلة جدا وسرية » الى « براندیس » مستشار الرئيس « ويلسون » والى قيادات المنظمة الصهيونية بالولايات المتحدة . أن وايزمان طلب منهم ممارسة « أقصى ضغط ممكن لتغيير رأى الرئيس ويلسون » .

ويبدو ان المنظمة الصهيـــونية سرعان مـــا اكتشفت أن احـــد مستشارى ويلسون ــ وهو بالذات الكولونيل هاوس ــ هو الذى نصح الرئيس بارســال هذا الرد . وانه انتقد أمام الرئيس بشدة « .. الحركة الصهيونية وادعاءاتها » .

وبسرعة استطاعت المنظمة ــ باتصالاتها وأجهزتها فى الولايات المتحدة ــ أن تشن حملة ضد الكولونيل هاوس هذا ــ متهمة اياه بمعاداة السامية ــ وهو الاتهام الجاهز لدى الصهيونية دائما ضد أى معارض . وخلال فترة قصيرة استطاعت المنظمة ان تتغلب على هذه العقبة المفاجئة التى واجهتها . ولكن المنظمة ــ فى نفس الوقت ــ قدرت أنه لو حدثت نكسة أخرى فقد يستحيل معالجتها.

وعن هذه النقطة يعلق السكرتير السياسى للمنظمة الصهيونية فى كتابه « بيان بلفور » قائلا : « انـــه لولا أن وايزمـــان كانت له علاقات شخصية مباشرة مع رئيس الوزراء لويد جورج ، لمـــا علم بسرعة بحقيقة الرد المفاجىء الذى جاء من الرئيس ويلسون فى الوقت المنـــاسب .. ولادى هذا الى منع صدور وعد بلفـــور نهائيا » .

* * *

ثم : نقترب من الايام الاخيرة من شهر اكتوبر ، أى الاسبوع الاخير لبحث مشروع وعد بلفور من جانب الحكومة البريطانية . أن مجلس الوزراء كان قد عقد اجتماعا ثانيا لمناقشة البيان ، وكان قد قرر أخذ رأى القيادات الصهيونية فى تعديلات جديدة عليه للمرة الأخيرة . ثم عقد المجلس بعدها اجتماعا ثانيا ، تقرر بعده أيضا تأجيل اصدار البيان .

وكان سبب التأجيل الثالث غريبا هذه المرة .. تكشف عنه زوجة وايزمان فى مذكراتها الخاصة ، حيث سجلت بتاريخ ٢٨ أكتوبر قولها : « للمرة الثالثة وضع البيان الفلسطينى فى جدول أعمال مجلس الوزراء . وللمرة الثالثة تأجل بسبب أعدائنا اليهود » !

وازاء هذه العقبات اضطر وايزمان لعقد مؤتمر صهيونى فى لندن — فى ٢١ أكتوبر — جمع فيه توقيعات ثلاثمائة شخصية يهودية على عريضة تطالب الحكومة البريطانية بالاسراع فى اصدار البيان (مع ملاحظة أن عدد اليهود فى انجلترا حينئذ هو ثلاثمائة الف .. بينما التوقيعات التى حصل عليها وايزمان ثلاثمائة) !

وفى ٣١ اكتوبر كانت جيوش بريطانيا قد دخلت الى فلسطين .

وعندما اجتمع مجلس الوزراء البريطانى فى أول نوفمبر — الليلة التى وافق فيها نهائيا على صدور البيان ، قال بلفور وزير الخارجية لمجلس الوزراء : «أن الأغلبية الكبرى من اليهود فى روسيا وأمريكا — بل وفى انحاء العالم — هم الآن .. بهذا البيان .. موالون للحركة الصهيونية » .

وفى اليوم التالى لهذه الجلسة ، أرسل بلفور فعلا الى المليونير اليهودى الصهيونى روتشيلد .. يخطره بصدور البيان رسميا ، وبنصه الرسمى الأخير . بيان يقول :

« أن حكومة صاحبة الجلالة تنظر بعين الرضا الى انشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، وانها ستبذل أقصى جهدها لتيسير

تحقيق هذا الغرض ، على أنه يجب أن يكون مفهوما فهما صحيحا أن هذا لن يؤدى الى المساس بالحقوق المدنية أو الدينية للطوائف غير اليهودية التى تقيم فى فلسطين ، أو التى يتمتع بها اليهود فى أى بلد آخــر » .

* * *

كانت هذه هى الصيغة الأخيرة التى صدر بها البيان رسميا ، وهى كما نرى معدلة عن الصيغة الأولى التى اقترحتها المنظمة الصهيونية فى خطاب روتشيلد الى بلفور قبل شــهرين ونصف . تعديل وصفه وايزمان بعد ذلك بأنــه « مر المذاق » .. ولــكنه يتساءل فيما بعد ، قائلا فى كتابه « التجربة والخطأ » :

« هل كنا حصلنا (لو لم نوافق على التعديل) على بيان افضل؟ ام هل كانت الحكومة (البريطانية) سئمت من الموضوع ... ونفضت يديها منه كليا ونهائيا ؟ أو أن تأجيلا طويلا كان سينجم عن ذلك .. فتنتهى الحرب قبل أن نصل الى اتفاق ، وتزول نتيجــة لذلك جميع الفوائد المتوخاة من صدور قرار عاجل . لقد كان من راينا أن نقبل (الصيغة المعدلة) وان نضغط لــكى نحصــل على اقرارها اقرارا نهائيا ، لاسيما وأننا كنــا نعلم علم اليقين أن خصومنا من دعاة الاندماج (وهم أيضا يهود) سوف يفيدون من كل تأخير لأغراضهم .كما أننا كنا نعلم أن صراعا شبيهــا بذلك كان يجرى فى أمريكا ايضا » .

* * *

اذن .. ها هى الواقعية قد انتصرت ، وها هو البيان قد صدر .. أخيرا .

فما هى الأسباب التى جعلت بريطانيا تصدر مثل هذا البيان ، الذى يضع التزاما خطيرا وطويل المدى كاقامة دولة يهوديــة فى فلسطين ؟

ى كتاب « بيان بلفور » يقول السكرتير السياسى للمنظمة الصهيونية : أن هناك أسبابا تكتيكية وأسبابا استراتيجية لصدور هذا البيان .

اما الأسباب التكتيكية التى تتصل بمجرى الحرب نفسها فهى :

اولا : أن يمارس اليهود فى روسيا — التى كانت حينئذ فى مرحلة المخاض الثورى — ضغطهم لكى لا تعقد روسيا صلحا منفردا مع المانيا ، أو على الأقل لكى لا تستفيد المانيا من الموارد الروسية .

ثانيا : أن تمنع بيانا لصالح الحركة الصهيونية كان على وشك الصدور من جانب المانيا (وهذا جزء مما قالته المنظمة للبريطانيين) .

ثالثا : ان تكسب مساندة يهود العالم لمجهودها الحربى .

على أن المؤلف نفسه يقول بعد ذلك : « أن هذه الاعتبارات كلها مؤقتة ، وتنتهى بانتهاء الحرب . بينما البيان يفرض على بريطانيا التزامات تستمر لفترة طويلة بعد الحرب . ولذلك فهناك اعتبارات أخرى تتعلق بالاستراتيجية البريطانية عموما .. وتتعلق باعادة تخطيط الشرق الأوسط كله .. هذه الاعتبارات سكت عنها الطرفان تماما (بريطانيا والمنظمة الصهيونية) والتزما الصمت المطلق نحوها » .

ومع ذلك ، فقد نكتشف جزءا من هذه الاعتبارات..من الخطاب الذى كتبه وايزمان الى برانديس القاضى الأمريكى وصديق ومستشار الرئيس ويلسون .

ان الخطاب محرر فى ١٤ يناير سنة ١٩١٨ ، وفيه يقول وايزمان حرفيا :

« .. ان اقامة دولة يهودية فى فلسطين — تقيمها بريطانيا العظمى وتساندها أمريكا — معناه ضربة قاضية للسيادة العربية فى منطقة الشرق الأوسط ، ولسيادة دول الشرق الأوسط كله .

« ان أمريكا قد لا تدرك هذا الخطر مبكرا ــ مثلما أدركنا نحـــن فى أوربا ــ ولكنها سوف تجد أن عليها فى النهاية أن تواجهه . ويجب أن يكون من الواضح جدا .. ان هناك تلاقيا كاملا بين المصالح الأمريكية البريطانية اليهودية .. ضد المصالح الألمانية التركية فى المنطقـــة » .

وتظهر الاعتبارات الاستراتيجية أيضا من تصريح لأحد الوزراء فى الحكومة البريطانية ــ هو كيزون ــ قال فيه : ان فلسطين هى فعلا حاجز استراتيجى لمصر . وانه قد يحين الوقت الذى يتم فيه الدفاع عن قناة السويس ــ كما حدث فى هذه الحرب ــ من الجانب الفلسطينى » .

* * *

والآن .. ماذا كان صـــدى اصدار وعد بلفـــور فى بريطانيا نفسهـــــا ؟

لقد نشرت صحيفة « الديلى اكسبريس » بعنـــوان : « دولة لليهود » .

ونشرته « التايمز » بعنوان : فلسطين لليهود .

ونشرته « اوبزيرفر » بعنوان : بعد جيـــل واحد سوف تصبح فلسطين لليهـــود .

أما المنظمة الصهيونية نفسها ، فقد قفز عدد أعضائها من اليهود فى نفس السنة من ١٣٠ الفا الى ٧٧٨ الفا !

* * *

وكيف كان الحال فى الدول العربية ــ لنقل فى مصر مثلا ــ عندما أذيع البيان فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ ؟

كان هناك حكم عسكرى بريطـانى مباشر فى مصر . وكـانت بريطانيا قد وضعت الملك فؤاد على العرش فى الشهر المـاضى . والسير ريجنالد وينجت هو المندوب السامى البريطانى وبالتـالى فهو الحاكم الفعلى .

وبعد سنة واحدة أصدرت وزارة المالية المصرية قرارا باهداء الحكومة البريطانية ثلاثة ملايين جنيه استرلينى اعترافا بجميلها — جميل بريطانيا — فى حماية البلاد من خطر الغارات .

وفى الحكومة المصرية وزير يهودى هـو يوسف قطـاوى .. باعتباره وزيرا للمالية — نفس الوزارة التى أهدت الملايين الثلاثة لبريطانيا — ثم وزيرا للمواصلات .

وحاييم ناحوم افندى اصبح فى مصر رئيسا للحاخامات اليهـود علنا ، ومندوب الاتصال مع المنظمة الصهيونية سرا .

* * *

وفى اغسطس سنة ١٩٢١ هناك برقية من فيصل الأول — الذى اصبح ملكا للعراق — موجهة الى جورج الخامس ملك بريطانيـا وامبراطور الهند يقول فيها : « .. اننى أذكر مفاخرا لجلالتكم ولشعبكم الكريم ، الأيادى البيضاء فى تحقيق آمال العرب . واننى لواثق بأن الأمة العربيـة ستحقق ما لجلالتكم من الاعتمـاد عليها باعادة مجدها القديم .. مادامت مؤيدة بصداقة بريطانيـا العظمى » .

وقبلها كتب ونستون تشرشل فى لندن مقالا فى صحيفة«الصنداى هيرالد » — ٨ فبراير ١٩٢٠ — يقول فيه : « خلال جيل أو جيلين .. سوف يظهر الى جانبنا فى الشرق الأوسط دولة يهودية تحت حماية التاج البريطانى ، وتضم ثلاثة أو أربعة ملايين يهودى » .



نعم .. كان الملك لا يدرى .

وكانت الأمة لا تدرى .

ولكن بريطانيا ، كانت تدرى .

والمنظمة الصهيونية ، كانت تدرى .

وحاييم وايزمان ، كان يدرى . كان — على الأقل — يقول لزملائه علنا : « ليس وعد بلفور سوى أطار — وهذا الاطار يجب ان نملأه نحن بجهودنا .

« انه سوف يعنى بالضبط ، ما سنجعله نحن يعنى . لا أكثر ، ولا اقل .

« واستنادا الى ما نستطيع أن نجعله يعنى ، وذلك عن طريق العمل البطىء الشاق ، والغالى الثمن — سوف يتوقف ما اذا كنا نستحق الدولة ، ثم : ما اذا كنا سننال الدولة ، ثم متى سننالها » .

* * *

لقد تمت الصفقة ..

والآن جاء دور التنفيذ !

يهودى نصف الوقت

كل شىء ساخن فى مصر خلال تلك السنة ــ ١٩٤٢ .

الجيش الانجليزى ساخن فى القاهرة .. بعد أن حاصر القصر الملكى فى حادث ٤ فبراير المشهور .

الجيش الألمانى ساخن فى السلوم .. بعد زحف سريع قاده « روميل » من شمال افريقيا .

والملك فاروق ساخن فى قصر عابدين .. بعد الانذار الذى تلقاه من المستر مايلز لامبسون ، السفير البريطانى فى القاهرة .

واليهود ايضا .. كانوا ساخنين فى مصر . عددهم خمسون الفا .. لكن نفوذهم مضروب فى هذا الرقم مائة مرة ، ففى أيديهم مفاتيح كثيرة الى عقل مصر وجيبها .

انهم موجودن مثلا فى صحافة مصر .. يمسكونها من رقبتها عن طريق احتكار تجارة ورق الصحف . ويمسكونها من قدميهاعن طريق شركة الاعلانات الشرقية . وفى كل صحيفة .. لابد أن تجد احد اليهود فى منصب هام ، له نفوذ قبل أن يكون له بريق ..

وفى أيديهم تجارة مصر .. محال داود عدس وبنزايون مثلا .

وموجودون فى ريف مصر .. من خلال بنوك الرهونات وشركة سوارس مثلا ..

وفى المجالس النيابية .. كانوا موجودين وممثلين بحكم التقاليد المصرية السمحة ، التى قضت بتعيين اليهود فى مجلس الشيوخ .

اكرر : نحن فى سنة ١٩٤٢ ..

انها السنة نفسها التى نشرت فيها مجلة (لايف) الامريكية تحقيقا مصورا فى ست صفحات عن القصر الملكى فى مصر ..وقالت

فيه : « ان ملك مصر .. يملك اضخم وأفخم مطعم فى العالم » .

وهى أيضا الفترة نفسها التى اصـــدر عنها طه حسين كتاب (المعذبون فى الأرض) وقال فى مقدمتـــه : « الى الذين يجـــدون مالا ينفقون .. والى الذين لا يجدون ما ينفقون .. يساق هـــذا الحديث » !

* * *

اننا فى سنة ١٩٤٢ .بالذات فى شهر مايو . ففى هذا الشهر عقدت المنظمة الصهيونية بالولايات المتحدة مؤتمرا بفندق بلتيمور بمدينة نيويورك . وكان من قادة المؤتمر : حاييم وايزمان ، ودافيد بن جوريون ، وناحوم جولدمان . وبعد انقسامات ومناقشات وجدل عنيف .. أقر المؤتمر برنامجا من ثلاث نقط كخط عمل للحـــركة الصهيونية :

١ ـــ ان الهدف الأساسى .. هو اقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين .

٢ ـــ تشكيل قوة عسكرية يهودية تحارب تحت علمها الخاص .. فى صف الحلفاء .

٣ ـــ ضرورة السعى لاعادة فتح باب الهجرة الى فلسطين على مصراعيه أمام اليهود .

لقد كانت قرارات المؤتمر كلها ، انتصارا كاملا لشخص واحد تزعم المناقشات والجدل والانقســـامات : دافيد بن جوريون . ان بن جوريون كان يرى أن الوقت قد أصبح مناسبا لكى يعلن اليهود هدفهم فى المرحلة التالية . ان بن جوريون يرى أن الهدف المعلن الآن يجب أن يكون هو : وطن قومى يهودى فى فلسطين . وهو يرى أيضا أن اليهود عندما سيقرأون (وطن قومى) .. فانهم سيقرأونه (دولة) .

ان بن جوريون ، اتخذ من مؤتمر نيويورك سنة ١٩٤٢ نقطة هذا التحول ، لأنه كان يرى ان الوقت قد حـــان لكى تلقى المنظمـــة الصهيونية العالمية بكل ثقلها فى الولايات المتحدة ، بدلا من بريطانيا.

كانت حسبة بن جوريون بسيطة للغاية : ان بريطانيا ـــ مع انها هى التى أصدرت وعد بلفور ـــ فان نشوب الحرب العالمية الثانية قد خلق لها مصلحة تكتيكية فى أن تحصل على صداقة العرب . أو على الأقل ـــ لا تفعل ما يزيد عداءهم لها . خصوصا فى تلك الأيام العصيبة من التقدم الألمـــانى والهزيمـــة الانجليزية . واقتنع بن جوريون أيضا بأن الولايات المتحدة ـــ وليست بريطانيا ـــ هى التى ستخرج من الحرب قوة حاسمة ومسيطرة،ومن ثم .. فلابد من ضمان وقوف هذه القوة من الآن الى جانب الحركة الصهونية ، ولابد بالتـــالى من تركيز ثقل العمل الصهيونى كله فيهـــا .

هكذا عاد بن جوريون وقتها الى فلسطين ، بعد أن عبأ العمل الصهيونى نحو هدفين :

أولا ـــ السعى لخلق دولة على أرض فلسطين .

ثانيا ـــ تعبئة مراكز النفوذ فى أمريكا لمساندة وتأييد هذا الهدف .

أنه ـــ باعتباره رئيســـا للمنظمة اليهودية وقتها ، وباعتبـــاره ممثلا ليهود فلسطين فى تعاملهم مع العالم الخارجى ـــ كان عليه أن ينفذ جزءا من الهدفين على أرض فلسطين ، ويترجم الهدف الأول بالذات الى أسلوب عمل يومى تسير على أساسه الجهود الصهيونية فى فلسطين . هكذا قرر بن جوريون مثلا أن يؤيد بريطانيا باليـــد اليمنى ، ويضربها باليد اليسرى ! ان بريطانيا ـــ باعتبارها الدولة المنتدبة على فلسطين ـــ اصدرت كتابها الأبيض بشأن فلسطين قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية . لقد أصبحت سياستها الجديدة هى الحد مؤقتا ـــ من نطاق الهجرة اليهودية الى فلسطين ، فالحرب العالمية قد بدأت .. وبريطانيا محتاجة الى كسب ود العرب .

وعلى الرغم من أن التغيير الجديد فى السياسة البريطانية كان تغييرا مؤقتا ، ولا يؤثر ـــ فى المدى الطويل ـــ على سياســة بريطانيا نحو الحركة الصهيونية .. فقد بدأ بن جوريون حربا واسعة ضد بريطانيا . كانت الحرب العالمية الأولى هى فرصة الصهيونية للحصول على وعد بلفور . وهذه هى الحرب العـــالمية الثانية تقدم فرصة ثانية للمنظمة ، لتنتهى تماما من التنفيذ الكامل لمطالبها فى فلســـطين .

وفى سنة ١٩٤٥ لخص بن جوريون الموقف بأنه : « الكتاب الأبيض .. أم دولة يهودية ؟ اننا سوف نحكم على السياسة البريطانية بناء على الجانب الذى تختاره .. ان العامل الحاسم فى كل ذلك هو : القوة . فبغيرها سيظل اليهود أقلية مغلوبة فى بلد عربى » .

لقد رفع بن جوريون — طوال الحرب ، شعارا غريبا هو : « سنحارب مع بريطانيا كما لو لم يكن هناك كتاب أبيض .. وسنحارب الكتاب الأبيض كما لو لم تكن هناك حرب » .

والآن — بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية فى ١٩٤٥ — بدأ بن جوريون يركز لهدف آخر : الحرب ضد بريطانيا وضد العرب فى وقت واحد . لقد بدأ يركز على الاستعداد العسكرى . وأصبح مسئولا عن هذا الاختصاص من سنة ١٩٤٧ . وفى يوليو من السنة نفسها أصدر تعليمات للفرق المسلحة (الهاجاناة) يقول فيها : « اننا سنصطدم مع بريطانيا ، ومع العرب .. ولابد أن نفرق بين الاثنين . ان صدامنا مع بريطانيا هو صدام سياسى وليس صداما عسكريا ، وسوف يحسمه تكتل اليهودية العالمية وتوسيع نطاق الهجرة اليهودية غير الشرعية الى فلسطين . أما صدامنا مع العرب .. فهو صدام عسكرى وصدام سياسى فى وقت واحد . وسوف تحسمه القوة وحدها » .

القوة ؟ نعم هذا هو المفتاح لفهم شخصية بن جوريون من البداية ، وفهم العقل الاسرائيلى كله من بعده . ان فى دراسة شخصية بن جوريون دراسة لاسرائيل ، ودراسة للعقل الاسرائيلى تفكيرا وعملا . واذا كنا نعتبر أن « تيودور هرتزل » هو مؤسس الحركة الصهيونية الحديثة ، فان « بن جوريون » هو مؤسس الدولة . الأول وضع النظرية ، والثانى قام بالتطبيق .. الأول خلق الخيال .. والثانى خلق الحقائق . الأول حول حقائق قليلة الى خيالات واسعة ، والثانى حول الخيالات الواسعة الى حقائق مادية الأول حدد اتجاه البوصلة .. والثانى قاد السفينة .

هكذا اذن تصبح دراسة بن جوريون مهمة ، بقدر ما دراسة اسرائيل المعاصرة مهمة . ان أحدهما لا يمكن فهمه بدون الآخر ، ولم

يكن ممكنا وجوده بغير الآخر . ان بن جوريون كان اول وزير دفاع لاسرائيل ، وأول رئيس وزراء لاسرائيل ، واطول من بقوا فى هــذا المنصب (اكثر من ١٣ سنة) . انه من منصب وزير الدفاع بدأ وأدار حرب ١٩٤٨ . وهو — من منصب وزير الدفاع ورئيس الوزراء — بدأ وادار حرب ١٩٥٦ ، وهو — من خارج المنصب الرسمى — أعطى نصائحه وبركاته لتلاميذه الذين بدأوا وادارو حرب ١٩٦٧ . وحتى الآن . . فانه يعتبر — فى تقاعده — الشخصية الوحيدة فى اسرائيل، التى تستطيع أن توجه وتؤثر بغير الاعتماد على حزب أو منصب . ان هذا طبيعى ، لأن بن جوريون هو مؤسس الدولة ومهندسهــا الفعلى . ان بصماته مازالت تطبع العقل الاسرائيلى حتى الان من خلال الجيل الذى تتلمذ عليه ، وأبرز مثل لهذا الجيل هو « موشى ديان » وزير الدفاع الحالى . وعندما حدثت أزمة وزارية فى اسرائيل قبيل حرب يونيو ١٩٦٧ ، فان العســكريين والسياسيين — من أقصى اليمين وأقصى اليسار — كانوا جميعا يذهبون الى بن جوريون ليعرضوا عليه خططهم وافكارهم بصدد الموقف الذى اشتعل مع مصر وقتهــا .

اننا اذا كنا نريد اذن أن نعرف كيف تفكر اسرائيل . . وكيف تفكر الحركة الصهيونية عموما ، فان بن جورون يمثل حلقة هامة فى نطاق بحثنا . ان بن جوريون هو النموذج الحى لمــا يسمى (الصهيونية الكلاسيكية) . انه يهودى روسى ، مثل معظم الزعماء الكبار فى اسرائيل — ولد سنة ١٨٨٦ فى مدينة (بلانسك) البولندية الخاضعة وقتها لروسيا القيصرية . وفى سنة ١٩٠٦ هاجر الى فلسطين مع عدد من زملائه فيما سمى (بالهجرة الثانية) .

وفى كتاب (اسرائيل : سنوات التحدى) يقول أنه فوجىء فى فلسطين بظاهرتين :

أولا : ان اليهود يعيشون حياة (الأفندية) ، ويحصلون على دخولهم من تأجير الارض وبعض المهن الأخرى (كالتجارة) ، وهذا معناه « . . اننا لن نأخذ فلسطين بهذه الطريقة ، فبين الأرض والشعب ، لابد من وجود رابطة عمل » .

ثانيا : ان السلاح فى أيدى اليهود كالعدم . فهم لا يصلحون لحمل السلاح منذ قرون مضت .

ووجد بن جوريون ، أن هاتين الظاهرتين لابد أن تكونا جزءا من مهمة العمل الصهيونى : تعليم اليهود الزراعة .. فهى التى تربط الفرد بالارض ، وتعليمهم حمل السلاح . (وكان هذا هو السبب الحقيقى .. الذى دعا بن جوريون بعد ذلك من أجله لتشكيل فيلق يهودى يحارب فى صف الحلفاء).

لقـــد وجه نداءه الى الملاك اليهود فى فلسطين ، لأنهم ــ فى رايه ــ مثل يهود أوربا ، طبقة متوسطة لا تريد الا الربح ، ولانهم ــ ثانيا ــ يستأجرون الشركس لحمايتهم ، ولانهم ــ ثالثا ــ يستخدمون مزارعين عربا .

لقد كان بن جوريون يرى ، ان المـــال اليهودى اذا انتقل من جيب يهودى .. فيجب أن يدخل الى جيب يهودى آخر ، ولهـــذا السبب فيجب على الملاك اليهود أن يستأجروا عمالا يهودا وليس عمالا عربا . انه فى كتـــاب (قـــدر اسرائيل) يقول : « .. ان المستعمرات اليهودية أنفقت ملايين الفرنكات ، والقسم الأكبر من هذا المبلغ ذهب الى جيوب العرب .. ان كل مزارع ينضم الينا ، معناه انعاش ثلاث عائلات عربية دون فائدة لليهود ، لأنهم لا يعيدون لليهود شيئا مما يأخذون .. يجب على اسرائيل (وهى لم تكن موجودة بعد !) أن تعرف أن الملاك اليهود لن يرجعوا الى أرض الميعاد الا اذا كان العمال الذين يشتغلون لديهم يهودا » !

ومن الناحية الأخرى .. بدأ بن جوريون يركز جهوده أيضا على الجبهة الثانية : **جبهة القوة المسلحة** .

فبعد سنوات قليلة من وصـــول بن جوريون الى فلسطين ، وقبيل نشوب الحرب العالمية الأولى ، ركز الصهيونيون فى فلسطين طلباتهم من الوالى التركى فى السماح لهم بأسلحة . يقول بن جوريون نفسه عن تلك الفترة : « كنا ننتظر مجىء الاسلحة ليلا ونهـــارا ، ولم يكن لنا من حديث الا عن الأسلحة .. وعندما جاءتنا الأسلحة لم تسعنا الدنيا من فرط فرحتنا .. كنا نلعب بالأسلحة كالأطفال ،

ولم نعد نتركها أبدا .. كنا نقرأ ونأكل ونتكلم والبنادق فى أيدينا أو على أكتافنـــا » .

لقــد كان بن جوريون ، يرى أن القوة المســلحة ، هى التي ستخلق الحقائق المــادية فى فلسطين، وهي التى ستقرر فى النهاية أيهما الطرف الرابح فى الصدام : اليهود أم العرب . لهــذا قام بن جوريون وقتها بتشكيل فرق حراسة (هاشومير) ، واختار لها شعارا هو : (بالدم والنار سقطت اليهودية .. وبالدم والنار سوف تقوم ثانية) .

وفى سنة ١٩٢١ تحولت فرق (الهاشومير) الى جماعة كبيرة مسلحة وسرية سميت (الهاجاناة) ، التى وضع بن جوريون أيضا بصماته على تفكيرها من البداية . لقد كان بن جوريون يريد من (الهاجاناه) أن تصبح قوة عسكرية مسلحة ، تســاند المطــالب السياسية للصهيونية فى فلسطين . وفى كتاب (بن جوريون ينظر للوراء) يؤكد هو ان الصهيونيين « .. لو لم يعتمدوا على القوة المسلحة ، لمــا استطاعوا اختراق أراض جديدة » .



مرة اخرى : القوة .

مرة أخرى تصبح كلمة (القوة) هى المفتاح السحرى لفهم العقل الاسرائيلى كله ، وبن جوريون تجسيد له . لقد ظلت القوة هى محور تفكير بن جوريون منذ وصل الى فلسطين فى ١٩٠٦ ، ومنذ أصبح عضوا فى المجلس التنفيذى للوكالة اليهودية بفلسطين سنة ١٩٣٣، ثم رئيسا له بعد ذلك ، ومنذ أن أصبح وزيرا للدفــاع فى الدولة الجديدة .. ورئيسا لوزرائها بعد ذلك .

وفى كتاب للمؤلف الصهيونى (ناداف سافران) يقول بن جوريون: انه كان يؤمن دائما بأنه : « يجب علينا أن نتكلم عن السلام كما لو كنا لن نحارب .. ونتكلم عن الحرب كما لو كنا لا نريد السلام ».

وفى كتاب آخر كتبه عنــه المؤلف الأمريكى (روبرت جون) يقول : « ان الكثيرين يرون أن بن جوريون رجل انتهازى . وفى الحقيقة .. فان هذه الصفة تنطبق عليه تمامـــا » .

وفى الكتاب ذاته يقول بن جوريون نفسه : « ان الأغبياء هم وحدهم الذين يفتشون عن المنطق فى التاريخ » ويقول أيضا : « أن سياسة اسرائيل يجب أن تقوم على اعتبارات الأمن وحدها » .

ما هى اعتبارات الامن الاسرائيلى فى نظر بن جوريون ؟

انها قاعدة مثلثة الزوايا : الهجرة .. مساندة دولة كبرى .. حدود يسهل التوسع فيها والدفاع عنهـــا .

ولو بدأنا بالضلع الأول فى المثلث الاسرائيلى ، من وجهـــة نظر بن جوريون ، وهو الهجرة ، فسوف نجـــد أنه يرى أن على اسرائيل أن تعمل بكل الطرق وكل الوسائل على مضاعفة اعداد المهاجرين اليها . ان هذا هو الذى يحسم — فى المدى الطويل — مشكلة الأمن وامكانيات التوسع الاسرائيلى فى المنطقة .

وفى هذه النقطة قال بن جوريون فى مايو ١٩٤٩ (بعد قيام اسرائيل) : « اننا لم نحقق بعد هدفنا . فنحن حتى الآن لم نحرر من بلادنا سوى جزء واحد فقط . ان علينا أن نجعل الحرب حرفة يهودية » .

بل — أكثر من ذلك — قال بن جوريون فى ٢٥ ديسمبر ١٩٦٠ أمام المؤتمر الصهيونى الخـــامس والعشرين : « ان الصهيونية أصبحت لاتحمل الامعنى واحدا .. هو الهجرة الى أرض صهيون .. ان كيان اسرائيل وكيان الصهيونية العالمية يقومان على الهجرة الى اسرائيل .. ان كل يهودى يجب أن يهاجر الى اسرائيل . ان كل يهودى أقام خارج اسرائيل منذ انشائها يعتبر مخالـــفا لتعاليم التوراة .. وهذا اليهودى يكفر يوميا باليهودية » !

وفى الكنيست (البرلمان الاسرائيلى) أعلن بن جوريون مرارا : « أن دولة اسرائيل تعتبر اليهود فى جميع انحاء العالم أمة واحدة .

ويتحتم على الصهيونيين فى جميع انحـــاء العـــالم أن تكون لديهم الشجاعة للوقوف فى صف اسرائيل .. حتى ولو كانت حكوماتهم ضد هذه الفكرة . كما أن كل من يعيش خارج اسرائيل يعتبر بلا رب » !

ففى حرص « بن جوريون » على زيادة الهجرة الى اسرائيل .. يذهب الى المدى الذى يحكم فيه على كل يهودى بأنه بأنه بلا اله. .مالم يهاجر الى اسرائيل ، وبلا اله ما لم يخلص لاسرائيل . ويهودى نصف الوقت .. ما لم يهاجر الى اسرائيل . بل ان بن جوريون يحرض كل يهودى خارج اسرائيل على أن يذهب فى اخلاصه لها الى المدى الذى يتنافى مع اخلاصه المفترض للدولة التى يحمل جنسيتها والمجتمع الذى يعيش فيه .

ولقد كان خوف اليهود من نظرة الشك والارتياب فى ولائهم .. هو الذى دفع بعضهم الى محاولة الرد على بن جوريون فى هذه الآراء . ومن الدانمارك رد عليه حاخام اليهود مرة فى سنة ١٩٦٢ قائلا : « اذا اراد الرئيس — بن جوريون — ان يقنعنا بأنه لكى نكون يهودا فى كل لحظة من لحظات حياتنا ، فان علينا أن نعيش فى اسرائيل ، فانه يحق لى أن أسأل سؤالين . أولا : هل من الضرورى أن نكون يهودا فى كل لحظة من لحظات حياتنا ؟ وثانيا — الا يرى ان كون الشخص يهوديا وكونه مخلوقا بشريا يتعادلان فى القوة والمعنى ؟ ألا يستطيع المرء أن يكون يهوديا وانسانا الا فى بضعة كيلو مترات تكون الدولة الاسرائيلية ؟ »

ولكن هذا المنطق لا يهم بن جوريون .. ان ما يهمه فقط ، هو أن اسرائيل فى حاجة الى ملايين جديدة من اليهود .. لكى تحشد بهم ما تسميه الصهيونية (أرض اسرائيل التاريخية) ان هـــذا الاصطلاح الذى يؤمن به بن جوريون يقصد به الأراضى التى تشمل فلسطين والأردن وسيناء ومرتفعات سوريا وجنوب لبنان .

وهذا الطابع التوسعى الاستعمارى فى الحركة الصهيونية يحلله المؤلف الأمريكى (آلان تيلور) فى كتـــابه (مدخل الى اسرائيل) فيقول :

« لقد كان من المفروض ، أن الحركة الصهيونية قد حققت هدفها باقامة دولة اسرائيل ، وهذه فكرة غير صحيحة .. فما زالت الحركة الصهيونية قائمة ومستمرة ، وسوف تظل مستمرة لأنها تعتبر ان امامها واجبا مزدوجا تريد أن تحققه .. فأولا هى تريد تجميع كل يهود العالم ، وهى تعتبرهم جميعا منفيين يقيمون فى المنفى ، والى أن يحضر أغلبية يهود العالم الى اسرائيل ويرضى كل منهم بأن يصبح مواطنا اسرائيليا ، ستظل الصهيونية تعتبر أنها لم تحقق كل هدفها . وثانيا — أن الصهيونية ترى أن واجبها الثانى هو مد الدولة اليهودية الى حدود أرض اسرائيل Eretz Israel ولا يرجع هذا لمجرد أسباب رومانتيكية ، بل لأن هذا اعتبار هام وضرورى لامداد اسرائيل بالقوة الاقتصادية اللازمة ، وبالمساحة الجغرافية اللازمة لتوطين اليهود المهاجرين اليهـــا » .

ويستطرد آلان تيلور فى كتابه قائلا : « أن هذه المطامع الأقليمية ليست جديدة على الحركة الصهيونية . فالمذكرة الأصلية التى قدمتها المنظمة الصهيونية الى مؤتمر السلام بباريس سنة ١٩١٩ كانت تطالب بأن يمتد وعد بلفور ليشمل نطاق تطبيقه : شرق الأردن وجبال جولان بسوريا ولبنان الجنوبية وسيناء » .

وفى السنوات القليلة السابقة لم تعد المنظمة الصهيونية تكشف علنا عن هذه الأهداف التوسعية الاقليمية .. ولكنها بالرغم من ذلك تكشف عنها أحيانا .. كما حدث فى الكتاب السنوى لاسرائيل سنة ١٩٥٥ ، وفى تصريحات بن جوريون .

وربما ، بسبب هـــذه النقطة بالذات ، فـــان بن جوريون ، ابتدع نظرية جديدة طبقها منذ اليوم الأول لقيام اسرائيل فى سنة ١٩٤٨ ، انها نظرية يمكن أن نسميها « نظرية الحدود المفتوحة » ان بن جوريون كان يرى ان اسرائيل تحتاج — ولابد من أن تتوسع فى حدودها مرحلة بعد مرحلة . أنه كان يرى أيضا أن القوة هى التى ستحدد حدود الدولة التى فشلت السياسة فى تحديدها .

وفى كتابه « النبى المسلح » الذى أصدره الكاتب الاسرائيلى « ميشيل بارزوهار » عن بن جوريون ، يذكر المؤلف خلافا وقع بين

القادة الصهيونيين قبيل حرب ١٩٤٨ حول الحدود التى يمكن اعلانها رسميا للدولة الجديدة . وبعد جدل عنيف بين المجتمعين قال بن جوريون : « لا لزوم لتعيين الحدود » ان بن جوريون لا يريد أن يقيد نفسه بحدود معلنة للدولة الجديدة ، وهو لا يريد أن يقيد حركته فى المستقبل .. حركته لخلق حقائق مادية يؤدى الزمن الى تحويلها الى أمر واقع .

ان الايمان بالأمر الواقع هو أمر يسود تفكير بن جوريون كله منذ بدايته المبكرة فى فلسطين . فلو رجعنا الى سنة ١٩١٧ سوف نجد أن قيام بريطانيا وقتها باصدار وعد بلفور ، أشاع جوا من التفاؤل الشديد بين الصهيونيين ، ومع أن بن جوريون اشترك مع الجميع وقتها فى ذلك .. الا أنه كتب يقول : « ان وعد بلفور وهدف عصبة الأمم من الانتداب سيبقيان قصاصات ورق اذا نحن لم نستطع جلب اليهود الى فلسطين ، وتجهيز الأرض للتوطن على نطاق واسع .. أن الهجرة والتوطن سيخلقان حتما الحقائق التى ستجلب الاستقلال » . ثم كتب يتساءل أيضا : « أيهما أكثر اقناعا .. أن نقول أن الأرض أعطيت لليهود الذين سيأتون بموجب وعدبلفورد ، أم لليهود الموجودين فيها فعلا ؟ » .

وخلال حرب ١٩٤٨ ، كانت وجهة نظر العسكريين هى تركيز القوات اليهودية فى مساحة قليلة حتى يمكن الدفاع عنها .. ولكن بن جوريون كان أبعد نظرا منهم ، عندما فكر فى حدود الدولة الجديدة التى ستتمخض عنها الحرب . لقد رفض اخلاء المستعمرات اليهودية النائية . وقال ان كل شبر حصلوا عليه يجب ان يبقوا فيه ، بل وبالعكس ، من المصلحة أن تتناثر هذه المستعمرات فى أماكن بعيدة ومتفرقة ، حتى يصبح ممكنا الادعاء بأنها مناطق يهودية . ان وجود مستعمرتين او ثلاث مثلا فى صحراء النقب كلها .. سيجعل ممكنا الادعاء بأن صحراء النقب يهودية . ان ما يهم بن جوريون هو اثبات وجود ، أو اثبات حالة وجود صهيونى فى منطقة ، لكى تصبح هذه المنطقة بأسرها بعد ذلك جزءا من حدود الدولة الجديدة .

واذا كنا قد تناولنا حتى الآن عنصرى الهجرة ، والحدود المفتوحة ، فى تفكير بن جوريون .. فان العنصر الثالث الباقى فى

قاعدة المثلث هو اهمية التحالف مع دولـــة كبرى . فعقب انتهـــاء الحرب العالمية الثانية ووصول حزب العمال البريطاني الى الحكم سافر بن جوريون الى لندن لاجراء مباحثات غير رسمية مع الوزير البريطانى بيفن .. وفى كتاب (بن جوريون اسرائيل) يكشف بن جوريون للمؤلف عن سر جديد يتلخص فى .. انه عرض على بيفن انشـــاء قواعد بريطانية فى صحراء النقب تكون بديلا عن القاعدة البريطانية فى قناة السويس ، وفى مجال الاغراء .. ذكر بن جوريون أن هناك احتمالا لوجود البترول فى صحراء النقب ، وان بريطانيا ستكسب كثيرا لو وافقت على الحصول على قاعدة عسكرية ، وكذلك التنقيب عن البترول .. مقـــابل (وهـــذا هو الثمن) أن تساعد بريطانيا فى زيادة الهجرة اليهودية الى فلسطين والتحالف مع الدولة اليهودية الجديدة .

لقد كان بن جوريون يجرى تلك المفاوضات ــ غير الرسمية ــ مع بريطانيا كمـــا لو كانت اسرائيل قد قامت فعلا ، مع أن تلك المفاوضات جرت قبل قيام الدولة بسنتين كاملتين .

وعندما ننتقل الى كتاب آخر من بن جوريون ، هو « النبى المسلح » نجد أنه لخص سياسته فى ثلاث نقط هى : « الرد بقوة على العرب ، والحصول على سلاح ، ثم التحالف مع قوى غربية لحفظ سلامة اسرائيل » لقد تغيرت اضلاع المثلث هنـــا ، اختفى عامل الهجرة وتراجع عامل الحدود المفتوحة ، ولكن عامل التحالف مع قوة غربية ظل سائدا فى سياسة بن جوريون .

انه لأمر طبيعى ، ان تصبح النقطة بهـــذه الاهمية فى بـــال بن جوريون ومن ورائه اسرائيل كلها ، من البداية . فبهذه الطريقة تستطيع اسرائيل أن تعيش وتتوسع تحت مظلة القوة الغربيـــة تحقق لهـــا جزءا من مصـــالحها ، وفى الوقت نفسه تحقق هى ــ اسرائيل ــ جزءا من أهدافها .

لقد شعرت اسرائيل فى سنة ١٩٥٢ ببوادر تحسن فى العلاقات بين مصر وأمريكا ، فدبرت عمليـــة واسعة النطـــاق للتجسس والتخريب ضد المنشآت الامريكية فى مصر للقضاء على هذه البوادر

مقدما ، وعندما اكتشف البوليس المصرى العملية كلها ـــ فى اللحظة الأخيرة ـــ تسبب ذلك فى فضيحة داخل اسرائيل عرفت فيما بعد باسم (فضيحة لافون) .

وعندما فشل التجسس والتخريب .. عاد بن جوريون الى الحكم لكى يلجأ الى لعبته القديمة : تقديم قواعد عسكرية لأمريكا فى اسرائيل مقابل ضمان أمريكى للحدود ، وعندما لم تجد أمريكا الوقت مناسبا لقبول هذا العرض ، بدأ بن جوريون ينقل مقامرته الى قوة غربية أخرى .. كانت لها أهدافها الخاصة فى المنطقة ، وهى فرنسا ، وبعد أن ضمن بن جوريون تحالف فرنسا ثم بريطانيا معه .. بدأ العدوان الثلاثى المشهور فى أكتوبر ١٩٥٦ . لقد دخل بن جوريون مغامرة ١٩٥٦ وهو يريدها « .. أكثر من غارة .. وأقل من حرب » حسب تعبيره لجى موليه رئيس وزراء فرنسا ـــ فى ذلك الحين ـــ ولكنه خرج منها بنصيب الأسد لاسرائيل .

ولقد تكررت الأهداف ـــ بشكل متطور ـــ فى حرب ١٩٦٧ حرب خرج بعدها بن جوريون من عزلته فى مستعمرة « سدى بوكر » بالنقب ، لكى يطالب بعد اسبوع من وقف اطلاق النيران ، بهدف اسرائيلي جديد : انشاء دولة عربية ذات استقلال ذاتى فى الضفة الغربية ترتبط بمعاهدة اقتصادية مع اسرائيل ، وتلك ـــ فى رأيه ـــ هى مقدمة لعقد الصلح مع الأردن .

ووقتها .. لم يكن بن جوريون يعلم أن الملك حسين ـــ ملك الأردن ـــ سيطالب بالشيء نفسه بعدها بخمس سنوات !

المحاربون من الباطن

فى اعقاب حرب يونيو سنة ١٩٦٧ أعلن موشى دايان وزير الدفاع الاسرائيلى : « يستطيع الزعماء العرب أن يتجاهلوا دعوة اسرائيل للمفاوضات المباشرة .. ولكن ، حينئذ ، سوف تكون هناك خريطة جديدة — ليس فقط للشرق الأوسط — بل لاسرائيل .. ان العرب يعرفون رقم تليفوننا ، وهم يستطيعون العثور علينا حينما يريدون ذلك » .

وفى هذه السطور القليلة نستطيع أن نكتشف ملامح التفكير العسكرى الاسرائيلى المعاصر ، وموشى دايان نموذج مثالى له . تفكير يعتمد على :

- ان القوة تنشىء الحق .. وتحميه .
- ان عامل الزمن هو مع اسرائيل .. وضد العرب .
- ان الموقف الاسرائيلى المثالى بعد ١٩٦٧ هو : الانتظار . لقد اصبح العرب هم الآن — وليس اسرائيل — الجانب الذى له مشكلة يسعى لحلها .

ولقد ظل العـــرب سنوات طويلة — وربما قـــرون طويلة — يتصورون أن الحق هو القوة .. وأن الزمن لصالحهم .. وأن الانتظار حليفهم .. والانهيار التلقائى هو مصير عدوهم . الآن .. أصبح على العرب أن يرفعوا — سماعة التليفون .. وأصبحت اسرائيل هى التى ستقرر : هل ترد من الجانب الآخر .. أم لا !

وحينما مر الوقت دون أن يستسلم العرب لهذا المنطق ، حينما لم يدق التليفون فى الجانب الاسرائيلى ، خرج « دايان » بتصريح جديد يقول فيه : « ان علينا أن نشترى — مزيدا من — الأسلحة ، وعلينا أن نصنع نحن الأسلحة ، وعلينا أن نجهز المطارات ونجعل جيشنا اكثر قوة » .

لقد كانت القوة هى الكلمة السحرية بالنسبة لشخصية « بن جوريون » ، ومازالت هى نفسها المفتاح السحرى لفهم شخصية « دايان » . فى الواقع ان الاثنين ينتميان الى نفس المدرسة فى التفكير . والعلاقة بين « بن جوريون » و « موشى دايان » ليست مجرد علاقة بين جيل وجيل ، أو بين سياسي وعسكرى .. وانما هى أساسا علاقة بين أستاذ وتلميذ . علاقة لا يمكن تصور طرف فيها دون تصور الآخر . ولم يكن يقدر لأى منهما أن ينجح دون وجود الآخر ..

* * *

لقد قرأنا منذ سنوات طويلة التصريح المشهور لبن جوريون : « ان المهمة الرئيسية لوزارة الخارجية الاسرائيلية .. هى تبرير أعمال وزارة الدفاع الاسرائيلية .. » .

وقبل حرب ١٩٦٧ بست سنوات قرأنا للجنرال ايجال آلون : « بالنسبة لنا فى اسرائيل .. من الأفضل — فى حالة الضرورة — أن نقوم بعمل مضاد فى الوقت المناسب ثم ندان .. عن أن ننتظر الى أن يهاجمنا العرب ، ثم نحصل على عطف العالم » .

وبعد حرب ١٩٦٧ بسنة واحدة قرأنا لاسحاق رابين — الذى كان رئيسا لأركان حرب الجيش الاسرائيلى ابان الحرب — تصريحه : « ان لدينا فى اسرائيل المقدرة والدافع لكى نضرب من ستين الى مائة مليون عربى » .

ان هذه التصريحات ، وهذه الشخصيات ، تنتمى الى مدرسة واحدة فى التفكير ومنظمة واحدة فى التطبيق ، تعتمد عليهما اسرائيل. المدرسة هى « بن جوريون » والمنظمة هى المؤسسة العسكرية الاسرائيلية .

وحينما نصل الى هذه النقطة ، فان المع الذين خرجتهم المؤسسة العسكرية الاسرائيلية ، والمع الذين أنتجتهم « مدرسة » بن جوريون هم : ايجال آلون ، وموشى دايان واسحاق رابين .

ولان موشى دايان ما زال يتولى مسئولية عسكرية تنفيذية ، فان دراسة شخصيته سوف تظل بالنسبة لنـــا مفتاحا هاما ، لدراسة التفكير العسكرى الاسرائيلى : تكوينا وبرنامجا واسلوبا فى العمل .

* * *

ان « موشى دايان » ينتمى الى « الصابرا » وهو الاسم العبرى لليهود المولودين فى فلسطين .

لقد ولد فى ٤ مايو سنة ١٩١٥ ، من أبوين هاجرا من روسيا القيصرية ضمن موجة الهجرة الثانية .هجرة يتمتع أصحابها باحترام خاص داخل المجتمع الاسرائيلى ، لأنهم هم الذين أقاموا المؤسسات الرئيسية الأولى التى اعتمد عليهـــا تطوير المجتمع اليهودى فى فلسطين قبل قيام اسرائيل . وقد ولد « موشى دايان » نفسـه فى مســـتعمرة « داجانيا » وهى أول « كيبوتز » أقامتــــه الحـــركة الصهيونية فى فلسطين .

وفى دراسة شخصية موشى دايان فان هناك واقعتين بالذات تلفتان النظر من البداية :

● الواقعة الأولى كانت ترويهـــا والدته ــ والدة دايان ــ فتقول : « .. لقد حدثت الحكاية كلها منذ سنوات طويلة حينما كان عمر موشى ما يزال تسعة أشهر . لقد أصبح فجأة مريضا جدا ، وفى حاجة ماســـة للعلاج الطبى . ولكن ، فى تلـــك الايام (١٩١٦) حيث كانت فلسطين تحت حكم الأتراك .. فان عـــدد الأطبـــاء كان محدودا جدا .. وكان أقرب طبيب يقيم فى (سارونا) .. وهى مستعمرة يهودية قرب مدينا يافا . اننى حملت موشى دايان فى رحلة طويلة قطعتها فى عربة يجرها حصان .. من داجانيا الى يافا .. وهى مسافة تصل الى تسعين ميلا .. وأثناء الرحلة ، أصبح موشى مريضا جدا ، ويبكى بصفة مستمرة . وعندما شاهدت فى الطريق منزلا صـــغيرا أزرق اللون فوق أحد التلال .. أوقفت العربة بحثا عن انسان يساعدنى . لحظتها جاء صاحب المنزل ، وهو فلاح عربى كان يحرس قطيعا من الماعز ، ليرى ما هى مشكلة

الطفل . وعلى الفور اختار واحدة من الماعز . واستحلبها فى التو واللحظة ... واعطى اللبن للطفل (موشى) لكى يشربه . وخلال لحظات توقف موشى تماما عن البكاء .. بينما ذهب الفلاح العربى الى منزله فى أعلى التل .. ثم عاد حاملا معه زجاجة مليئة بلبن المـــاعز . وناولها لى متمنيا للطفل الصحة .. » .

● اما الواقعة الثانية فيرويها الصحفى الاسرائيلى « نافتالى لاو ــ ليفى » المراسل السياسى لجريدة « هاآرتس » الاسرائيلية ضمن دراسته لحياة « موشى دايان » .

يقول الصحفى الاسرائيلى : « لم يكن موشى دايان قد بلغ الثالثة عشرة من عمره بعد ، حينما حصل على أول مذاق للصراع من أجل البقاء .. لقد خرج مع رفاقه من الصبية اليهود فوق الأحصنة ، فى جولة عبر الحقول خارج مستعمرة (نحالال) . وعندما اصبحوا على مسافة بعيدة من المنزل ، شاهد الصبية قطيعا من الماشـــية العربية يرعى فى حراسة أربعة من الشبان العرب . ان موشى لم يتردد لحظة . لقد ضرب حصانه بالسوط ، وجرى به شاقا طريقه وسط القطيع .. ففرق الماشية فىكل الاتجاهات . ان الشبان العرب الاربعة أخذتهم المفاجأة . وسرعان ما اشتعلت عيونهم بالغضب. وعندما قام موشى بالانقضاض مرة أخرى وسط القطيع ، قفز عليه أحد الشبان العرب وسحبه من فوق حصانه الى الأرض وانهال عليه بالضرب العنيف . وفى نفس الوقت ، أسرع الصبية الى القرية طالبين النجدة . ومع عودتهم كان موشى مغطى بالدماء . بينما قال هو لهم : فى المرة القادمة علينا أن نحضر عصيا بدلا من الكرابيج ».

* * *

ان فى هاتين الواقعتين بالذات ، توجد عناصر المشكلة العربية الاسرائيلية كلها . واذا تركنا الرموز الى الواقع .. فاننا سوف نجد أن هذه الميول العدوانية المبكرة فى شخصية « دايان » لم تكن تقتصر على العرب فقط ، وانما كانت تمتد الى رفاق يهود مثله .

ففى فترة شبابه التحق « موشى دايان » بمدرسة للزراعة العليا فى « نحالال » ، وهى مدرسة أقامتها الوكالة اليهودية ، وكانت ترتادها الفتيات فى الغالب .

وهنا يحكى « لاو — ليفى » مؤرخ حياته أنه « من وقت لآخر كان موشى دايان يمارس بعض الألعاب ، مثل تلك المرة التى أحضر فيها ثعبانا من الحقل وأطلقه فى فصله الدراسى المزدحم بالفتيات . ولحظتها لم تملك كل فتاة الا أن تجرى وتصرخ خوفا على حياتها ! » .

* * *

بهذه الشخصية ، وهذه الميول المبكرة ، انضم موشى دايان الى المنظمة العسكرية السرية « الهاجانا » التى أقامتها المنظمة الصهيونية فى فلسطين منذ سنة ١٩٢٠ — حيث تم تدريبه على الأعمال الفدائية التى كانت المنظمة تقوم بها ضد السكان العرب.

وفى سنة ١٩٣٨ شكلت وحدات عسكرية انجليزية يهودية مشتركة باسم « الفرق الليلية الخاصة » أو « فدائى منتصف الليل» بقيادة الكابتن الانجليزى « أورد وينجت » وهى التى بدأت أعمالها فى يونيو من تلك السنة تحت ستار « حماية خط أنابيب البترول » الممتد من العراق الى حيفا من المتسللين العرب . لقد اختارت « الهاجانا » مائة من رجالها المنتخبين لكى ينضموا للفرق الجديدة. وتولى « وينجت » تدريبهم ، للأستفادة بهم كضباط عسكريين فى المستقبل . ومن هؤلاء المائة برز كثيرون من الذين لعبوا فيما بعد أدوارا رئيسية فى العمل الصهيونى ، ومن هؤلاء : ايجال آلون وموشى ديان .

ولقد أفتتح « وينجت » الدورة التدريبية الأولى لتلك الفرق بقوله : « لقد وضح أن أفراد هذه الفرق الليلية الخاصة من اليهود يجب أن ينظروا الى أنفسهم باعتبارهم الكادر الذى سوف تنمو من خلاله القوات العسكرية الاسرائيلية فى الوقت المناسب » .

ومع بداية الحرب العالمية الثانية ، بدات بريطانيا — وهى الدولة المنتدبة فى فلسطين — فى الاحساس بخطورة تأييدها المكشوف للصهيونية فى فلسطين ، وبحاجتها فوق ذلك الى تحالف العرب معها فى صراعها المقبل ضد المانيا . وبناء على ذلك تغيرت سياسة سلطات الاحتلال البريطانى فى فلسطين ، واصــدرت بريطانيا « الكتاب الأبيض » الذى وصفه بن جوريون بأنه « وثيقة مشينة سيئة السمعة » .

ولقد انعكس هذا التغيير على علاقة السلطات البريطانية بمنظمة « الهاجانا » . أن وجود « الهاجانا » كقوة عسكرية منظمة توجهها الوكالة اليهودية .. بدأ يصبح عاملا مزعجا للبريطانيين . وعندما بدأ الانجليز فى متابعة حركات وحدات « الهاجانا » اكتشفوا موقعا تقوم فيه « الهاجانا » بتدريب الضباط ، ففاجأوا الموقع فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ . وتمكنوا من أسر ٤٣ عضوا مسلحا من بينهم موشى دايان .. الذى حكم عليه بالسجن خمس سنوات .

ولكن المنظمة الصهيونية لم تسكت على هذا التطور الجديد .

لقد كانت الحرب العالمية الأولى فرصتها فى الضغط والمساومة، فخرجت منها بوعد بلفور ، وبـ « الفيلق اليهودى » . والآن جاءت الحرب العالمية الثانية لتقدم فرصة ذهبية جديدة للضغط والمساومة، ولا يجب أن تمر الحرب بغير صيد ثمين جديد، أو بتعبير «بن جوريون» فى اجتماعه بقادة « الهاجانا » بعد نشوب الحرب بخمسة أيام : «لقد تمخضت الحرب العالمية الأولى عن وعد بلفور . أما الحرب العالمية الثانية ، فلا بد أن تأتى بالدولة اليهودية » ..

وقد عبر « ايجال آلون » فيما بعد عن الموقف الجديد بقوله : كانت المشكلة الرئيسية هى البحث عن وسيلة تجعل البريطانيين يقبلوننا كحلفاء لهم ويرضون عن اشتراكنا فى القتال الفعلى الدائر ضد الألمان والايطاليين .. على الا نتخذ موقفا يفسر فى لندن على أنه قبول لما جاء فى الكتاب الأبيض » .

هكذا ذهب المسئولون فى الوكالة اليهودية بفلسطين يعرضون خدماتهم على البريطانيين : انتم تحاربون قوات المحور .. ونحن مستعدون للاشتراك فى هذه الحرب « من الباطن » .. ثم .. بتعبير معلق يهودى « .. كان من الواضح أن كلا من المخابرات العسكرية والبريطانية فى حالة اهتمام بالحصول على مساعدة اليهود فى عملياتهم ضد قوات فيشى الفرنسية . ان البريطانيين اوضحوا (لممثلى الوكالة اليهودية .) ان مايريدونه هو عملية سريعة ونظيفة، مع الحد الأدنى من اراقة الدماء فى كلا الجانبين . لقد وافقوا (البريطانيون) على طلب الجنرال شارل ديجول قائد قوات فرنسا الحرة على العمل من أجل استسلام قوات فيشى فى شرق البحر الأبيض . وتحقيقا لهذا الغرض فأنهم وضعوا الخطط من أجل غزو كلا من سوريا ولبنان . ان البريطانيين كانوا يأملون — بمساعدة يهود فلسطين — أن يجدوا أسهل الوسائل للدخول الى مناطق العدو ، لكى يقوموا بتدمير المنشآت العسكرية الفرنسية فى كلا البلدين .. وزيادة على ذلك فقد أوكلت مهمة اخرى لفرق الكوماندوز اليهودية .. هى حماية الطرق والكبارى لمنع الفرنسيين من تدميرها قبل الانسحاب فى مواجهة القوات البريطانية الغازية . وهكذا تم الافراج عن ٤٣ رجلا أسيرا بعد ١٦ شهرا من دخول السجن ، ومن بينهم موشى دايان » .

لقد خرج ضباط « الهاجانا » الاسرى ليقوموا بأول عملية لحساب البريطانيين ضمن سلسلة تالية من العمليات — وهى التجسس والاستطلاع داخل الحدود السورية . وفى أحدى تلك العمليات فقد موشى دايان عينه اليسرى .

وبالنسبة لهذه المرحلة عموما ، فان الكاتب الاسرائيلى . « ميشيل بارزوهار » يتفق مع « لارتيجى » حول هذه النقطة التى لايعارضه فيها أحد : أن الضابط البريطانى « أورد وينجت » هو الذى علم جنود الهاجانا القتال .. .دون أن يحصرهم فى الاطارات الصارمة للجيوش التقليدية . وتحت غطاء تدريب البوليس المساعد انشأ فرق منتصف الليل ، وهى اولى التشكيلات اليهودية المدربة

على المعـــارك الليلية ، والتى ستصـــبح فيما بعد أحد مبادىء استراتيجية الجيش الاسرائيلى .

* * *

وبانتهاء الحرب العالمية الثانية كان الصهيونيون فى فلسطين قد حققوا مكاسب عسكرية كبيرة من عملهم المشترك مع البريطانيين ولحسابهم . من هذه المكاسب مثلا :

● تدريب ثلاثين الف يهـــودى ، تطوعوا باعتبارهم جنودا فى الجيش البريطانى مع الحلفاء .. وقد تم تدريبهم فى أسلحة المشاة والمدفعية والمهندسين وخدمة الجيش فضلا عن البحرية والطيران..

● تشكيل فرق « البالمـــاخ » ــ وهى كلمـــة معناها جنـــود الصـــاعقة ــ وقد تقرر تشكيلهـــا فى ١٨ مايو سنة ١٩٤١ كقـــوة عسكرية يهودية دائمة التعبئة يدربها ويمولها البريطانيون . وقد بلغ عدد أفرادها ٢٥٠٠ .

● الحصـــول على كميـــات ضخمة من الأســـلحة وشـــبكات اللاسلكى ..

وبتعبير « ميشيل تروشان » فى مقال له عن الجيش الاسرائيلى « ان الحرب العالمية الثانية أتاحت لليهود أن يتعلموا علنا استخدام الاسلحة . وقد حارب ثلاثين ألفـــا ــ من بينهم رجال ونساء ــ الى جانب الحلفاء ، على جميع جهـــات الشرق الأوسط فى ليبيا واليونان وتونس وصقلية . واذا كانت حرب سنة ١٩١٤ قد انتجت الفيلق اليهودى .. ونتيجة لذلك الهاجانا .. فان الحرب العالمية الثانية قد أدت الى تطور اكثر اهمية فى فلسطين » .

ان هذه التطورات هى التى تلاحقت بعد ذلك فى سنوات ١٩٤٦ـــ ١٩٤٨ ، فى صراع عسكرى وسياسى خاضته الحركة الصهيونية داخل فلسطين وخارجها . صراع انتهى بنشـــوب الحرب العربية الاسرائيلية الأولى ، وقيام اسرائيل على النحو المعروف تاريخيا .

وفى أعقاب حرب ١٩٤٨ بدأ بن جوريون فى تصفية زعامات « البالماخ » نظرا لمناوأتها السياسية له ، وبهدف توحيد القوات العسكرية لكى تصبح هى الجيش النظامى للدولة الجديدة التى قامت منذ ١٥ مايو . وقد أدى ذلك الى استقالة كبار ضباط البالماخ من الجيش ، ومن بينهم قائد البالماخ : ايجال آلون .

وعلى الفور بدأ بن جوريون . يبحث عن دماء جديدة لهيئة أركان حرب الجيش الجديد ، على أساس « .. ان ما كان يريده هو قيادات متحررة من كلا من تأثير البالماخ وتقاليد الجيش البريطانى ».

وسرعان ما وضع بن جوريون عينيه على موشى دايان واختاره لكى يخلف « ايجال آلون » فى قيادة المنطقة الجنوبية لكى يظل فى هذا المنصب حتى سنة ١٩٥١ ..

بهذه المرحلة نكون قد دخلنا فى دراسة التفكير العسكرى الذى سيؤثر فى أعمـــال وتصرفات الجيش الاسرائيلى النظامى الجديد .

ان « ايجال يادين » ـــ ثانى رئيس لاركان الحرب ـــ هو الذى وضع البناء التنظيمى للجيش الجديد ، وهو البناء الذى مازال مستمرا حتى اليوم . وهذا التنظيم يعتمد أساسا على :

● ان الجيش هو أساسا جيش من قوات الاحتياطى .

● ان الجزء النظامى من الجيش يعتمد على الضباط أساسا ، وهم نواة صغيرة محترفة .

● ان نجاح هذا التنظيم يعتمد تماما على كفاءة نظام التعبئة الذى بمقتضاه تتحول قوات الاحتياطى الى قوات عاملة فى أقصر وقت ممكن ..

* * *

ولقد بدأ « دايان » يصبح مسئولا رئيسيا عن تطبيق هذا البناء التنظيمى مع قفزه فى المناصب العليا بالجيش منذ سنة ١٩٥١ ،

حيث أصبح قائدا للمنطقة الجنوبية .. ثم للمنطقة الشمالية .. ثم رئيسا للعمليات .. الى أن أصبح رئيسا لهيئة أركان الحرب فعلا فى ديسبمر سنة ١٩٥٣ .

وفى خلال هذه الفترة وصل دايان الى نتيجة أساسية هى : ان النقطة الحاسمة لمشاكل الأمن الاسرائيلى كانت ، وسوف تظل دائما ، هى حدودها مع مصر .

من هنا بدأ « دايان » يعطى أولوية للجبهة مع مصر . كما بدأ فى نفس الوقت فى تطبيق أفكاره الخاصة بتطوير الجيش الاسرائيلى. أفكار تعتمد على الأسس التالية :

أولا : تغيير سياسة الدفاع الثابت . بحيث يصبح الجيش قادرا على توجيه الضربات العسكرية عبر الحدود .

ثانيا : تشكيل دوريات حراسة متحركة .

ثالثا : تشكيل فرق خاصة على غرار « فدائيى منتصف الليل » .. تقوم بالأعمال الفدائية الخاصة ، بالاضافة الى تأثيرها فى رفع الحالة المعنوية والقتالية التى بدأت تنخفض فى قوات الجيش منذ انتهاء حرب ١٩٤٨ ..

وكان « دايان » يزداد الحاحا على تنفيذ طلبه الأخير بالذات ، بعد أن أثبتت التطورات التالية أهمية وجود فرق الكوماندوز هذه ..

من هذه التطورات مثلا ، انه تقرر فى يناير سنة ١٩٥٣ القيام بغارة انتقامية اسرائيلية ضد قرية « فلما » العربية ، وهى قرية صغيرة تقع بين قلقيلية وطولكرم فى الحدود الأردنية . وعندما بدأت هذه الغارة فى ليلة ٢٣ يناير كان « دايان » يراقبها كرئيس للعمليات فى الجيش الاسرائيلى .. أن القوات الاسرائيلية المهاجمة كانت تتكون من وحدات ضخمة من جنود المظلات — التى تم تشكيلها حديثا . بينما قوة الحراسة العربية فى القرية لاتزيد عن عشرة رجال مسلحين بالبنادق ..

ويقول الصحفى الاسرائيلى « لاو ـــ ليفى » .. عن تلك الليلة : « ان موشي دايان أصيب بالدهشة البالغة من هزيمة وحدات المظلات الاسرائيلية امام عشرة رجال .. وقد ظل هـــذا الحادث يلازمه فيما بعد كالكابوس .. وبعـــدها بسنوات كان موشى دايان يشير الى ذلك الحادث باعتباره نقطة التحـــول فى صـــنع قوة رادعة اسرائيلية .. » .

وبالفعل .. بدأ موشى دايان ينفذ بعدها خطته ، فى تشـــكيل قوة فدائية ضاربة تصبح محل حسد باقى قوات الجيش .. وتخلق روحا تنافسية فى كل الوحدات الاخرى .. وقد سميت هذه الوحدة « الاورطة ١٠١ » ، وأعطيت أدوارا رئيسية فيما بعد فى حربى ١٩٥٦ و ١٩٦٧ .

* * *

فى أواخر سنة ١٩٥٣ قـــرر بن جوريون أن يعتزل منصبه كرئيس للوزراء ووزير للدفاع ولكنه قرر أن يتخذ قبل اعتزاله خطوتين رئيسيين ..

أولا : وضـــع برنامج مدته ثلاث سنوات لخلق قوة عسكرية اسرائيلية رادعة ..

ثانيا : الاعتماد على ثلاثة من تلامذته فى تشكيل فريق لتنفيذ هذه الخطة : بنحاس لافون فى منصب وزير الدفاع ، موشى دايان فى منصب رئيس أركان الحرب ، شمعون بيرس فى منصب مدير عام وزارة الدفاع ..

وكان البرنامج العسكرى الذى قرره بن جوريون ووافق عليه مجلس الوزراء فى ١٨ أكتوبر سنة ١٩٥٣ مبنيا على افتراض أن هناك صداما عسكريا لابد أن يقع بين اسرائيل ومصر فى المستقبل القريب ، وأن « مصر لن تصبح لها خطورة عسكرية قبل سنة ١٩٥٦ » .

وبناء على هذا التصور المبكر ، وضـــع بن جوريون برنامج السنوات الثلاث .. متضمنا ١٨ نقطة ، اهمها :

١ ــ انشاء قوة اسرائيلية عسكرية رادعة .

٢ ــ البحث عن حليف مخلص يمد اسرائيل باحتياجاتها من الاسلحة والمعدات العسكرية .

٣ ــ تقوية الكفاءة القتالية للجيش الاسرائيلى على حساب « الذيل » الادارى .

٤ ــ التركيز فى بناء القوة الهجومية الضـــاربة على اسلحة الطيران والمدرعات وقوات الكومـاندوز .

٥ ــ خلق الظروف الفنية اللازمة لجعل تعبئة الاحتياطى اكثر سرعة وكفاءة .

٦ ــ نقل مسئولية الامداد والتمويل الى الاقسام المدنية فى وزارة الدفاع .. بحيث يتفـــرغ الجيش للتركيز على المهمـــات العسكرية البحتة ..

٧ ــ تنمية « الجادنا » وهى منظمة الشـــباب المسئولة عن تدريبه عسكريا قبل فترة التجنيد الاجبارى ..

٨ ــ الاستفادة القصوى من اية فرصة تنشأ من الصدام المباشر مع الدول العربية .

٩ ــ اقامة جسر سياسى بين اسرائيل والدول الناشئة فى افريقيا وآسيا ..والاعتماد فىذلك على وسائل المساعدة الفنية والتدريبية .

وعلى الفور بدأ تنفيذ البرنامج الجديد بمجرد تقاعد بن جوريون .. ولم يؤثر فى التنفيذ صدام بنحاس لافون فيما بعد مع المؤسسة العسكرية بسبب المشكلة التى سميت (مسألة لافون) وليس هذا مجال تفصيلها ..

المهم .. أن « شمعون بيرس » بدأ سلسلة رحلات الى أوربا وامريكا .. بحثا عن « الحليف المخلص » عسكريا . وقد استطاع « بيرس » أن يقيم فى تلك الفترة علاقات متينة مع رجل الأعمال اليهودى الفرنسى « مارسيل داسو » رئيس واحدة من أكبر مؤسسات صناعة الطائرات الفرنسية .. وقد قام هذا بدوره بترتيب اجتماعات له مع نائب رئيس الوزراء والمسئولين الفرنسيين، حيث بدأت علاقة خاصة سوف تلعب دورا حاسما فى السنوات التـــالية .

اما بالنسبة لموشى دايان فقد بدأ هو الآخر ينفذ نصيبه من برنامج السنوات الثلاث .

ولقد كان مفتاح البرنامج كله بالنســـبة لدايان ــ هو الاهتمـــام بفرعين بالذات من نشاط الجيش :

أولا : المخابرات الحربية . وقد اختـــار لرياستها الكولونيل بنامين جيبلى .

ثانيا ــ التدريب . وقد اصبح المســئول عنه هو الكولونيل اسحاق رابين الذى اصبح فيما بعد رئيسا لأركان الحرب .

وقد كان هذا الترتيب من « دايان » منطقيا ومتمشيا مع طبيعة اى تنظيم عسكرى. فبغير معلومات دقيقة عن تنظيمات وتحركات الخصم .. تصبح أية أعمال عسكرية شيئا لامعنى له .. وبغير تدريب مستمر تصبح اية اضافة لمعدات الجيش وأفراده هى مجرد « ورم » يضر بأكثر مما يفيد .

ونستطيع ان ندرك اهمية هذه النقطة بالذات حينما تعلم ان كل القـــادة العسكريين يعتبرون اى تعبئة عسكرية فى عصرنا هذا اصبحت تتوقف الى درجة كبيرة على مدى تعليم وتدريب أفراده. وحتى فى ميدان القتال الفعلى ، فان الجندى الجاهل ربما يحارب بصلابة واصرار من موقع دفاعى ثابت . أما الحرب الهجومية ــوهى الشيء الذى كانت تستعد له اسرائيل فى تلك الفترة ــ فانها تحتاج الى جندى متعلم ومدرب وقادر على اتخاذ المبادأة فى حالة الضرورة.

وبالاضافة الى ذلك بدا « دايان » يسرع فى اعفاء الضباط من اية مهام ادارية وقرر أن على كل ضابط أن يحصـــل على دورة تدريبية فى الهبوط بالمظلات أو الأعمال الفدائية ، وانشاء « كلية القيادة والأركان » للضباط ابتداء من رتبة رائد .

لقد كان اهتمام دايان بتدريب الضباط أمرا له أولوية كبيرة . وقد كان من أهم أهداف زياراته لامريكا وفرنسا سنة ١٩٥٤ هو أن ينقل وسائل التدريب الحديثة هناك ، خصوصا أساليب القتال الجــوى ..

＊ ＊ ＊

فى سنة ١٩٥٥ عاد بن جوريون الى رئاسة الوزراء بعد تفاقم الخلاف داخل حزب الماباى وداخل مجلس الوزراء بسبب الصدام بين وزير الدفاع وبين المؤسســـــة العســـكرية التى يمثلها دايان وبيرس . ولأن بن جوريون هو الأكثر قدرة على حل هذه التناقضات فقد عاد ليتولى كلا من مسئولية الوزارة ، ووزارة الدفاع .

وعند عودته كان « موشى دايان » و « شمعون بيرس » قد قطعا شوطا كبيرا فى تنفيذ البرنامج الذى وضعه هو قبل اعتزاله .. وبحيث أصبح « دايان » قادراً على أن يقترح على رئيسه الاسراع بالقيام بهجوم واسع النطاق لاحتلال مضايق شرم الشيخ . ولكن بن جوريون راى أن الموقف ليس مناسبا بعد — من الناحية السياسية — لمثل هذا الهجوم الشامل .

ولكن هذا الوقت أصبح مناسبا فى سنة ١٩٥٦ عندما تعقدت العلاقات بين مصر وأمريكا من ناحية ، وتأزمت بين مصر وفرنسا وبريطانيا من ناحية أخرى . وعقب تأميم قناة السويس استطاعت اسرائيل أن تستثمر علاقتها الخاصة بفرنسا الى أقصى حد ممكن بحيث أنه — بتعبير موشى دايان — نجد أن « قوة الجيش الاسرائيلى — وبالذات سلاح الطيران — قد وصلت الى الضعف خلال الايام القليلة السابقة على حملة ســيناء » . وقد اعتبرت المصـــادر

الاسرائيلية أن حصول اسرائيل على المقاتلات النفاثة للقوات الجوية فى عهده يعد واحدا من أهم أعماله الناجحة .

وفى كتابه عن يوميات حملة سيناء يعبر « موشى دايان » أصدق تعبير عن التفكير العسكرى الاسرائيلى بهـــذه الكلمات : « لولا العملية الانجلو / فرنسية ، لـــكان هناك شك فى أن تســـتطيع اسرائيل القيام بحملة سيناء ، ولو كانت قد فعلت ذلك لاختلف وجهها سواء من الناحية العسكرية او من الناحية السياسية » .

لقد استغلت اسرائيل اول صدام حقيقى فى المصالح بين مصر والغرب ، فأسرعت باستثماره لحســـابها الخاص ، أو بتعبير « موشى دايان » مرة أخرى : « يجب أن نتصرف مثل راكب الدراجة الذى يصعد الى أعلى التل ، ويجد فى طريقه عربة يستطيع أن يمسك بها . ان علينا ان نأخذ المساعدة الممكنة ، فنتعلق بمركباتهم ونستغلها على قدر المستطاع . فقط عندما تفترق طرقنا .. علينا أن ننفصل ونتابع طريقنا منفردين وبقوتنا الذاتية » .

ومثلما نقرأ هذه الكلمات « لموشى دايان » فى كتابه « يوميات حملة سيناء » .. فاننا نقرأ عنه أيضا فى مجلة « بلاينت اكسيون» أن : « سياسته متأرجحة وتجريبية اكثر منها عقائدية ، واقرب الى الاحداث منها الى النظريات » .

ثم نقرأ عنه ايضا كلمات ابنته يائيل ، « لكن لايمكن ان يقال عن ابى انه رجل فكر . انه رجل عمل أكثر منه رجل فكر » .

ثم نقرأ لموشى دايان من جديد هذه الكلمات : « ينبغى أن ينحصر اهتمامنا فى أن نتحاشى أن نجد أنفسنا فى موقف لايكون لنا معه اختيار » ..

* * *

ان الكلمات الاخيرة هى نفسها المبدأ العسكرى القديم « لاتدع نفسك حبيسا » .. وهى نفسها الشىء الاساسى الذى حرصت عليه اسرائيل بعد حرب ١٩٥٦ .

لقد خرجت اسرائيل من فترة المساومة التالية لحرب ١٩٥٦ وهى تريد التركيز على نقطتين جوهريتين :

اولا : بناء قوة عسكرية قادرة على الردع الشامل .

ثانيا : خلق قوة رادعة سياسية .

ولان الهدف الثانى أقل تكلفة من الأول ــ وان لم يكن أقل جهدا ــ فقد بدأت اسرائيل تسعى الى زيادة رأسمالها السياسى على المستوى الدولى ، حيث كان من دروسها المستفادة من حرب ١٩٥٦ أن القوة العسكرية ليست وحدها بالرادع الكافى ، على الأقل فى المدى الطويل . ان اسرائيل انتصرت عسكريا فى ١٩٥٦، ولكنها هزمت سياسيا . ان الهزيمة السياسية سحبت منها المزايا التى حصلت عليها بالقوة العسكرية ــ وان كانت قد أعطتها مزايا اخرى بديلة .

وفى كتاب « السياسة فى اسرائيل » يذكرنا المؤلف بأن من أهم الدروس التى استخلصتها اسرائيل فى تلك الفترة هو أنه أصبح « .. من الواضح بالنسبة لاسرائيل أن الدولة تتمتع بتأييد الدول الكبرى اذا كانت مصالحها تتفق مع مصالح اسرائيل نفسها فقط. وان تكتيكها الخاص يجب أن يصبح ، بالتالى ، محاولة مستمرة لاقناع هذه الدول باتفاق مصالحهما » .

لهذا نجد أن اسرائيل بدأتتركز مجهودها هذه المرة على الولايات المتحدة بهدف بناء علاقة خاصة مع أمريكا تحل محل العلاقة الخاصة مع فرنسا . ومع أن هذه العلاقة كانت دائما موجودة سياسيا ، الا أن التطور الجديد منذ سنة ١٩٥٧ هو الذى أدى الى امتدادها للمجال العسكرى ..

* * *

ومن الناحية العسكرية ــ وهى زاوية اهتمامنا هنا ــ كان التركيز الاسرائيلى عى خلق قوة عسكرية قادرة على الردع الشامل، بعد أن كان الهدف قبل ١٩٥٦ هو الردع المحدود .

ولتوفير الأسلحة اللازمة لمثل هذه السياسة الجديدة ، كانت اسرائيل حريصة على عدم نسيان الدروس التى خرجت بها من حرب ١٩٥٦ ، ومن أهمها :

أولا : ان وجود الضمان السياسى الدولى — او حتى التحالف — لا قيمة له اذا لم توفر اسرائيل لنفسها قوتها العسكرية الخاصة الشـــاملة .

ثانيا : ان الاعتماد على دولة واحدة — أو مصـــدر واحد — لتوفير الأسلحة هـــو أمـــر محفوف بكثير من المخاطر ، أو بعبير شمعون بيرس : « ان الدولة الصغيرة التى تتأثر كثيرا بالتحولات السياسية العالمية ، يجب عليها دائمـــا أن تحتفظ بقدرتها على المبادأة ، وأن تســـعى جديا للحصـــول على أنماط اخرى من الضمانات ، وان تتبع سياسة جماعية فى ارتباطاتها الدولية » . .

ثالثا — ان التركيز على سلاحى الطيران والمدرعات ، باعتبارهما حجر الأساس فى القوة الضاربة لأى جيش عصرى هو أمر حيوى للغاية بالنسبة لاسرائيل .

رابعا — ان العرب متفوقين عدديا ، وعلى اسرائيل أن تعوض ذلك بالتفوق نوعيا — خصوصا فى المجال العسكرى . وهـــذا يستدعى التركيز على سباق جديد أساسه التكنولوجيا .

خامسا — ان الحصول على السلاح من امريكا هو أمر هام للغاية ، ليس مجرد اهمية عسكرية ، ولكن ايضا بسبب قيمته السياسية فى الصراع ضد العرب .

وفى الواقع ان الســـنوات العشر فيما بين سنة ١٩٥٤ وسنة ١٩٦٤ ، كانت هى فترة السباق الحاسمة بين اسرائيل والعرب من اجل الحصول على موقف محدد وملائم من جانب أمريكا . وعندما بدأت فى هذه الفترة بوادر تحسن فى الموقف الامريكى ، خصوصا نحو مصر ، فان اسرائيل انتابتها حالة هيستيريا سياسية ، الى الدرجة التى نفذت فيها خطة لتخريب المنشآت الأمريكية فى مصر بهدف القضاء على تلك البوادر فى مهدها .

وعندما فشلت هذه الخطة لجأت اسرائيل الى أسلوب آخر ، بحيث أنها طلبت من الحكومة الامريكية رسميا ان توقع معاهدة دفاع عسكرى . ويقول المؤلف الصهيونى الامريكى « ناداف سافران » ان أمريكا « .. لم توافق لانها كانت ماتزال تأمل فى ادخال الدول العربية الأخرى فى حلف بغداد ، ومثل هذا العمل سوف يزيد من تعقيد الموقف » .

وبعد حرب ١٩٥٦ كررت اسرائيل محاولتها من جديد بصيغة أخرى يعبر عنها « بن جوريون » هذه المرة فى كتاب « النبى المسلح » بقوله : « ان اسرائيل عرضت على أمريكا — فى سنة ١٩٥٧ — ان تقوم بتوسيع الموانى والمطارات الاسرائيلية ، حتى تصبح صالحة للاستعمال كقواعد عسكرية للولايات المتحدة فى حالات الطوارىء » . وفى هذه المرة فشلت اسرائيل من جديد لان أمريكا كانت تعتبر ان مشروعها الجديد « مبدأ ايزنهاور » لا يحتاج الى مثل هذا العمل .

ومع ذلك . فان اسرائيل لم تتوقف عن محاولاتها بالنسبة لأمريكا. وقد ساعدها فى ذلك الى درجة كبيرة — أن منطقة الشرق الأوسط بأسرها قد ادخلت فى مجال الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتى وامريكا ،وهو الأمر الذى استثمرته اسرائيل لمصلحتها تماما ، ووصل الى ذروته فى سنة ١٩٦٧ .

* * *

وقبل ان نصل الى حرب ١٩٦٧ ، فقد يكون من المفيد أن نلقى بنظرة على البناء العسكرى العام الذى تعتمد عليه اسرائيل ، ولجأت الى تنميته خلال السنوات العشر السابقة على ١٩٦٧ .

ان سن الاستدعاء للخدمة العسكرية فى اسرائيل هو ١٨ سنة . ولكن هذه الخدمة يسبقها اعداد عسكرى .. وتعميق لروح عسكرية يبدأ زرعها لدى الأطفال مبكرا .

وهذا الأعداد العسكرى يبدأ فى اتخاذ مظهر منظم بواسطة عدة تنظيمات .

● فهناك أولا منظمة « الجــادنا » .. وهى منظمة عسكرية للشباب اليهودى من سن١٤ الى ١٧سنة.ان هدفها هو تقويةالروح العسكرية واللياقة الجسمانية واعطاء التدريبات العسكرية الأولية التى تمهد للخدمة العاملة وهذه المنظمة لها فروع فى جميع المدارس الثانوية والمدن والمستعمرات فى اسرائيل . كما أن لها معسكراتها ومواقعها الخاصة.وأعضاؤها يتم تدريبهم على الرياضة والمصارعة اليابانية والقفز ، وعلى كيفية استخدام الأسلحة وأساليب القتال الأولى بصفة عامة . وللجادنا فــروع بحرية وجوية أيضا ، وعن طريقها يتمتوجيه الصبيان والفتيات الى فروع القوات المسلحة التى تناسب استعدادهم حينما يلتحقون بالخدمة العسكرية العاملة .

ومع أن هذه المنظمة مهمتها تدريبية أساسا .. الا أنها فى حالات الطوارىء تصبح مختصة بالواجبات العسكرية الثانوية كحراسة الطرق والكبارى وغيرها .

● والمنظمة العسكرية الثانية التى تعمــل خارج نطاق الجيش العامل هى « الناحال » أى منظمة الشباب الطلائعى المقاتل . وهى عبارة عن كتائب عســكرية تمثل تشــكيلات خاصة فى الجيش الاسرائيلى العامل ، وتضم الفتيات والفتيان الذين يلتحقون بها فى سن سابقة على التجنيد الاجبارى . وافرادها لا بد أن يكونوا من مواليد نشأوا فى ظل التوجيه الصهيونى والتنظيمات العسكرية . وتعمل كتائب « الناحال » فى الخدمة العســكرية كبقية وحدات الجيش ... ولكنها عندما تنهى الخدمة النظامية لا تسرح ولا تقطع صلتها بالعمل العسكرى . وانما تختار كل جماعة منها منطقة معينة على الحدود وترابط فيها . وفى سنة ١٩٦٣ قررت مؤسسة « الكيرن كايمث » الصهيونية بناء ١٨ مستعمرة ترابط فيها مجموعات من كتائب « النـــاحال » على الحدود داخل مســتعمرات عسكرية فى المناطق التى تعتبر نقاطا استراتيجية .

وكان مجلس الوزراء الاسرائيلى قد اتخذ قرارا فى نفس السنة بعدم السماح ببيع أو تأجير الأراضي الساحلية الممتدة من حدود لبنان شمالا الى حدود قطاع غـزة جنوبا . كما قرر فى يوليـو سنة ١٩٦٣ أيضا بناء أربعين مستعمرة فى الجليل . فى مواقع معينة تكون مناطق لتدريب وخدمة كتائب الناحال .

أما بالنسبة للخدمة العسكرية فان مدتها سنتان ونصف للرجال ــ وسنتان للنساء . والنساء يستخدمن فى الأعمال الكتابية والادارية وقيادة المركبات وتعبئة المظلات والأمدادات والتموين والمستشفيات العسكرية والاشارات . ويضاف الى هذه المهام أيضا اشتراكهن فى أعمال الدفاع الثابت . بينما كن فى حرب ١٩٤٨ يستخدمن فى وحدات القتال .

وبعد انتهاء مدة الخدمة العسكرية تستمر مدة الاحتياط حتى سن ٤٩ بالنسبة للرجال و ٣٤ للنساء . وقوات الاحتياط هذه تأخذ باستمرار واجبات تدريبية . فطوال مدة الاحتياط يستدعى الرجل أو المرأة للخدمة العاملة والتدريب لمدة شهر كل سنة .. بالاضافة الى يوم واحد كل شهر .. وبالنسبة للضباط تزيد المدة عن ذلك قليلا ..

ولقد كان من المجهودات الرئيسية التى ركزت عليها قيادات الجيش الاسرائيلى دائما هى تطوير نظام التعبئة وضمان كفاءته المستمرة . ففى حالات التعبئة يتم استدعاء قوات الاحتياط فى وقت قياسى وقد كانت الأسس التى يعتمد عليها هذا التفكير هى :

اولا : ان التعبئة الكاملة لا تتم الا فى حالة الحرب ، أو الاستعداد للحرب .

ثانيا : انه فى حالة التعبئة الشاملة .. فان اى حرب تخوضها اسرائيل يجب أن تكون قصيرة . وتعتمد على اقصى تركيز للقوات المحاربة بهدف تحقيق مركز استراتيجى سياسى وعسكرى ملائم قبل فرض اطلاق النيران بواسطة التدخل الدولى .

ثالثا : انه فى جميع الحالات فان اسرائيل تحرص على أن تأخذ موقف الهجوم بأسرع ما يمكن ، وأن تنقل القتال الى أرض العدو .

ويقول ناداف سافران اليهودى الأمريكى الذى حارب مع جيش اسرائيل : ان اسرائيل طبقت هـــذه القاعدة دائما وفى جميـــع الأحوال . . ليس فقط بالنسبة لحالات الحرب الجزئية أو الشاملة ، بل أيضا بالنسبة لغارات الفدائيين حيث كانت تواجه حالات التسلل الفدائى الفردية بالهجوم بوحدات عسكرية مقاتلة ضخمة ضـــد اهداف مركزة خارج حدودها .

ويضيف ناداف سافران : ان مثل هذا الأســـلوب فى العمل العسكرى قد سبب لاسرائيل ادانات كثيرة بواسطة مجلس الأمن . . واحراجا متكررا للحكومات الصديقة لها . ولكن هذا لم يجعلها تكف عن تكرار نفس الأسلوب مرة أخرى .

واسباب اسرائيل لتطبيق هذا الأسلوب كثيرة.احد هذه الأسباب هو حرص اسرائيل على الا تتطور اية عمليـــات فدائيـــة عربية الى حرب عصابات واسعة النطاق ، يحصل فيها العدو (الذى هو نحن أيضا) على مواقع يندفع منها . لأن مثل هذه الحرب سوف ترغم اسرائيل على أن تستخدم باستمرار قوات ضخمة جدا . . بالاضافة الى أن كفاءة هذه القوات ستكون ضعيفة .

سبب آخر : هو أن مثل هذا الأسلوب الهجومى يهدف الى أن ينتقل القتال دائما الى أرض العـــدو . الى أرض العرب .

وهذا الأسلوب الهجومى نلاحظه دائما ايضا فى نظام التدريب العسكرى فى اسرائيل . فالتدريب يركز أساســـا على الصفة المقاتلة فى التشكيل العسكرى ، وعلى السرعة . وفوق كل شىء يركز على المبادأة بالهجوم . كما أن التدريب فى السلاح الجوى وفى السلاح البحرى يعتمد على نفس الأسلوب ، ويعتمد أيضـــا على تدريب أكبر عدد ممكن من الطيارين والبحـــارة ووضعهم فى قوات الاحتياطى .

والصورة بهذا الشــكل تعنى فى النهاية أنه بسبب الطبيعة الخاصة للاقتصاد الاسرائيلى ، ونتيجة لأن الجيش هو أساسا جيش من الاحتياطى ، فان الجزء الأكبر من الميزانية العسكرية يتم استخدامه فى شراء أو صنع أو تطوير المعدات العســكرية نفسها .. دون أن يتحمل أعباء نفقات ادارية ضائعة ، مثلما يحدث غالبا فى معظم الجيوش النظامية العادية .. بالاضافة الى أن أفراد الجيش لا يتم سحبهم من الاقتصاد الا فى حالة الحرب الفعلية أو الاستعداد السريع لها ..

* * *

بهذا التصور العام للبناء العسكرى الاسرائيلى نصل الى سنة ١٩٦٧ ، وهى السنة التى أصبح فيها على هذا البناء كله أن يبدأ حربا ثالثة ضد العرب ..

فى هذه النقطة نجد أن المعلق التليفزيونى الأمريكى « رود يريك ماكليش » يرى « .. ان كل حرب تحتاج الى بطل أو ــ على الأقل ــ الى مجموعة بطولية . ان البطل المفترض للحرب العربية الاسرائيلية الثالثة كان هو موشى دايان . وبينما نجد أن منجزات الجنرال دايان فى المجالين الســياسى والعسكرى للحرب لهــا اعتبارها ، الا أنه لا ينطبق عليه تعريف البطل النهائى ــ بمعنى : الرجل الذى بدونه لم تكن الحــرب ستنتهى على ما انتهت اليه . ان هذا الدور ينتمى الى الجنرال مردخاى هود (قائد ســلاح الطيران) ، ومخططى التكتيكات الجوية الاسرائيلية . ان الجنرال اسحاق رابين رئيس أركان الحرب وضع عدة خطط بديلة بالنسبة للاســتراتيجية العامة ، كلها تعتمد على خطــة الجنرال هود الجوية . ان موشى دايان قام باختيار استراتيجية محدودة وأعاد تصميم أضعف أجزائها ـــ وهو الهجوم على الأردن . ولكن ، ما زال النصر يرجع بدرجة كبيرة الى خطة الجنرال هود » .

والواقع أن هذه الكلمات صحيحة تماما ــ ولا بد أن نضيف اليها ان هناك عاملين فى غاية الأهمية ، حققا ضمان النجاح لخطة

الهجوم الجوى الاسرائيلى فى صباح الخامس من يونيو سنة ١٩٦٧ :

اولا : التمويه . فلقد استطاعت اسرائيل أن تحقق قدرا كبيرا من الخداع الضرورى لنجاح أى هجوم مفاجىء . وقد تمثل هذا فى الحديث المعتاد عن السلام وفى التحركات العسكرية عبر خليج العقبة وعلى الجبهة الأردنية السورية .

ثانيا : المعلومات . ويكفينا أن نلاحظ هنا أن الاسرائيليين كانت لديهم صورا دقيقة للمواقع الجوية المصرية وصواريخ « سام ٢ » الخاصة بالدفاع الجوى .. بينما فى مقابل ذلك كان هناك جهل مطلق من جانب المخابرات المصرية بمواقع وتحركات ونوايا العدو . انه جهل فرضته السياسة مبكرا — حيث لم تقم ولا طائرة مصرية واحدة بعبور الحدود الاسرائيلية — ولو بطريق الخطأ — منذ سنة ١٩٥٦ .

بعد هاتين الملاحظتين نجد أن الهجوم الاسرائيلى — حتى الهجوم الجوى — لم يخرج عن النطاق التقليدى لأى هجوم . ففى أى موقف حربى ، نجد أن الأسلوب الكلاسيكى لشن الهجوم الجوى يتضمن ثلاثة مراحل :

اولا : تدمير القوة الجوية للعدو — على الأرض لو أمكن .

ثانيا : تدمير قوة العدو على امداد جيوشه .

ثالثا : مساندة جوية للقوات الأرضية فى هجومها الرئيسى .

ان كل هذه المراحل يمكن ملاحظتها فى الاستراتيجية الاسرائيلية سنة ١٩٦٧ ، ففى المرحلة الأولى وحدها التى استمرت من الثامنة الا الربع حتى العاشرة و ٣٥ دقيقة صباحا بتوقيت اسرائيل ، استطاعت اسرائيل أن تهاجم ١٩ مطارا مصريا .

وبالنسبة للهجوم الأرضى الرئيسى فى سيناء ، فان الخريطة التى جهزتها هيئة أركان الحرب الاسرائيلية وعليها عنوان « طرق

التقدم ـ ٥ يونيو ١٩٦٧ » .. كانت مبنية على خطة الجنرال اسحاق رابين ، والتى تعتمد بدورها على ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : اختراق الدفاعات المصرية فى اثنين من أقوى نقاطها : العريش وأبو عجيلة .

المرحلة الثانية : التقدم الى منطقة الجبال شرققناة السيوس لسد طرق الهرب .

المرحلة الثالثة : تدمير الجيش المصرى فى سيناء .

ان هذه الخطة ـ بشكلها هذا ـ تساوى بالضبط المفهوم الكلاسيكى لأى معركة كبرى .

ولو رجعنا مثلا ـ لما كتبه القائد الانجليزى المشهور الفيلد مارشال ويفل ـ وهو يحلل معارك الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) فاننا سنقرأ له :

« ان المعركة الكبرى تتضمن فى العادة ثلاث مراحل .

المرحلة الأولى هى تصادم القوات المتقدمة . والتى تحت غطاءها يقرر قادة الخصم خطتهم للعمل ، وينشرون جيوشهم فى قوتها الكاملة . (وقد حققت اسرائيل هذه المرحلة فعلا قبل ٥ يوثيو) .

المرحلة الثانية هى صراع القوات الرئيسية للحصول على تفوق فى النيران وانهاك احتياطيات العدو استعدادا للهجوم النهائى . (وهذه المرحلة هى نفسها التى خاضتها اسرائيل فى يومى ٥ و ٦ يونيو) .

المرحلة الثالثة (كانت) الهجوم الرئيسى الحاسم ، أو الهجوم المضاد ، واستغلال النجاح بمجرد انكسار خط العدو . (وكان هذا هو القتال فى يومى ٧ و ٨ يونيو) .

وبصفة عامة ــ يقول بيتر يونج المعلق العسكرى البريطانى ــ أنه « .. من وجهة النظر العسكرية فان هذه الحملة الاسرائيلية ــ ١٩٦٧ ــ ذات الطراز القديم بها ملامح مثيرة للاهتمام . ففى المكان الأول نجد أنها كانت من ذكريات الحرب العالمية الثانية . ان المقــارنة بين هجوم ويفل ــ اوكونور سنتى ١٩٤١/٤٠ هو امر موجود .. ولكن التكتيكات المستخدمة يبدو أنها قد تم انتقاؤها من الحملات الألمــانية فى ســنوات ٣٩ ــ ١٩٤١ . وهى التى تعتمد على تدمير القوات الجوية للخصم الذى يتخذ موقف الدفاع .. يتبعها هجمات صلبة بالقوات المدرعة .. ان التشابه موجود أيضا بين حملة اسرائيل فى سنة ١٩٥٦ وحملتها فى سنة ١٩٦٧ بشكل ملفت للنظر . ولكن الحملة الأخيرة نفذت بمزيد من الخبرة . وبصفة اجمالية ، فان استراتيجية اسرائيل العسكرية فى ســـنة ١٩٦٧ ، تدخل فى النطاق الذى يمكن التنبؤ به » .

* * *

والواقع ان دراسة البناء العسكرى الاسرائيلى بصفة عامة ، ودراسة أسلوب العمل الاسرائيلى فى حرب ١٩٦٧ بالذات ، يغرى اغراء شديدا بالدخول فى مقارنات تاريخية .

لقد اثبت اعضاء المؤسسة العسكرية الاسرائيلية انهم تلاميذ مخلصون للعسكريين الالمــان ــ ليس فقط فى التكتيك ، وانمـــا فى الاستراتيجية أيضا . ان استراتيجيتهم نفسها ــ بوعى أو بغير وعى ــ تكاد تتطابق مع سلسلة طويلة تمتد حتى فريدريك الأكبر ملك بروسيا .

ان فريدريك كان هو الآخر محاط بأعداء اقوياء : النمسا وروسيا وفرنسا مثلا .

انه ــ أيضا ــ كان يتصرف بأســـلوب الضربة الوقائية ــ مرة فى سنة ١٧٤٠ ، ومرة فى سنة ١٧٥٦ .

ان غريزته علمته ان يبدأ اولا بضرب عدوه الأكثر خطورة : النمسا .

ان خطة جراف شيليفبن كانت أن يهاجم اولا فرنسا قبل أن يستدير لروسيا .. وهو تفكير يمكن مقارنته بتدمير الاسرائيليين للجيش المصرى .. قبل أن يستديروا للأردن وسوريا .

ان فريدريك لم يفكر فى اعطاء أولوية لاحتلال اراضى العدو . هنا أيضا يوجد التشابه مع تصرف اسرائيل بالنسبة للقنيطرة ، أو الضفة الغربية . أو سيناء .. ايهما تفضل .

إن فريدريك اختار أيضا أن يحارب من موقع مركزى .. بادئا بالاخلال بتوازن عدوه الأقل تعبئة بواسطة ضربات ذكية (١٧٥٧) و .. و .. و ..

يقودنا اغراء المقارنات التاريخية هنا الى حقيقة لا مفر منها : ان دراسة التاريخ هى جزء من العلم ، واتخاذ بروسيا مثلا عسكريا أعلى هو أمر قائم .

مع ذلك .. ما زال من الخطر ان يدفع الانسان هذه المقارنات الى أكثر مما يجب ..

الجزء الثاني

كتب إسرائيلية ممنوعة من التداول



التاريخ السري لحرب إسرائيل

تأليف: ميشيل بارزوهار

٧ ـ ممنوع من التداول



هذا الكتاب
وهذا المؤلف

ان الكتب الاسرائيلية التى صدرت لتحلل حرب الأيام الستة فى يونيو ١٩٦٧ ، تمثل أعلى نقطة فى ترمومتر الحرب النفسية ضد العرب ، وبالذات ضـــد مصر . ان الانتصــــار الخاطف من جانب اسرائيل .. مقابل الهزيمة الواضحة فى جانب العرب .. يمثلان فرصة ذهبية و « فاترينة » ضخمة تعرض اسرائيل من خلالها كل ماتريد . لهذا .. فان ابتلاعنا لهذه الجرعة .. يزيدنا قوة برغم انه يملأنا مرارة . انه يزيدنا قوة بشرط أن تـــكون هذه الجرعة مقدمة لعلاج المرض واستئصال الأسباب .

والكتاب الذى نعرضه هنا على لسان مؤلفه ، ليس هو الكتاب الوحيد الذى يتناول احداث يونيو ١٩٦٧ بالتفصيل . انه ليس الكتاب الوحيد ، ولكنه يعتبر الكتاب الأمثل ، الذى يمثل وجهة نظر اسرائيل فى تلك الأحداث . ان المؤلف اختار لكتابه عنوان « التاريخ السرى لحرب اسرائيل » ، ونحن نختار له عنوانا بديلا هو « التاريخ الاسرائيلى لحرب ١٩٦٧ » ، لانه أكثر الكتب تعبيرا عن وجهة نظر اسرائيل فى تلك الحرب التى لم تنته بعد .

ان المؤلف هو « ميشيل بارزوهار » ، وهو اسرائيلى تخصص فى الكتابة عن الأزمة العربية الاسرائيلية . لقد صدرت له من قبل أربعة كتب ، كان من بينها كتاب « حرب السويس — سرى حدا » .. وهو كتاب نشر فى أعقاب حرب ١٩٥٦ .

وفى هذا الكتاب الجديد « التاريخ السرى لحرب اسرائيل » حصل المؤلف على معلوماته من حوالى مائتى شخصية عسكرية وسياسية فى اسرائيل وأمريكا وبريطانيا وفرنسا ، وتناول بالتفصيل موقف

كل الأطراف الدولية بالنسبة للنزاع تناولا يمثل ـ بالطبع ـ وجهة نظر اسرائيل . وفى هذه الحدود .. فان الكتاب يكشف أسرارا جديدة ، ليس بالنسبة للتفكير الاسرائيلى فقط .. ولكن بالنسبة لدور أمريكا فى الأزمة أيضا ، وخصوصا بالنسبة للدور الذى قام به الاخوان « يوجين روستو » و «والت روستو » لخدمة أهداف السياسية الاسرائيلية خلال الأزمة . لقد كان الأول وكيلا لوزارة الخارجية الأمريكية ، والثانى مساعدا للرئيس الأمريكى جونسون .. ومن خلال هذين المنصبين الحساسين .. استطاعا أن يقوما بتأثير خطير فى السياسة الأمريكية خلال تلك الأيام الحاسمة من سنة ١٩٦٧ .

وفى النهاية ..فان هذا الكتاب ..هو واحد من الكتب الاسرائيلية الممنوعة من التداول فى مصر والدول العربية .

***

فى جهة ما من أوربا .. التقطت الأجهزة — الحساسة جدا — لمخابرات احدى دول الغرب ذات مســاء برقية سرية . ان ادارة مخابرات تلك الدولة لها شهرة ذائعة الصيت .. شهرة لم تفقدها قط بالرغم من بعض الأخطاء والنكسات التى منيت بـها .

وقد تم حل شفرة البرقية على الفور . وقبل منتصف الليل ، وضعت البرقية كاملة عى مكتب الضابط المسئول فى ادارة هذه المخابرات ، واتضح أنها عبارة عنتقرير من سفارة الاتحاد السوفيتى فى القاهرة ، موقع من السفير ، وموجه الى وزارة الخارجية التى تتبعها .. فى موسكو .

وكان هــذا التقرير الذى أرسله السفير فى ليلة ١٢ مايو ١٩٦٧ ، يخفى بين طياته نبأ أشبه بالقنبلة الزمنية ، التى تنفجر بعد فترة من الوقت . لقد كانت الفقرة قبل الأخيرة من التقرير تقول :

« لقد قمنا اليوم .. بابلاغ السلطات المصرية بالمعلومات المتعلقة بحشود القوات الاسرائيلية على الحدود الشمالية ، التى تهدف الى القيام بهجوم مفاجىء ضد سوريا . وقد نصحنا الحكومة المصريه باتخاذ التدابير الضرورية فى هذا الصدد » .

وفى هذه الأمسية .. لم يكن احد يشك فى أن هــذه العبارة ستكون الشرارة التى تفجر برميل البارود الضخم ، الذى يسميه الجغرافيون « الشرق الأوسط » .

وقبل ذلك بفترة بســيطة .. كان الموقف قد توتر تماما على الحدود الســورية الاسرائيلية . ففى نوفمبر ١٩٦٦ قام الجيش الاسرائيلى بغارة انتقامية ضد ســوريا ردا على أعمال التخريب التى كان يقوم بها فدائيو منظمة « فتح» القادمون من قرية « السموع » الأردنية . وكانت تلك الغارة أكبر العمليات العسكرية التى قام بها

الجيش الاسرائيلى فى ارض العدو حتى ذلك الوقت . ووقتها .. عاب السوريون على الملك حسين عجزه الواضح تجاه الجيش اليهودى ، وطالبوا مصر بالقيام بعمل رادع لاسرائيل .. وبناء على ذلك .. وقعت اتفاقية دفاع مشترك بين مصر وسوريا .

وازداد توتر الموقف ، عندما حدثت معركة هامة فى ٧ ابريل ١٩٦٧ بين اسرائيل وسوريا ، قامت فيها عشرات الطائرات الاسرائيلية بالتغلغل فى مجال سوريا الجوى . وفى يوم الخامس من مايو ١٩٦٧ قام رئيس وزراء مصر بزيارة سوريا ليعلن أن المعاهدة سوف تطبق فقط فى حالة قيام اسرائيل بهجوم عام على سوريا . وقد نشأ هذا الموقف عندما نقلت الحكومة السورية الى مصر معلومات سرية جدا مؤداها .. أن اسرائيل تنوى الهجوم على سوريا يوم ١٧ مايو . وفى صباح ١٤ مايو ١٩٦٧ عقد اجتماع محدود فى قاعة الجلوس فى منزل عبد الناصر بالقاهرة ، قدم فيه مدير المخابرات المصرية تقريرا يؤكد فيه — هو الآخر — أن اسرائيل تعتزم الهجوم على سوريا . وقد اتضح فيما بعد .. ان كل هذه التقارير كان مصدرها واحدا .

وقد زاد على ذلك .. ان « ليفى أشكول » رئيس وزراء اسرائيل أعلن فى خطاب له ، أنه فى حالة نشوب حرب .. فان الاسطول السادس سوف يتدخل الى جانب اسرائيل . ثم تتابعت بعد ذلك خطب لعدد من الوزراء الاسرائيليين ضمنوها تهديدات خطيرة ضد سوريا .

وفى هذا الاطار .. اصدر عبد الناصر تعليمات الى قيادة الجيش بأن تنظم فورا مناورة رادعة ضد اسرائيل ، تحشد فيها المدرعات والطائرات ووحدات المشاة فى سيناء ، بحيث تهدد صراحة حدود اسرائيل الجنوبية .. فيصبح من المستحيل عليها القيام بأى مبادرة فى الشمال .

وفعلا .. تلقى رؤساء الوحدات فى الجيش المصرى الأمر اليومى « رقم ١ » ونصه : « اعلنت حالة الاستعداد القصوى ابتداء من يوم ١٥ مايو ، الساعة ١٤٫٣٠ . وتغادر الفرق والوحدات التى أعدت

ـــ للعمليات ـــ مراكزها الحالية ، وتتحرك نحـــو مناطق التجمع والاحتشـاد التى خصصت لها . وتستعد القوات المسلحة للانتقال للقتال على الجبهة الاسرائيلية طبقا لسير العمليات » .

* * *

وفى واشنطون ، فى الساعة التاسعة و ٤٥ دقيقة ، استكملت السفارة الاسرائيلية ـــ التى تقع فى الشـــارع الثانى والعشرين ـــ استعداداتها للاحتفال بعيد استقلال اسرائيل (١٥ مايو) . وبينما كان يستعد « ابراهام هارمان » السفير الاسرائيلى للمؤتمر الصحفى الذى سيعقده بعد لحظات ، جاءته مكالمة تليفونية من « لوشيوس باتل » ، الذى كان سفيرا لامريكا فى القاهرة ، قبل أن يصبح وكيلا لوزارة الخارجية الأمريكية لشئون الشرق الأوسط .

ان باتل ، أبلغ الســفير الاسرائيلى ، بأن قوات مصرية عبرت مدينة القاهرة ومرت تحت شرفات الســـفارة الأمريكية متجهة نحو سيناء . ولم يكن « باتل » يشعر بقلق شديد ، لأنه قال للسفير « .. ليست هذه سوى مظاهرة لاستعراض القوة ، وربما كانت ردا على الاستعراض العسكرى الذى أقيم فى القدس ، فأنتم تحركون قواتكم .. وهم يحركون قواتهم » .

وفى موسكو ، كان « ايجال الون » وزير العمل الاسرائيلى ، يقوم بزيارة رسمية للاتحاد الســـوفيتى لـــدة ثلاثة أسابيع . وقد كانت تلك الفترة .. تشهد قلقا شديدا متزايدا من جانب الروس . فقد حدث انهيار مستمر لعدد من المراكز الهامة للمعسكر الاشتراكى فى جميع أنحاء العالم .. وقد حمل هـــذا الى اعتقاد الروس بأن مؤامرة استعمارية يجرى تنفيذها على النطاق العالمى . فســـقوط «بن بيلا» أعقبه سقوط «سوكارنو» و« نكروما ».واستولت الرجعية على السلطة فى الكونغو . وفى اليونان سحق كولونيلات الجيش ـــ من أنصـــار اليمين المتطرف ـــ الحريات الديموقراطية . وفى سوريا ارتفعت درجة حرارة الحمى . وفى مصر اكتشفت مؤامرة الاخوان المسلمين . وفى الســـعودية بدأ السعى لعقـــد تحالف اسلامى . وكان من رأى السوفييت .. أن واشنطن هى التى تحرك الخيوط من وراء الكواليس .. !

وفى هذا الجو .. أصبح السوفيت مقتنعين فى ربيع ١٩٦٧ بأن الاسرائيليين يعدون لعدوان غادر على سوريا ، وأن هذا العدوان أصبح وشيكا .

❋ ❋ ❋

وفى اسرائيل ، كان « اسحق رابين » رئيس هيئة أركان حرب الجيش قد وجه الدعوة للقواد الستة السابقين للجيش لمرافقته فى جولة تفقدية . وخلال الجولة .. تبادل رؤساء أركان الحرب السابقون الأسئلة حول حشود المصريين ، ووقتها قال رابين « ان المصريين يواصلون التمركز فى سيناء ، وهم يحتفظون عادة فى هذه المنطقة بحوالى فرقة و ٢٥٠ دبابة . وقد جلبوا فى الوقت الحاضر مئات من الدبابات الاضافية . وليس هناك شك فى أن الأمر يتعلق باستعراض للقوة ولكن ما الذى يفعلونه بعد ذلك ؟ » .

وقاطعه موشى دايان : اننى استطيع ان اقول ماذا سيفعلونه . انهم سيطلبون سحب قوات الأمم المتحدة . وهذه القوات ستجد نفسها مرغمة على الاذعان لأنها ترابط فى أرض مصرية . واذن ، فاذا كان « عبد الناصر » يرغب فى القيام بخطوة أخرى الى الأمام، فانه يستطيع اغلاق مضايق تيران .

❋ ❋ ❋

وفى غزة . وصل — فى الساعة العاشرة مساء — رسول متعجل من قبل اركان الحرب المصرية الى مقر « الجنرال ريكى » الرجل الهندى الذى يقود جيش الأمم المتحدة ، وسلمه رسالة شخصية وقعها رئيس أركان حرب الجيش المصرى وهذا نصها :

« يهمنى أن ابلغكم انى اصدرت الأمر الى جميع القوات المصرية المسلحة بالاستعداد للعمل ضد اسرائيل ، فى حالة ما اذا قامت هذه الدولة بعدوان ضد أية دولة عربية . وتنفيذا للأوامر التى تسلمتها قواتنا ، فانها تمركزت على حدودنا الشرقية فى سيناء . ولضمان سلامة جنود قوات الأمم المتحدة ، فانى أطلب منكم اصدار الأمر

الى هؤلاء الجنود باخلاء مواقعهم على الحدود ، واعادة تجميعهم فى قواعدهم بقطاع غزة » .

لقد كان هذا الخطاب بارعا ، وزنت كل كلمة فيه بدقة . فهو لم يثر مطلقا موضوع رحيل قوات الأمم المتحدة ، وانما أشار فقط الى اعادة تجميعها مؤقتا فى قواعدها . كما أنه لم يناقش مطلقا مسألة قوات الأمم المتحدة المرابطة فى شرم الشيخ ، وهى النقطة الاستراتيجية لتى تتحكم فى مداخل مضايق تيران . وكان الهدف مزدوجا : الحصول على نصر يحقق الهيبة لاستخدامه داخليا . وللبرهنة للجماهير على انه لايوجد تردد فى طرد قوات الامم المتحدة لمواجهة اسرائيل بحرية ، وفى الوقت نفسه .. افهام الدول الكبرى أن مصر لاتستهدف شن الحرب على اسرائيل أو اغلاق مضايق تيران .

وفى نيويورك ، قال « رالف بانش » مساعد السكرتير العام للأمم المتحدة لرئيسه « أوثانت » : ان طلب المصريين غير قانونى ، وهو أشبه ــ الى حد كبير ــ بطريقة جس النبض ، ويجب الرد على مصر بأننا لانقبل أنصاف الحلول من هذا النوع . فأما أن تستمر قوات الأمم المتحدة فى أداء مهمتها بانتظام ، واما أن نسحبها نهائيا من مصر .. وعندما قام أوثانت بابلاغ هذا الرأى لمحمد عوض القونى الممثل المصرى فى الامم المتحدة .. فانه كان مقتنعا بأن مصر لن تطلب جلاء قوات الطوارىء . ولكنه كان مخطئا . لقد طلبت مصر سحب قوات الطوارىء نهائيا . ومن هذه اللحظة .. تحولت اللعبة الصغيرة الى شىء آخر ، وبدأت مرحلة جديدة سوف تؤدى الى الحرب .

***

وفى تل أبيب ، أثيرت ــ لأول مرة ــ النظرية التى كانت سائدة فى الجيش الاسرائيلى ، ومؤداها أن عبد الناصر لن يشن الحرب ضد اسرائيل طالما ظل جزء كبير من جيشه مجمدا فى اليمن . وشرح رئيس هيئة أركان الحرب « لاشكول » تحركات القوات المدرعة الاسرائيلية فى الجنوب واستعدادها لأى احتمال فى مواجهة طوابير

الدبابات المصرية . وفى الليلة السابقة .. تمت تعبئة لواء احتياطى فى سلاح المدرعات وتقرر استدعاء قوات أخرى ، ثم أذاع متحدث عسكرى أن « الجيش الاسرائيلى قد اتخذ التدبيرات الضرورية نتيجة لتعزيز القوات المصرية فى سيناء » .

وفى الوقت نفسه .. أضاء جهاز الراديو فى سفارة الولايات المتحدة بتل أبيب . وكان الأمر يتعلق برسالة يطلب فيها الرئيس الأمريكى جونسون من سفيره نقلها الى « ليفى أشكول » رئيس وزراء اسرائيل ، ويقول فيها :

ـــ « أننى لا أجهل انك وبلادكم تقاسون كثيرا من الحوادث التى تقع كثيرا على حدودكم .. وانى أرغب فى أن اوضح لكم بصراحة: انه يقع على عاتقكم واجب الامتناع عن أية خطوة قد تؤدى الى زيادة التوتر واشعال نار العنف فى المنطقة . وانكم تدركون جيدا ـــ بدون شك ـــ أن الولايات المتحدة ، لا تستطيع أن تشعر أنها مسئولة عن موقف يمكن أن ينتج عن أعمال لم يتم التشاور معنا بشأنها ، مع تحياتى الخالصة ـــ ليندون جونسون » .

***

وفى سيناء ، انتشرت ثلاث فرق مصرية وأكثر من خمسمائة دبابة ، وفى اليوم نفسه (١٨ مايو) أصدرت أجهزة اللاسلكى بالسلاح الجوى المصرى أوامر تتعلق بالعمليات موجهة الى مختلف القواعد وهى « سرى جدا .. اننا بصدد عمل يهدف الى قطع جنوب النقب والاستيلاء على ايلات . وستضرب القوات المصرية بقنابلها مطار ايلات ومحطة الراديو وصهاريج البترول خلال هجوم سيقوده قائد الطيران » .

وفى الوقت نفسه .. تم الاتفاق بين « ليفى أشكول » و « أبا ايبان » على مشروع الرد على رسالة جونسون ، وهو عبارة عن أربع نقاط :

أولا ـــ ان الأزمة الخطيرة نشأت نتيجة لموقف سوريا .

ثانيا — ان مصر وزعت قوة هجومية تبلغ ٥٠٠ دبابة ، ويجب مطالبتها باعادة هذه القوات الى الجانب الآخر من القناة .

ثالثا — يجب الا تنسحب قوات الأمم المتحدة .

رابعا — على أمريكا ان تؤكد مرة اخرى — علنا — الضمانات التى قدمتها لاسرائيل فيما مضى .

***

وفى واشنطن ، ازداد القلق فى الادارات الرسمية التى ارتسم امام ناظريها خطر نشوب حرب ثانية ، على غرار حرب فيتنام فى الشرق الأوسط . وقد حاصر « ابراهام هارمان » سفير اسرائيل والوزير « افرايم افرون » مكتبى « لوشيوس باتل » وكيل وزارة الخارجية و « يوجين روستو » مســـاعد وزير الخارجية . وبدات الدوائر الموالية لاسرائيل فى التحرك ، ووصلت الى البيت الأبيض ، من جميع الجهات نداءات من الأحزاب السياسية والنقابات ورجال الصناعة والقضاء وأعضاء الكونجرس ، تطالب رئيس الولايات المتحدة بأن يذيع تحذيرات تحمل مصر على التراجع .

وفى الصباح .. وقع جونســـون رسالة سرية موجهـــة الى رئيس الحكومة الســـوفيتية . وقد أظهرت الاتصــالات الأخيرة للدبلوماسيين الأمريكيين ان القاهرة ودمشق مقتنعتان بأنه — فى حالة نشوب حرب مع اسرائيل — فانهما سيجدان المساندة من جانب الاتحاد السوفيتى . وقد اتخذت الولايات المتحدة ، من جانب آخر ، تعهدا بالدفاع عن سلامة اسرائيل واستقلالها . وهكذا يمكن الاستنتاج بسهولة : ان الدولتين الكبيرتين يمكن أن تجدا نفسيهما وجها لوجه اذا نشــبت الحرب فى الشرق الأوسط . وقد بعث جونسون برسالته من أجل تحاشى مثل هذا الخطر . فقد اقترح على رئيس الحكومة السوفيتية أن تتخذ دولتاهما المبادرة المشتركة لتلافى تفاقم النزاع الاسرائيلى العربى .

وكانت هذه الرســـالة ، تشــكل احدى محــاولتين عاجلتين افترضتهما وزارة الخـــارجية الأمريكية : فاذا تبين أن رد موسكو

ليس وافيا ، فان الولايات المتحدة ستتجه الى بريطانيا وفرنسا للاتفاق على سياسة مشتركة تقوم على أساس التصريح الثلاثى الصادر فى عام ١٩٥٠ ، والذى تعهدت بموجبه الدول الثلاث الكبرى بضمان احترام الوضع القائم فى المنطقة .

وفى هذا الصباح .. ترددت انذارات الخطر فى وقت واحد فى نقط متعــددة فى العالم . فى لندن .. أعلن جورج براون وزير الخارجية أنه أجل سفره الى موسكو . وفى نيويورك .. أعلن أوثانت انه سيطير الى مصر لمقابلة عبد الناصر . وفى غزة .. خرجت الجماهير تصيح « الموت لليهود » . وفى اسرائيل .. أعلنت التعبئة العامة .

***

وعنــدما اجتمعت هيئــة أركان الحرب الاسرائيليــة فى ذلك اليوم ، كان عبد الناصر قد حطم الأسس التى عاشت عليها الفكرة العسكرية الاسرائيلية منذ سنوات عديدة . فالقوة الرادعة للجيش اليهودى لم تمنع عبد الناصر من ممارسة أعمال استفزازية صارخة .. والنظرية القائلة بأن اسرائيل لن تتعرض للخطر طالمــا ظلت حرب اليمن قائمة .. انهارت فى ليلة واحدة . وكان من المعترف به ، أن عبد الناصر ــ الذى لا يزال ضعيفا ــ لن يدخل فى حرب ضد اسرائيل ، على الأقل حتى سنة ١٩٧٠ . ولكن هذا الافتراض أصبح هو أيضا موضــع جدل . لقد اثبت انســحاب جنود الأمم المتحدة أن مصر مستعدة لمواجهة اختبار القوة .

وعند الظهر ، جمع انكولونيل « موشى كاشتى » المدير العام لوزارة الدفاع رؤساء مختلف الادارات ، وقال لهم : اننا منذ هذه اللحظة فى حالة طوارىء . ومن الآن فصاعدا ستعمل جميع الادارات الى الساعة الخامسة حتى أيام السبت والأعياد . وجميع شحنات الأسلحة التى تنتجها مصانعنا الحربية والموجهة لعمــلاء أجانب سوف توقف . وبالعكس ، فاننا سنبذل قصارى جهدنا لشراء كل مانستطيعه من العالم كله .ولأسباب تتعلق بالأمن .. فان المحادثات التليفونية مع بعثات المشتريات الاسرائيلية فى الخارج ستتوقف.

ولن تتم الاتصالات الا بالبرقيات على مدى الاربع والعشرين ساعة فى اليوم » .

***

وفى واشنطن ، قال « يوجين روستو » للسفير الاسرائيلى : « اننا ننصحكم بألا ترددوا باستخدام القوة ضد مصر ، الا اذا أغلقت مصر المضايق . وحتى فى هذه الحالة .. لا تقوموا باجراء من جانب واحد . ان اتفاقية حرية الملاحة هى أقوى الاتفاقيات التى وقعت بين الولايات المتحدة واسرائيل ، وأكثرها صراحة وتحديدا فيما يتعلق بالتزامات الحكومة الأمريكية . لقد طلب منا « اشكول » فى خطابه أن نعيد مرة أخرى اعلان تعهداتنا نحوكم . ونحن ندرس مثل هذا الاحتمال ، ولكننا نفضل الآن أن نتصرف فى نطاق الأمم المتحدة . ولكيلا تتجاوزنا الأحداث فانه ينبغى علينا الا نقوم بأى عمل من جانب واحد » .

***

وفى تل أبيب ، أخذ وزير الخارجية ومكتب رئيس الوزراء يلقيان المسئولية بعضهما على بعض. لماذا لم يقدم طلب لعقد مجلس الأمن فى اللحظة التى وافق فيها أوثانت على سحب جنود الأمم المتحدة ؟ لماذا لم تعرف أجهزة المخابرات الاسرائيلية — فى الوقت المناسب — نوايا عبد الناصر ؟ ان «جاليلى» وزير الأعلام الاسرائيلى كان يخشى أن يقوم الطيران المصرى بهجوم خاطف على المطارات التى يستخدمها الطيران الاسرائيلى . وكان الوزراء المدنيون يخشون أن يعد السوفييت هجوما ضد مراكز الغرب فى المنطقة . أما « ليفى اشكول » رئيس الوزراء ووزير الدفاع فكان يسيطر عليه التردد .

***

وفى مطار القاهرة الدولى ، هبط فى اليوم نفسه (٢١ مايو) ريتشارد نولت السفير الجديد للولايات المتحدة فى مصر . وعندما

سأله الصحفيون فى المطار عن أزمة الشرق الأوسط ، فتح عينيه مندهشا وأجاب متسائلا : أية أزمة ؟ !

وفى اليوم التالى .. استقل أوثانت الطائرة متجها الى القاهرة ، وقبل أن يفعل ذلك ، اجتمع به « جولد برج » الممثل الأمريكى فى الأمم المتحدة وابلغه ، « أن دين راسك وزير الخارجية يطلب منك ابلاغ عبد الناصر أن الولايات المتحدة ملتزمة تجاه اسرائيل بتعهدات اتخذها وصدق عليها أربعة رؤساء أمريكيين » .

وقبل أن يصل « أوثانت » الى القاهرة كان عبد الناصر قد أعلن القرار المنتظر .. اغلاق المضايق . وفى الخطاب نفسه قال الرئيس المصرى « أن اليهود يهددوننا بالحرب ونحن نقول لهم : أهلا وسهلا .. اننا مستعدون » .

وفى واشنطون ، كان « لوشيوس باتل » وكيل الخارجية الأمريكية هو أيضا الذى أبلغ النبأ للسفير الاسرائيلى . وبعدها ذهب السفير الى نيويورك ، وهناك قال له جولد برج « لقد حدثنى الرئيس (جونسون) بالتليفون لكى يطلب منى أن أراك . وقد أعرب عن أمله فى أن تتحاشى اسرائيل القيام بأى عمل مضاد . والا ترسل أية سفينة لتمر فى المضايق » .

وفى الوقت نفسه .. أعد خبراء وزارة الخارجية الأمريكية رسالة عاجلة أبلغت على الفور الى الحكومة السوفيتية وقد جاء فيها : « ان حكومة الولايات المتحدة تعتبر أن أى اعتداء على حرية الملاحة فى المضايق ، سواء كانت السفينة تحمل علما اسرائيليا أو غير اسرائيلى ، بمثابة عدوان يكون من حق اسرائيل — فى رأى الولايات المتحدة — أن تدافع عن نفسها ضده » .

وأرسلت الى القاهرة برقية (عاجلة وشخصية) لتسليمها الى أوثانت شخصيا ، وكانت موقعة بامضاء ليندون جونسون ، وقد جاء فيها « أرجوكم ابلاغ رئيس الجمهورية العربية المتحدة .. ان أى عائق يعرقل الملاحة ، بما فى ذلك السفن الاسرائيلية فى

المضايق .. ستترتب عليه ردود فعل من جانب الحكومة الأمريكية » .

وفى تل أبيب ، قال أبا ايبان وزير الخارجية لزملائه : « يجب ان نحذر الوقوع مرة أخرى فى الخطأ الذى ارتكبناه فى سنة ١٩٥٦ . اذ يجب الا نعرض أنفسنا لما حدث أثناء حملة سيناء عندما اقترعت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ضدنا . وقد احتج ايزنهاور حينئذ بمرارة لان أمريكا لم تبلغ بمشروعاتنا . ويجب أن نتحاشى تكرار حدوث ذلك . أن المسئولين عن الدفاع يؤكدون أن لدينا الوقت لاستنفاد كل الامكانيات الدبلوماسية . وفى هذه الحالة .. فانه يحسن توجيه معظم جهودنا الى الولايات المتحدة » .

وسأله أحد الحاضرين : وماذا سنطلب منها ؟

ورد ايبان : أن تقوم سفنها الحربية بحراسة بواخرنا عبر المضايق .

ولم يصدق أحد مثل هذا الاحتمال . وأصرت « جولدا مائير » على ضرورة استطلاع رأى الجنرال ديجول . واعترض البعض بشدة على القيام بأية مساع لدى ديجول وقالوا : اننا اذا اتجهنا اليه فسوف نفتح بذلك الأبواب أمام كل الضغوط » .

وتكلم « موشى دايان » فقال : « اذا كانت الولايات المتحدة قد طلبت مهلة قدرها ثمان وأربعون ساعة ، فانه من الممكن منحها لها . وأنا أقول ٤٨ وليس ٤٩ . واذا قامت بفتح المضايق فان هذا سيكون أفضل . وفيما يتعلق بى فانى أعتقد انها سوف لا تفعل ذلك نيابة عنا . فاذا انتهت هذه المهلة فانه يجب علينا شن الحرب ضد مصر والدخول معها فى معركة تدمر فيها مئات الدبابات والطائرات . اننا لا نملك سوى قليل من الوقت . ولهذا فانه يجب علينا أن نحاول تحقيق النصر خلال يومين أو ثلاثة » .

***

وفى واشنطن .. لم يكن هناك اتفاق تام بين البيت الأبيض ووزارة الخارجية بشأن السياسة التى يجب اتباعها خلال الأزمة . فوزارة الخارجية الأمريكية كانت تذيع كثيرا من البيانات التى تنطوى على اتجاهات حيادية ، بينما كان البيت الأبيض يبدى قلقه من مبادرات عبد الناصر . وكانت وزارة الخارجية تصدر تعليمات الى سفرائها فى العواصم العربية بعدم قطع الصلات والعمل على تهدئه العرب وتخفيف حدة التوتر السائدة ، بينما كان البيت الأبيض يرسل لهم تعليمات أشد عنفا . وكان السفير الأمريكى يضرب اخماسا فى أسداس لكى يقرر بنفسه الخط الذى ينبغى عليه أن يتبعه . ولكن ، بمجرد تفاقم الموقف .. فان أمريكا سحبت من وزارة الخارجية سلطة البت فى الأمور واحتفظت بها للبيت الأبيض .

وبدأ « جونسون » يواجه ضغطا شديدا من جانب المتعاطفين مع اسرائيل فى نقابات العمال ومجلس الشيوخ ورجال الصناعة ورجال السياسة ، الذين طالبوا باذاعة بيان عن أزمة الشرق الأوسط . وكانت وزارة الخارجية قد رفضت بالأمس اذاعة مثل هذا البيان . وفى غضون ذلك قرر جونسون وحده انه سيذيع بيانا .

وفعلا ، أعد « يوجين روستو » البيان ، ووافق عليه جونسون ، وتقرر اذاعته .. لولا مكالمة تليفونية عاجلة من مستر « أ » .

كان مستر « أ » . — وهو احد كبار ذوى النفوذ من أصدقاء اسرائيل — متوجها لمقابلة « هيوبرت همفرى » الذى قرر جونسون ايفاده الى القاهرة . وقد ابلغ وهو فى الطريق ، أن البيت الأبيض يبحث عنه لاطلاعه على نص البيان . وقد تلاه عليه والت روستو أخلص مستشارى الرئيس جونسون (وهو فى الوقت نفسه شقيق يوجين روستو) . ودهش مستر « أ » عندما لاحظ أن البيان لم يشر مطلقا الى مسألة اغلاق المضايق ولا الى موقف الولايات المتحدة فيما يتعلق بحرية الملاحة . ثم جاءت هذه العبارة الضخمة فى البيان « لم يرتكب حتى الآن اى عمل عدوانى » .

وصاح مستر « أ » متعجبا : واغلاق المضايق ؟ الا يعتبر هذا عملا عدوانيا .. ان مثل هذا البيان ليس غير مفيد فقط ، بل انه ضار أيضا . ان الولايات المتحدة ترفض اتخاذ موقف حول النقطة الجوهرية ، وأن عدم اصدار بيان على الاطلاق أفضل من اصدار مثل هذا النص .

وعلم الرئيس جونسون بعد قليل بما جرى . وفى هذه المرة جاء دوره لكى يغضب هو ايضا . فقد قال : (اذا كان مستر « أ » يقول انه من الأفضل عدم اصدار بيان كلية .. اذن قولوا له اننى لن اصدر أى بيان) .

ولكن جونسون غير رايه بسرعة . فقد بلغ ضغط الرأى العام على البيت الأبيض ابعادا لا يمكن تصورها ، وأذاع سبعة وثمانون من أعضاء مجلس النواب بيانا تضمن بصفة خاصة العبارات التالية: « اننا نوافق تماما على التدبيرات التى ترى الحكومة اتخاذها لابلاغ الذين يريدون تدمير اسرائيل عزمنا الصادق على القيام بأى عمل ضرورى لوقف العدوان ضد اسرائيل وانقاذ السلام » .

ونشب صراع محموم بين مختلف نصوص البيانات التى كان من المقرر أن يوافق جونسون على احدها . وقد استبعد نص البيان المنطوى على الحذر أكثر مما ينبغى ، والذى أعدته وزارة الخارجية .. وتم اختيار النص الذى صاغه « والت روستو » مساعد الرئيس . وفى الساعة السادسة والنصف من مساء اليوم (٢٢ مايو) ظهرت صورة ليندون جونسون على شاشات التليفزيون الأمريكى ، وأذيعت هذه الكلمات :

« ان الولايات المتحدة تعتبر خليج العقبة ممرا دوليا ، وترى ان اغلاقه فى وجه الملاحة الاسرائيلية عمل غير مشروع ، ويشكل خطرا محتملا تجاه السلام . ان حق المرور الحر بدون أى عائق فى هذا الممر المائى الدولى له أهميته الحيوية بالنسبة لجميع الدول » .

وفى اليوم نفسه .. وصلت واشنطن رسالة عاجلة من «أباايبان» وزير الخارجية الاسرائيلية لابلاغ السفارة الاسرائيلية فى واشنطن

انه قرر التوجه الى الولايات المتحدة لاجراء محادثات مع المسئولين الأمريكيين . وقبل أن يبدأ « ايبان » الرحلة ، وصلت برقية من « والتر ايتان » السفير الاسرائيلى فى باريس جاء فيها « عندى فرصة لأن يستقبلنى ديجول غدا . ولكن اذا استطاع ايبان الحضور فان الفرصة ستكون أقوى » .

وتقرر أن يهبط « ايبان » فى باريس ولندن ، أثناء توجهه بالطائرة الى واشنطن .

***

فى الساعة السابعة صباحا (يوم ٢٤ مايو ١٩٦٧) هبطت فى « مطار أورلى » بباريس طائرة البوينج التابعة لشركة « العال » الاسرائيلية ، ونزل منها « ابا ايبان » وفى المطار قال السفير الاسرائيلى لايبان ، ان الاجتماع مع الرئيس ديجول سيتم على الفور عقب الجلسة الأسبوعية لمجلس الوزراء الفرنسى ، وهكذا فان ايبان اعتكف حوالى الظهر فى فندق هيلتون بمطار أورلى استعدادا للمرافعة عن قضيته أمام ديجول . وحوالى الساعة العاشرة اتصلت به السفارة الاسرائيلية فى لندن وأبلغته أن « هارولد ويلسون » رئيس الحكومة البريطانية مستعد لاستقباله فى الساعة الخامسة بعد الظهر . وعكف ايبان على أوراقه وأمضى ساعتين يدون النقاط التى رأى أنه ينبغى أن يقولها لديجول . وقد قال فيما بعد : « لقد أردت أن أتحدث بنغمة ديجولية بعض الشىء للتذكير ببعض التعهدات التى قطعتها فرنسا على نفسها ، ولكى أوضح أن الساعة الراهنة حاسمة . وقد صقلت بصفة خاصة عبارتين : ليس لدينا خيار الا بين الخضوع والمقاومة .. ونحن مصممون على المقاومة وقد استقر الرأى على ذلك . وسوف نخصص بضعة أيام للاستطلاع ، لكى نعرف ما اذا كنا وحدنا أو اذا كان هؤلاء الذين ارتبطوا بهذه المسألة يأخذون تعهداتهم تجاهها مأخذ الجد » .

واخذت الحكومة الفرنسية تدرس الموقف فى الشرق الأوسط . وقدم « كوف دى مورفيل » وزير الخارجية فى اجتماع مجلس الوزراء تفاصيل حقيقية تتعلق بالملاحة فى المضايق ، وكان يعرف بالضبط

عدد البواخر التى تستخدم خليج العقبة ، وكان عددها قليلا جدا .
والنتيجة التى انتهى اليها وزير الخارجية الفرنسية ، ووافق عليها ديجول ، هى أن اغلاق المضايق لا ينطوى على اعتداء خطير على اسرائيل ، وان هذا العمل لا يبرر اذن القيام بأعمال حربيه . أما فيما يتعلق بحق اسرائيل فى مرور سفنها فى المضايق ، فان هذه مسألة قانونية معقدة ، وهى احدى المسائل العديدة المتعلقة بالنزاع الاسرائيلى العربى .

وكان « ديجول » يخشى أن تؤدى المواجهة العسكرية فى الشرق الأوسط الى تدخل الدول الكبرى ، مما قد يؤدى الى حرب عالمية . واقترح وسيلة لحل الأزمة ، هى عقد اجتماع بين الدول الأربع الكبرى التى تستطيع هى وحدها أن تفرض حلها على الأطراف المتنازعة .

وفى الساعة الثانية عشرة والنصف ، انفض اجتماع مجلس الوزراء الفرنسى ، ودخل « ايبان » وزير الخارجية الاسرائيلى ليجد أمامه الرئيس ديجول ، وكوف دى مورفيل وزير الخارجية الفرنسى. كان الرئيس ديجول متوتر الأعصاب جدا ، بل وكان يبدو قلقا ايضا . وتذكر ايبان ما سبق أن قيل له : « فى اللحظة التى سنجلس فيها سيقول لك ديجول : يا سيدى الوزير ، اننى أصغى اليك .. » .

ولكن ديجول تصرف فى هذه المرة بشكل آخر . لقد مد ذراعه نحو ايبان وقال بشدة : « لاتشنوا الحرب . لاتشنوا الحرب . ولا تكونوا بأى حال البادئين بالقتال » .

ورد ايبان قائلا : « اننا لن نكون على اى حال البادئين بالحرب . ولقد ارتكب المصريون فعلا عملا عدائيا » .

وبدا واضحا أن الملاحظة لم تعجب ديجول ، فقد قال : « فى نظرى أن ذلك الذى يطلق الرصاصة الأولى .. هو البادىء بالقتال » .

هكذا — فى عبارات قليلة وجيزة — حدد ديجول الفرق الذى يراه بين العدوان فى مدلوله القانونى ، وأول رصاصة .

واستأنف ايبان حديثه قائلا : « ان هذه هى أخطر لحظة فى وجودنا منذ عشر سنوات . ومن الطبيعى أن نأتى ، زملائى وأنا ، فى هذه الساعة الحاسمة .. لنطلب المشورة من الصديق العظيم الذى هو أنتم » .

واستطرد ايبان قائلا : « ان الأزمة الحالية ترجع الى ثلاثة أسباب : حرب العصابات التى يقوم بها السوريون ، واحتشاد القوات المصرية فى صحراء سيناء ، واغلاق المضايق . وهذه الأسباب الثلاثة تندمج سويا لتشكل عملية لا مناص منها : فالمصريون سيمسكون بخناقنا ، والسوريون سيضربوننا فى ظهورنا .. وعندئذ سوف يستعد المصريون لكى يوجهوا لنا ضربة فى وسط صدرنا . وقد أتيت لكى أقول لكم اننا مصممون على ألا نعيش أكثر من ذلك على هذه الحال . أما فيما يتعلق باغلاق المضايق .. فان هذا يعنى بالنسبة لمن قرر ذلك أنه اختار الحرب ، لأنه سبق أن أوضحنا موقفنا فى هذا الصدد . ولقد أقمنا منذ سنوات عديدة علاقات مع آسيا وافريقيا ، واضفنا بعدا جديدا الى خريطة العلاقات الدولية . ونحن لم نعد دولة تتجه الى الغرب وحده ، وبدأنا نقدم المساعدات الى العالم الثالث . اننا لا نستطيع قبول الموقف الراهن » .

وبادر ديجول الى مقاطعة ايبان وهو فى حالة عصبية : «ارجوك .. أريد التحديد . فى هذه الحالة ماذا سوف تفعلون ؟ »

وهنا نطق ايبان بالعبارة الجوهرية التى أعدها : « حيث أنه ليس أمامنا سوى الخيار بين الخضوع والمقاومة ، فقد قررنا أن نقاوم . ولن يكون هناك استسلام . ولكننا قررنا أن ننتظر أياما عديدة لكى نستطلع رأى هؤلاء الذين التزموا بتعهدات فى هذا الصدد . وفى غضون ذلك فاننا لن نقوم بأى اجراء ، ولا ننوى القيام بأى رد فعل أو اختبار لا اليوم ولا غداً ولا بعد غد » .

ولاحظ ايبان أن « كوف دى مورفيل » تنفس الصعداء عندما استمع الى هذه الكلمات . ويبدو أن الوزير كان يخشى ان تنشب الحرب بين دقيقة وأخرى . ولم يلحظ «ايبان» أن «كوف دى مورفيل» قد أخطأ فى تفسير أقواله ، مثله فى ذلك مثل « ديجــول » وهى الأقوال التى فهماها على أنها وعد بأن اسرائيل لا تفكر فى القيـــام بعمل عسكرى . ولم يستخلص الرجلان من كلمة « مقاومة » التى استخدمها ايبان بأن اسرائيل تنوى القتال .

ولم يهدأ ديجول ، فاستطرد يقول : « ان الموقف صـــعب . ان هذا لا يمكن أن يســـتمر ، وينبغى أن تحتفظ اسرائيل بهدوء أعصابها . ان الدول الأربع الكبرى يجب أن تتشاور . لا تبحثوا عن حلول من جانب الغرب . يجب على الدول الأربع الكبرى أن تتداول فى الأمر ، وسأتكفل أنا بذلك . ونحن نســـتطيع الاتفاق سويا على حل يسمح بمرور السفن » .

ورد ايبان قائلا : « اننى متشائم جدا بشأن كل ما يتعـــلق بالاتحاد السوفيتى . ولو انه تصرف بطريقة أخرى لما أصبحنا فى هذا الموقف . أن روسيا لم توافق مطلقا على رأينا بشـــأن حرية المرور فى المضـــايق » .

وقال ديجول وهو متشبث بعناده : « نعم ، ولكن السوفيت ايضا لم يأخذوا الجانب المعـــارض . لابد من بعض الوقت ، ومن الصبر . وفى غضون ذلك .. فانه ينبغى عليكم ألا تقوموا بالعمل الذى يريد المصريون أن تفعلوه : وهو أن تـــكونوا البـــادئين بالقتـــال » .

وعاد ديجول الى الحديث عن مسألة « الغرب » ، فقال : « لم يعد يوجد اليوم شىء اسمه حلول غربية . فطالما ظلت اسرائيل مغرقة فى اتجاهها نحو الغرب فيما يتعلق بمقاصدها وحلولها ، فانها سوف تبتعد عن الهدف . يجب أن يشترك الاتحاد السوفيتى فى حل النزاع » .

وهنا أضاف « ديجول » عبارة بدت ثقيلة المغــزى : « ان مركزكم لم يصبح بعد متينا بما فيه الكفاية ، بحيث تستطيعون حل جميع مشكلاتكم بأنفسكم » .

وقال ايبان لديجول : « لقد تعهد عدد كبير من الدول بتأييد حقوقنا والوقوف الى جانبنا اذا أعيد اغلاق المضايق . ولقــد كان أقوى وأوضح بيان فى هذا الصدد ما قدمه ممثل فرنسا فى الأمم المتحدة فى عام ١٩٥٧ » .

ورد ديجول : نعم . ولكن هذا كان فى سنة ١٩٥٧ . ونحن نعيش الآن فى سنة ١٩٦٧ .

وهكذا الغى ديجول فى عبارة واحدة كل تعهدات فرنسا .

وعندما أحس « ايبان » أنه لم يبق لديه شيء يقوله ، قرر أن يختم حديثه بعبارة تنطوى على المجاملة ، فقال : « اننا نود ونحن نواجه المحنة ، أن نشكر فرنســا على كل ما فعلته وعلى ماتزال تفعله من أجل تشــجيعنا وتقوية روحنا المعنــوية ودعم قوتنــا العســكرية » .

***

وقد ارتكب أبا ايبان — دون أن يدرى — غلطة كبرى . فقد لفت أنظار المسئولين الفرنسيين الى المساعدة العسكرية المتزايدة التى تقدم لاسرائيل ، ممــا جعلهم يتصرفون بعد ذلك بطريقــة لا تستوجب الشكر لهم .

ورد ديجول قائلا : « ان كل ما فعلناه فى هذا المجال ، انمــا فعلناه بدافع الصداقة .. ولكن هذه الصداقة ذاتها تدفعنى الآن لكى أقول لكم ما قلته الآن » .

وفسر ايبان هذا الكلام على أنه تحذير مستتر ، فقال : « انكم لا تستطيعون أن تختاروا فقط من بين الصداقة تلك التى تلائمكم» .

***

وعندما انتهت المقابلة ، كان الحديث يعنى فى نظر « ديجول » شيئا واحدا . فقد قال لايبان : « لا تشنوا الحرب » . وأكد ايبان أن اسرائيل قررت الانتظار ، وهو لم يقل « سوف نحارب » ، وانما قال « سوف نقاوم » .

ولم يدر فى خلد « ديجول » أن الاسرائيليين سوف يشنون الحرب بعد التحذير الصريح الذى وجهه اليهم .

وعقب هذا الحديث أرسلت باريس برقيتين ، احداهما الى « كوسيجين » والأخرى الى « عبد الناصر » وأكد فيهما « ديجول » أن اسرائيل لن تعلن الحرب .

وتلا وزير الاعلام الفرنسى على الصحفيين البيان الرسمى : قررت الحكومة الفرنسية أن تقترح عقد اجتماع للدول الأربع الكبرى .

وتحدث « موريس كوف دى مورفيل » تليفونيا مع وزير القوات المسلحة وطلب منه الكف عن ارسال مهمات عسكرية الى اسرائيل بدون موافقة وزارة الخارجية . وذلك فى نطاق اللجنة الوزارية الخاصة بصادرات الأسلحة . وفى الوقت نفسه تحدث كبار المسئولين بوزارة الخارجية تليفونيا مع عدد من القواعد العسكرية وأمروها بأن توقف على الفور ارسال شحنات الأسلحة الى اسرائيل ، التى لم توافق عليها اللجنة بعد .

لقد كان موقف فرنسا واضحا .

وبعد قليل سيتضح موقف الدول الأخرى .

— ٢ —

كانت الأمطار الغزيرة تهطل على لندن عندما وصلت سيارة السفير الاسرائيلى وهى تقل « أبا ايبان » وزير الخارجية الى ١٠ داوينج ستريت ، وقاد « هارولد ويلسون » رئيس الوزراء البريطانى زائريه الى حجرته حيث بدأت المباحثات .

قال ويلسون لايبان : ها هو ديجول قد اقترح عقد مؤتمر للدول الأربع الكبرى ، ولست أعتقد أن الفكرة سوف تتاح لها فرص النجاح ، ولكننا سنرى . وأعتقد أن السوفييت سيرفضون الفكرة فى النهاية . ولكننا نحن .. لماذا نرفض ؟

واستطرد ويلسون قائلا : أما فيما يتعلق بالملاحة فى المضايق .. فان الحكومة البريطانية لديها احساس — وقد أعلنت ذلك — بأن عبد الناصر لن يخرج من هذا المأزق بسهولة . وقد أرسلت « طومسون » الى واشنطن لتنسيق جهودنا مع جهود الأمريكيين . فاذا قابلته هناك فكن على اتصال به . اننا سنناقش مع الأمريكيين التفاصيل الايجابية .

ان من بين رؤساء الحكومات الذين اجتمع بهم ايبان خلال رحلته ، فان ويلسون كان الوحيد الذى لم يحاول تهدئته أو صرف نظره عن الحرب .

أما فى موسكو .. فقد قال المسئولون السوفيت لـ « جورج براون » وزير الخارجية البريطانى .. **انهم لا يوافقون على أن يغلق عبد الناصر المضايق** . وفى الوقت نفسه صرحوا بأنهم **لا يريدون الحرب** ، وأعربوا عن أملهم فى أن تحل الأزمة حلا سلميا .

وفى تل أبيب .. اجتمعت هيئة أركان الحرب الاسرائيلية بعد الظهر ، بحضور رئيس الحكومة ووزير الدفاع . وعرض رئيس

العمليات على « أشكول » الخطة الحربية التى تستهدف القيام بهجوم تخترق فيه القوات الاسرائيلية المحور الشمالى لسيناء فى اتجاه العريش ثم تتجه بعد ذلك الى قناة السويس .

وفى **واشنطن** .. قابل أحد المسئولين عن المخابرات الألمانية ، زميلا له من رؤساء وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وقال له : ان معلوماتنا تفيد أن اسرائيل ستهاجم سوريا .

ورد عليه الأمريكى قائلا : انكم لا تعرفون أسرار مهنتكم ، ان اسرائيل تستعد للهجوم فى الجنوب فى اتجاه مصر .

وفى المساء نفسه ، بعثت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بتقرير الى الرئيس « جونسون » جاء فيه : ان تقديراتنا تشير الى أن اسرائيل ستهاجم مصر يوم ٢٦ مايو وذلك طبقا لما أكده الخبراء .

وفى وزارة الخارجية الأمريكية ، اجتمع الوزير البريطانى « طومسون » والأميرال « هندرسون » مع « دين راسك ويوجين روستو » ومساعديهما . وقد استعرضوا الخطة البريطانية بشأن فتح المضايق . وهذه الخطة كانت تتألف من ثلاث مراحل . **المرحلة الأولى** هى القيام بمحاولة لحمل مجلس الأمن على اصدار قرار يطالب مصر بفتح المضايق وضمان حرية الملاحة . **والمرحلة الثانية** ترمى — فى حالة فشل مجلس الأمن — الى تكوين جماعة من عدة دول بحرية تتولى توجيه تحذير ، وتعلن فيه أن مضايق تيران تشكل ممرا مائيا دوليا ، وأن هذه الدول تعتزم استخدامه . **والمرحلة الثالثة** تتضمن — اذا استمرت مصر فى اغلاق المضايق — ارسال أسطول يشمل سفنا من جميع هذه الدول ، لفك الحصار بالقوة عن المضايق تحت حماية بعض الوحدات البحرية .

ووافقت وزارة الخارجية الأمريكية ، والبيت الأبيض ، على هذا المشروع . وكانت الولايات المتحدة قد رفضت القيام بأى عمل من طرف واحد . غير أن الاقتراح البريطانى ، الذى ينطوى على عدم ترك أمريكا وحدها ، سوف يحظى بالتأكيد على موافقة الرأى العام والكونجرس . وعلى الفور أبلغت الخطوط العامة للمشروع

الى وزارة الدفاع الأمريكية والى رؤساء البحرية والى « ماكنمارا » وزير الدفاع ، لاستطلاع آرائهم .. وطلب من ادارة الجيش وضع خطط العمليات المناسبة .

وفى البيت الابيض كان روستو مهموما ، وقد وعد السفير الاسرائيلى بأن الولايات المتحدة سوف تدعو الى عقد اجتماع غير رسمى لمجلس الأمن .

وعندما قال له ممثل اسرائيل : اننا لا نرى فائدة فى عقد اجتماع لمجلس الأمن . وماذا سوف تفعلون اذا لم يضمن المجلس حرية الملاحة ؟

ــ سوف نعمل فى نطاق الأمم المتحدة او مستقلين عنها . لقد اتخذت الأحداث اتجاها جديدا فى غاية الخطورة . وينبغى عليكم أن تمتنعوا عن القيام بأى استفزاز ، وأؤمل ــ فى الوقت الحالى ــ الا ترسلوا سفينة الى المضيق .

وكان معنى هذا الحديث .. أن الامريكيين لا يعرفون ماذا يمكن أن يفعلوا ولم تكن هناك أوهام فيما يتعلق بالثمانى والأربعين ساعة التى طلبوها . فهذه الفترة من الانتظار لم يكن الغرض منها التأهب لتنفيذ خطة ايجابية قد يخرجها « العم سام » من جعبته ، فالأمريكيون لم يكونوا يريدون سوى كسب الوقت فقط .

واثار تصريح جونسون ، الذى ندد فيه باغلاق المضايق ، ردود فعل مختلفة فى الكونجرس الأمريكى . وقد استقبل استقبالا حارا فى مجلس النواب . ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة لمجلس الشيوخ . ففى هذا الصباح عقدت لجنة الشئون الخارجية اجتماعا مغلقا، وأعلن معظم الشيوخ معارضتهم بوضوح لأية مبادرة تقوم بها الولايات المتحدة من جانبها وحدها . لقد كانوا ــ مثل غيرهم من المسئولين الأمريكيين ــ يخيم عليهم شبح الحرب الفيتنامية .. ولهذا كانوا يعترضون على اى عمل قد يؤدى الى جر الولايات المتحدة الى خوض حرب أخرى . ومن هذه اللحظة أصبح مفهوما أن أمريكا لن تعمل من أجل فتح المضايق الا اذا عبأت

حولها مساعدة من جانب عدة دول . وسمح البيت الأبيض بأن تتسرب دلائل فى هذا المعنى الى التليفزيون والصحافة . وقال أحد المعقبين — وهو « أريك سيفاريد » : يبدو أن الرئيس جونسون لم يقرر بعد ما اذا كانت الولايات المتحدة سوف تقوم بعمل عسكرى فى حالة نشوب القتال فى المنطقة . فاذا نشبت الحرب واصبح وجود اسرائيل فى خطر — فان العناصر الموالية لاسرائيل فى هذه البلاد سوف تمارس ضغطا قويا جدا من أجل التدخل . ولكن حدوث تدخل أمريكى بدون اشتراك حلفائنا الرئيسيين — كما هى الحال فى الشرق الأقصى — سوف يؤدى بالتأكيد الى نسف مركز الكونجرس الأمريكى .

وفى القاهرة .. جمع عبد الناصر مستشاريه العسكريين والسياسيين لدراسة الموقف الناشىء عن اغلاق المضايق . وكان الرأى يتلخص فى أنه ، للمرة الأولى منذ حرب السويس ، اتخذت مصر عنصر المبادأة وأن اغلاق المضايق سيكون له أثر فادح على اسرائيل ، وأن الحشود العسكرية على الحدود سيجمد احتياطيها ويخلق المصاعب أمام اقتصادها ، مما يؤدى الى اختناقها بسرعة . ولأول مرة سوف تشعر اسرائيل بأن وجودها يهدده خطر حقيقى .

وقد أعلن « الملك حسين » فى هذا الوقت بالذات ، فى خطاب اذيع بالراديو ، أنه سمح للقوات السعودية والعراقية بدخول بلاده ، وهو شىء لم يكن يجرؤ على عمله من قبل .. لأن اسرائيل سبق ان اعلنت مرارا أنها تعتبر دخول جيش أجنبى فى الأردن بمثابة عمل عدائى . وأعلنت السعودية تأييد سياسة عبد الناصر . وقرر الرئيس المصرى أيضا أن يبعث من جديد القيادة العربية الموحدة . ووضعت الجزائر والعراق والكويت قوات تحت تصرف مصر . وفى قطاع غزة تسلم جيش الشقيرى أسلحة ثقيلة .

وفى هذا المساء .. استقبل عبد الناصر أوثانت وأقام له حفل عشاء . وكان السكرتير العام للامم المتحدة مكتئبا ، مقطب الوجه . وكان عبد الناصر قد جعله ينتظر أربعا وعشرين ساعة قبل أن يستقبله . كما نظمت أمام الفندق الذى نزل فيه مظاهرة «عفوية» ضده .

ولما اجتمع الرجلان اخيرا فى قاعة الطعام بمنزل عبد الناصر ، لاحظ أوثانت بسرعة ان الرئيس المصرى لا ينوى التراجع بوصة واحدة ، فقد قال : ان اغلاق المضايق يزيل الآثار الأخيرة للعدوان الثلاثى الذى وقع فى عام ١٩٥٦ .

وبعد أن قال عبد الناصر ذلك ، بدأ يتلطف ويتبسط فى حديثه ، ثم أكد بطريقة جادة أنه لا ينوى مهاجمة اسرائيل ، وهو بالتأكيد كان صادقا فى ذلك . وأعرب عن استعداده للقيام بخطوة تؤدى الى تخفيف حدة التوتر . فمثلا .. وافق ، عن طيب خاطر ، على أن توفد الأمم المتحدة مبعوثا لاجراء اتصالات بين الطرفين . وأعرب عن استعداده أيضا لاحياء لجنة الهدنة الاسرائيلية المصرية التى لم تقم لها قائمة منذ حرب السويس . بل انه قبل عقد اتفاق بشأن مسألة العقبة : فقد وافق على السماح بمرور السفن المتجهة الى اسرائيل بشرط الا تكون هذه السفن اسرائيلية والا تحمل مواد استراتيجية .

واقترح عبد الناصر أيضا ، باخلاص ، حلا يتعلق بقوات الأمم المتحدة : لماذا لا توضع فى الأراضى الاسرائيلية ؟

وسقط أوثانت فى الفخ . فهو لم يضع فى اعتباره أن كل « تنازلات » الرئيس المصرى ليست سوى تعبير ، بطريقة أخرى ، عن موقف مصر الرسمى . فقوات الأمم المتحدة لن تعود الى الأراضى المصرية ، والمنتجات الجوهرية — مثل البترول — الذى يعتبر السلعة الرئيسية التى تستوردها اسرائيل عن طريق المضايق لن تصل الى ميناء ايلات ، وسيكون وجود قوات الأمم المتحدة على الجانب الاسرائيلى من الحدود دليلا حيا على انتصار عبد الناصر .

وقرر أوثانت أن يختصر اقامته فى القاهرة بمقدار أربع وعشرين ساعة ، وبدأ يصوغ مقترحات لوضع حل للنزاع . وكان أهمها الوصول الى هدنة مدتها أسبوعان بشأن المضايق ، بحيث لا ترسل اسرائيل خلالهما أية سفن نحو ميناء ايلات ، وفى الوقت نفسه لا تمنع مصر مرور السفن غير الاسرائيلية فى المضايق .

وقد كان هذا بالضبط هو ما يريده عبد الناصر . اذ أن فترة الأسبوعين سوف تسمح له بكسب الوقت الضرورى لتعزيز موقف أصبح غير محتمل بالنسبة لاسرائيل .

***

انتهى خبراء وزارة الدفاع الأمريكية من دراسة انشاء القوة الدولية لفتح مضايق تيران ، وقد أجمع رؤساء البحرية الأمريكية على رفض المشروع بجملته ، وقالوا أن مجرد اقتحام المضايق بواسطة ارسال سفن حربية للمرور فيه لن ينطوى على أية فائدة . وعلى أى حال فانه لابد من مرور وقت طويل قبل أن يصبح فى الامكان انشاء قوة فى المنطقة يمكنها أن تتدخل على هذا النحو . وحتى لو أمكن تكوين هذه القوة ، فان القيام بعمل بحرى محدود النطاق لن يؤدى الى تحطيم الحصار ، اذ يجب احتلال مواقع استراتيجية برية ، ولتحقيق هذا الغرض ينبغى انزال عدد كبير من الجنود فى سيناء توقعا لحدوث قتال برى يمكن أن يتخذ ابعادا كبيرة .

وقد عارضت هيئة أركان الحرب الأمريكية بشدة فى القيام بعمل من هذا النوع ، وعلى هذا .. فقد صدرت اليها الأوامر بالاعداد لعملية عسكرية فى سيناء . وكان عدد قليل من القوات الأمريكية يرى أنه من الضرورى تحقيق هذا المشروع ، وذلك لأن التقديرات الأخيرة لوزارة الدفاع الأمريكية ، وهى تقديرات ترجع الى شهر يناير سنة ١٩٦٧ وتوجد فى ملف ادارة المخابرات ، كانت تشير الى أن القوات الاسرائيلية تستطيع التغلب على أعدائها . وكان جميع الخبراء متفقين فى هذا الصدد . بل أنهم كانوا يستطيعون التنبؤ بكيفية سير العمليات : هجوم اسرائيلى ، وزحف بالدبابات ، يصحبهما هجوم جوى .

وحوالى الظهر — يوم ٢٥ مايو — أبلغت هذه التقديرات الى البيت الأبيض .

***

وفى باريس ، فرض حظر على اســـاس الأمر الواقع ، ان لم يكن على اساس قانونى ، على جميع شـــحنات الأســـلحة الى اسرائيل . وأخيرا تم الوصول الى حل وسط بعد مساع عاجلة ، وهو أن تقوم فرنسا ــ كما كانت تفعل فيما مضى ــ بتزويد اسرائيل بكل ما وعدت به مندوبيها . وهكذا فشلت المحاولة الأولى لوقف شحنات الأسلحة المرسلة الى اسرائيل وقفا تاما .

وفى اسرائيل .. ســـأل بعض المسئولين فى وزارة الدفاع « ليفى أشكول » رئيس الوزراء : لقـــد ضقنا ذرعا بهذا التردد الطويل ، فمتى سنبدأ ؟

ورد أشـــكول قائلا : ينبغى أن نتأكد من أن عمـــل الجيش الاسرائيلى لن توقفه ضغوط أجنبية .

وفى سيناء .. اتخذت الفرقة المدرعة المصرية الرابعة ، التى تعتبر رأس الحربة فى جيش عبد الناصر ، مواقعها هذا الصباح فى ســـيناء .

وفى تل أبيب .. جاء مساعد « اشكول » اليه ومعه طائفة كبيرة من المعلومات المثيرة للقلق ، عن الاستعدادات العسكرية التى تقوم بها جميع الدول العربية على وجه السرعة .

وقال أشكول لمساعده : لقد أرسلنا « ايبان » لعرض مسألة المضايق أمام رؤساء الدول الأجنبية . والآن يبدو أن وجود اسرائيل ذاته أصبح فى خطر . ويجب صياغة برقية لايبان نطلب منه فيها أن يبرز بصفة خاصة فى محادثاته موضوع احتشاد القوات المصرية .

وبعد قليل .. أرسلت برقية مزعجة جدا الى « ايبان » لاحاطته علما بالخطورة المفاجئة والشديدة الأثر التى طرأت على الموقف العسكرى ، نتيجة رحلة وزير الحربيـــة المصرى الى موســـكو ، وتحركات القوات العراقية والســـورية والأردنية نحو الحـــدود الاسرائيلية ، ودخول قوات مصرية كبيرة الى سيناء .

وجاء فى هذه البرقية أنه « يجب أن يوضح للرئيس جونسون ان الخطر لم يعد يكمن فى احتشاد القوات ، بل فى احتمال وقوع هجوم عربى ضد اسرائيل . فهل يستطيع الرئيس جونسون أن ينصحنا بما ينبغى عمله فى هذه الحالة » ؟

وكانت هذه أول برقية . غير أنه بعد دقائق قليلة تبعتها برقية أخرى أشد اثارة للقلق .

ففى الساعة الثالثة والدقيقة الأربعين بعد الظهر ، وصل الى تل أبيب « جاكوب هرزوج » المدير العام لرئاسة مجلس الوزراء . وكان قد انتهى قبل ذلك بساعة فى مكتبه بالقدس من صياغة البرقية التى تقرر ارسالها الى « ايبان » والتى تحوى التعليمات الأخيرة بشأن الخطة التى ينبغى اتباعها أثناء محادثاته مع جونسون ، ولكن قبل أن يرسل البرقية اتصل تليفونيا من تل أبيب بمكتب وزير الدفاع ، وجاء الرد بأن « الموقف قد تغير من النقيض الى النقيض . احضر فورا » وعندما ذهب فورا وجد فى مكتب « أشكول » رئيس هيئة أركان الحرب بعض الشخصيات الأخرى . وكان جو الحرب يخيم على الغرفة .. وكان البعض يعتقدون أن مصر تستطيع — ابتداء من الغد الجمعة ٢٦ مايو — الهجوم على اسرائيل . وكان القلق يصل الى مرتبة الذعر .

لهذا بدأ احتمال جديد : التأكد ، عن طريق ارسال نداء مؤثر الى الولايات المتحدة ، من أنها ستأتى لنجدة اسرائيل فى حالة وقوع هجوم عليها فى المستقبل القريب ، وجلس « جاكوب هرزوج » لكى يحرر رسالة ثانية لأبا ايبان .

وبعكس الرسالة السابقة ، التى لم يكن لها سوى طابع اخبارى ، فان الرسالة الجديدة كانت تشبه صرخة رجل مشرف على الغرق . وقد أرسلت الى ايبان ، وجاء فيها بصفة خاصة : « عقب الأحداث التى جرت فى الأربع والعشرين ساعة الأخيرة ، فانه ينبغى أن تعلم أننا أصبحنا نخشى فى كل لحظة وقوع هجوم مصرى سورى مفاجىء . وينبغى على حكومة الولايات المتحدة أن تعلن فورا أن أى هجوم على اسرائيل يعادل الهجوم على الولايات المتحدة

ويجب عليها ايضا أن تصدر تعليمات بهذا المعنى الى قواتها المرابطة فى المنطقة . ويحسن ابلاغ هذه الرسالة الى أعلى مستوى ، الى الرئيس الأمريكى أو الى وزير الخارجية » .

وعندما تم ارسال البرقية الى « ايبان » فى واشنطن ، لم يكن أحد يشك فى أن ارسالها سيكون واحدا من أسوأ الأخطاء التى ارتكبتها الحكومة الاسرائيلية .

***

ذهب السفير الاسرائيلى الى نيويورك لاستقبال « أبا ايبان » وزير الخارجية ، وفى غضون ذلك .. وصلت الى السفارة الاسرائيلية احدى البرقيات المتسمة بالذعر التى أرسلت من اسرائيل . وبسبب حادث تكتيكى وصلت البرقية الثانية المرسلة من تل ابيب قبل البرقية الأولى .

وعندما تم ابلاغ السفير الاسرائيلى بالبرقية ، نقلها على الفور الى « ايبان » عقب وصوله ، وشحب وجه ايبان ، وقرر الاتصال على الفور بمكتب وزير الخارجية الأمريكى « دين راسك» ليطلب منه تقديم موعد المقابلة التى كان قد تحدد لها من قبل أن تتم فى الساعة السادسة مساء ، وقال له : « لقد حدث تطور خطير جدا خلال الساعات الأخيرة » .

ورد عليه راسك : « احضر فورا » .

وفى الساعة الرابعة والنصف مساء ، استقبل دين راسك ، ولوك ، وباتل ، ويوجين روستو ، ايبان .. وهارمان (السفير الاسرائيلى) .

وأطلع « ايبان » المسئولين الأمريكيين على نص البرقية التى وصلته ، وطلب أن تعلن الولايات المتحدة فورا أن أى هجوم ضد اسرائيل يعتبر بمثابة هجوم ضد الولايات المتحدة ذاتها .

واستمع اليه « دين راسك » بقلق صادق .. وقد ارتسم الانزعاج على وجهه ، ثم سأله قبل أن يسرع الى البيت الأبيض

لابلاغ الرئيس بالنبأ بمجرد عودته : « هل اطلعت البريطانيين والفرنسيين على نص هذه البرقية » ؟

وعندما هبط « جونسون » من الطائرة فى واشنطن ، قادما من زيارة لكندا ، أحاطه « راسك » علما بالأمر . وبادر جونسون على الفور الى اتخاذ التدابير الآتية : فحص صحة هذا النبأ بمقارنته مع المعلومات الموجودة لدى أجهزة المخابرات الأمريكية ، والقيـــام بمسعى على الفور لدى الاتحاد السوفيتى يطلب منه فيه تهدئة عبد الناصر ومنعه من القيام بأى عمل حربى ، وارسال خطاب للمصريين لحملهم على الامتناع عن أى عمل عسكرى تحاشــيا لعواقب تنطوى على أشد الأخطار .

وأرسلت على الفور برقية الى موسكو ، وقع عليها « جونسون » لتسليمها الى « كوسيجين » .

وفى المساء . . استدعى « مصطفى كمال » سفير مصر فى واشنطن الى وزارة الخارجية لمقابلة يوجين روستو ، وكان مصطفى كمال قد دعى بالأمس لمقابـــلة الرئيس جونسون الذى أمطره بوابل من التحذيرات ، وانتقد اغلاق المضايق . وكان مصطفى كمال يعرف أيضا أن أحدا لا ينظر اليه فى واشنطن على انه رجل مهم يستطيع التأثير على عبد الناصر .

وفى المقابلة التى استدعى لها ، قال « يوجين روستو » للسفير المصرى : « لقد طلب منى الرئيس جونسون تليفونيا أن أوجه تحذيرا لحكومتكم . ان بعض الشائعات تقول أن مصر ستقوم قريبا بشن هجوم ضد اسرائيل . فلتعلم ان حكومة الولايات المتحدة ســـوف تتصرف فى هذه الحالة طبقا لميثاق الأمم المتحدة ، وطبقا لضمانها لاستقلال وسلامة اسرائيل . وقد قال الرئيس بنص كلماته . اننا ضد أول طلقة نارية ، واننا سوف نحترم تعهداتنــــا ، وانه يجب اقرار الأوضاع القائمة فى المنطقة » .

واستطرد روستو فى حديثه قائلا : « ان وقوع هجـــوم من جانبكم ضد اسرائيل يعتبر بمثابة انتحار » .

واخذ مصطفى كمال المذكرة التى حررت على عجل . وفى الليلة نفسها وصلت الرسالتان الى موسكو والى القاهرة .

وقبل مرور لحظات أخرى ، ذهب « روستو » الى العشاء الذى كان معدا بينه وبين « ايبان » وقال له : ان دين راسك يطلب منك الحضور فورا الى مكتبه .

وأسرع ايبان ليقـــابل راســـك . وفى المقابلة قال له وزير الخارجية الأمريكية : « لقد راجعت أجهزة مخابراتنا معلوماتكم ، ولم نجد أى دليل يسمح بالاعتقاد بأن المصريين يستعدون للقيام بهجوم مفاجىء . ان القوات المصرية فى سيناء لم تتخـــذ شـــكل الهجوم ، ثم أن خبراءنا يعتقدون أن مصر لن تقوم بالهجوم قبل أن يقدم أوثانت تقريره ، عقب عودته من القـــاهرة ، الى مجلس الأمن » .

ورد عليه ايبان قائلا : « ان حكومتى ما كانت لترسل لى مثل هذه البرقيات العاجلة الا لأنها متأكدة من معلوماتها . واننى أطلب منك فحص هذا الموضوع من جديد » .

وأذعن راسك لهذا الطلب .

فى صباح ٢٦ مايو ، بحث ليندون جونسون مذكرة ثلاثيـــة سلمت اليه وأعدتهـــا ثلاث مجمـــوعات من الخبراء . كانت كل المعلومات التى تحويها المذكرة متطابقة وتتفق على نقطة أساسية : لا دليل على احتمال وقوع هجوم مصرى ضد اسرائيل فى الساعات أو الأيام القادمة . وقال أخصائيو وزارة الدفاع الأمريكية فى مذكرتهم « انه اذا .. نشبت الحرب فان اسرائيل ستحرز انتصارا حاسما فى خلال بضعة أيام » . وقدر القواد الأمريكيون أنه فى هذه الحالة فان المدرعات ستخترق طريقها بالقوة فى اتجاه السويس ، وسيصحب الاختراق هجوم جوى . وقد بنوا رأيهم على أساس الاستراتيجية الهجومية التى انتهجها الجيش الاسرائيلى منذ عدة سنوات .

ولم يكن جونسون يرغب فى مقابلة « ايبان » على الفور على الأقل . انه لم يكن يعرف ما ينبغى أن يقوله له . لقد طلب من

مساعديه أن يؤجلوا ، بل وأن يؤخروا – الى أقصى حد ممكن – اجتماعه مع ايبان .

وعندما اتصل « دين راسك » بالسفير الاسرائيلى ليسأله عما اذا كان ايبان سيظل موجودا حتى السبت .. فهم السفير من ذلك أنها محاولة مهذبة لتأخير اجتماع (جونسون) مع « ايبان » لمدة ٢٤ ساعة على الأقل .

وبعدها بقليل .. اتصل ايبان براسك ليقول له : « كلا ، لن أكون فى واشنطن غدا ، اذ ينبغى أن اغادرها فى هذه الليلة بالذات ، حيث أنه سيعقد فى اسرائيل اجتماع حاسم لمجلس الوزراء صباح يوم الأحد ، وربما يكون هذا أخطر اجتماع فى تاريخنا . أن كل شىء فى هذا الاجتماع سوف يتوقف الى حد كبير على ما سيقوله الرئيس جونسون . ان اسرائيل يجب أن تكون قادرة على الاعتماد بدون تحفظ على المساعدة الأمريكية . أن تقرير « أوثانت » لن يغير شيئا ، سواء الى الأحسن أو الى الأسوأ . اننى أخشى أن تشتعل الحرب فى الأسبوع المقبل فى الشرق الأوسط . ان الحصار المصرى فى شرم الشيخ يعتبر عملا من أعمال الحرب ينبغى أن ندافع عن أنفسنا ضده .. والوسيلة الوحيدة لتحاشى الحرب ، وتحاشى وقوع كارثة ، هى أن يصدر الرئيس تصريحا حازما جدا يعلن فيه أن الولايات المتحدة ستقوم فورا ، سواء وحدها أو مع حلفائها ، بفتح المضايق . ان صدور مثل هذا التصريح – مع تأييده بخطاب من « جونسون » الى « أشكول » يحوى التفصيلات الفنية المتعلقة بالعمليات العسكرية المتوقع أن يقوم بها الأمريكيون ، يمكن أن يشكل – فى رأيى – الوسيلة الوحيدة لحل الأزمة » .

وأجاب راسك بايجاز : « اننى أفهمك » . ثم وضع سماعة التليفون وهرول الى الرئيس جونسون .

وشعر جونسون باستياء عندما أبلغه « راسك » بنص هذا الحديث وقال : « اذا كان السيد القادم من تل أبيب فى عجلة من أمره فليعد الى بلاده » ثم قال وقد استولى عليه الحنق لأحد مساعديه : « اننى لا أحب أن يوضع مسدس على صدغى . ان

مجلس الوزراء الاسرائيلى الذى سيجتمع يوم الأحد ، والذى سوف يقرر السلام أو الحرب .. انما هو انذار نهائى . اننى لا أحب هـذا » !

وفى الوقت نفسه .. أشار جونسون الى أنه ربما يستقبل ايبان. وأردف قائلا : « ولكن ليس على الفور ، وانما فيما بعد ، وربما هذا المســاء » .

وفى غضون ذلك .. قابل ايبان ، ومعه الملحق العسـكرى الاسرائيلى ، « ماكنمارا » فى وزارة الدفاع الأمريكية . وكان (ايبان) يتوقع اجتماعا خاصا ومحدودا ، ولكنه دهش عندما وجد فى مكتب وزير الدفاع الأمريكى اثنين من مساعديه ، والجنرال « هويلر » رئيس هيئة أركان الحرب المشتركة .

وأحضر ايبان معه فى حافظة أوراقه برقية عاجلة وصلته من اشكول ، أعرب فيها عن خيبة أمله تجاه التصريحات التى أدلى بها « راسك » فى اليوم السابق ، وطلب فيها ايبان أن يتكلم قبل كل شىء عن الخطر الذى تمثله الحشود المصرية . ونفذ ايبان رغبة اشكول ، ولكنه اصطدم بارتياب عام .

لقد اقترب « الجنرال هويلر » من الحائط ، وبحركة مسرحية أبعد عنه ستارا سميكا تكشف عنه خريطة كبيرة للشرق الأوسط . وأوضح بايجاز أن مصر لا يمكن لها الغلبة ، وان اسرائيل ستخرج منتصرة من أية مواجهة عسـكرية ! ثم أردف قائلا : « لقد فحصنا هذا الموضوع بواسطة خبرائنا . وهم جميعا على اتفاق فى الرأى فى أن النصر سيكون من نصيبكم » .

***

وسأل ايبان بالحاح : ماذا لو هاجموا مطاراتنا ؟

فأجاب هويلر : « سواء جاءت الضربة الاولى من جانبكم أو من جانبهم فاننـا نعتقد انكم الأقوى ، وانتم منتصرون فى كلتا الحالتين » .

وتناول الحديث مسألة القوة البحرية التى تخصص لاقتحام المضايق . وشرح مكنمارا أنه يعارض هذه الفكرة تماما ، وقال «لنفرض أننا استطعنا وضع اسطول دولى . ان القوة التى ستتشكل على هذا النحو ستمر فى المضايق مرة ومرتين ، وثلاثا . وستبقى فى المنطقة شهرا ، وشهرين ، وثلاثة شهور . ان هذا سوف يكلف عدة مليارات من الدولارات . ثم ماذا بعد ذلك ؟ ان هذه القوة لن تبقى الى الأبد فى المنطقة ، وسوف تتفرق . فماذا سوف يحدث اذا ظهرت باخرة اسرائيلية بمفردها دون حراسة فى المضايق ؟ هذا هو الاختبار الحقيقى » .

وعند الظهر .. سلم دين راسك وروبرت ماكنمارا تقريرا مشتركا الى الرئيس جونسون قبيل استقبال الاخير لايبان . وقد احصيا فى هذه الوثيقة ـــ السرية للغاية ـــ الأعمال المختلفة التى يمكن القيام بها ، وختما التقرير بهذه العبارات : باختصار .. يبدو انه ليس أمام الولايات المتحدة سوى احد حلين :

١ ـــ انشاء قوة بحرية تشترك فيها عدة دول .

٢ ـــ ترك اسرائيل تعمل وحدها .

وفى القاهرة .. نشرت صحيفة الأهرام فى هذا الصباح مقالها الافتتاحى الأسبوعى وجاء فيه : « ان وقوع مواجهة عسكرية مع اسرائيل أمر لا مفر منه . ان العامل السيكولوجى يضطر اسرائيل الى أن تعلن تحديها بالحرب » .

وفى الصـــباح ، ألقى جمال عبد النـــاصر خطابا امام اللجنة المركزية لاتحاد النقابات العربية قال فيـــه : « .. اذا هاجمت اسرائيل سوريا أو مصر فاننا جميعا سندخل الحرب ضدها ، وسيكون هدفنا الأساسى هو تدمير اسرائيل . اننى لم اكن استطيع أن أقول مثل هذا الكلام منذ ثلاث سنوات أو خمس .. وليس من عادتى أن أعد بشىء لست قادرا على تحقيقه ، أما اليوم فاننى مقتنع بانتصارنا . ان مصر تتوقع فى كل لحظة هجوم اسرائيل الذى سيتيح لنا الفرصة لتدميرها » .

وكان عبد الناصر قد عقد قبل ذلك بيوم واحد .. اجتماعا استمر اربع ساعات فى غرفة العمليات بهيئة أركان الحرب المصرية، واقترح بعض الضباط أن تبدأ مصر القتال ضد اسرائيل ، غير أن عبد الناصر لم يشاركهم وجهة نظرهم ، وفضل خطة أخرى تقضى بانتظار وقوع هجوم اسرائيلى قبل أن ترد عليه مصر بضربة قاتلة . وقد أعدت فى سيناء ثلاثة خطوط من الاستحكامات . وسيحاول الجيش المصرى وقف الهجوم الاسرائيلى عند الخط الأول ، فاذا لم ينجح فى ذلك فان القوات سوف تتراجع الى الخط الثانى أو حتى الى الخـــط الثالث ، حيث تســـتطيع أن تحتمل الصدمة ، وستصبح صحراء سيناء فخا قاتلا للجيش اليهودى ، ثم يتحول الجيش المصرى الى الهجوم على الأراضى الاسرائيلية .

واعترض بعض الضـــباط قائلين : ان الخطوط الثــلاثة غير موجودة فى الواقع ، لأن معظم القوات المصرية قد حشدت على الحدود الاسرائيلية . والفرقة الرابعة هى وحدها التى ترابط فى المؤخرة . ولكن الأمر استقر على خطة ناصر .

* * *

تحددت الســـاعة السابعة موعـــدا للاجتماع بين جونســـون وايبان . وفى هذا الاجتماع اشترك فى المباحثات خبراء كثيرون ، بعضـــهم حضر الاجتماع كاملا ، والبعض الآخر دعى للأدلاء برأيه فى نقاط معينة فى اختصاصه . وهكذا مر أمام أبا ايبان كل من دين راسك وماكنمارا وخبراء وزارة الدفاع والأخـــوان روســـتو (يوجين ووالت روستور) وغيرهم .

وبدأ « ايبان » الكلام وأثار مسألة الحشود العسكرية فى سيناء التى تعرض كيان اسرائيل للخطر وقال : « ان عبد الناصر يريد أن يخوض الحرب ضدنا ، وهو مستعد . ومعلوماتى فى هذا الصدد مؤكدة » .

ولم يصدقه جونسون ، وسأل ماكنمارا .. الذى أجاب قائلا « ان جميع أجهزة مخابراتنا متفقة فى الرأى على أن المصريين ليس لديهم النية أو القدرة على مهاجمة اسرائيل » .

أما بالنسبة لمسألة فتح المضايق فقد قال جونسون : « أعتقد اننا نستطيع فتح المضايق ، ولكن الذى يهم ليس ذلك الذى يعتقده ليندون جونسون ، وانما ما يقوله رسميا رئيس الولايات المتحدة . والرئيس ليستطيع أن يتكلم بدون موافقة الكونجرس » .

واضاف جونسون قائلا فى سخرية مريرة : « ان هؤلاء الذين يطالبوننى بعدم ارسال أى جندى بعد الآن الى فيتنام ، يلحون على فى ارسال كل حاملات الطائرات الأمريكية الى خليج العقبة » ! .

ثم قرأ جونسون مشروع بيان سيلقيه عن المسألة كلها ، ووضع البيان أمام ايبان وهو يقول : « انكم تستطيعون العمل فى نطاق مجموعة دولية . ولن تفقدوا شيئا اذا حاولتم ذلك » .

ورد عليه ايبان قائلا : « اننا لا نستطيع أن نعيش هكذا . اننا على وشك اتخاذ قرار خطير جدا لأنه ليس لنا خيار — الا بين التسليم أو الحرب — ونحن لن نستسلم ... ونحن نريد أن نعرف من الذين سيقفون الى جانبنا وما اذا كانت الولايات المتحدة سوف تحترم التعهدات التى قطعتها على نفسها فى عام ١٩٥٧ . لقد أجريت محادثات مع ديجول الذى اقترح عقد اجتماع بين الدول الكبرى . واعتقد انه فى غضون هذا الوقت قد يغير رأيه نظرا لأن الروس رفضوا هذا الاقتراح . وعلى الأقل ستظل مصانع الاسلحة الفرنسية مفتوحة أمامنا . وفى لندن لاحظت انه توجد رغبة فى العمل ولكن بشرط واحد وهو أن تشتركوا انتم أيضا فى العمل . وهكذا فان كل شىء متوقف عليكم . ان لدى سؤالين أرغب فى توجيههما لكم : هل سنقاتل وحدنا ، أم أنكم ستقفون الى جانبنا ؟ .. و : ما هو المدى الحقيقى لتعهداتكم ؟ » .

وتهرب جونسون من الاجابة على السؤال الأول وقال : « يجب القيام بعمل قانونى ضد الحصار المفروض على مضايق تيران ... انكم تتحدثون دائما عن مجلس وزرائكم الذى سيجتمع يوم الأحد . وليس هذا من شأنى .. فاذا كنتم تريدون أن نقف الى جانبكم فيجب أولا ان نتجه الى الأمم المتحدة . يجب أن يكون هناك نوع

من العمل الجماعي ... اننى أريد أن تمر السفن الاسرائيلية فى المضايق ، وآثار ذلك ستكون أهم كثيرا من مجرد رفع الحصار ... ان أياما عصيبة تنتظركم . فاذا كنتم تريدون أن نكون بجانبكم فى المستقبل فينبغى أن تنتظروا قليلا . اننى لست فأرا ولست ضعيفا أو جبانا . وينبغى أن أجرب كل الوسائل الممكنة لاعادة فتح الطريق البحرى » .

* * *

فى اسرائيل .. كانت الحكومة وهيئة أركان الحرب وزعماء البلاد يحبسون أنفاسهم فى انتظار النتائج التى سوف تسفر عنها محادثات ايبان وجونسون . غير أن « ايبان » أمر بعدم ارسال برقية بنص هذه المحادثات الى اسرائيل . وفضل أن يأخذ التقرير معه .

وفى الثانية والربع صباحا من الليلة نفسها .. تحدث مساعد سفير الاتحاد السوفيتى الى سكرتير « أشكول » وقال ان السفير السوفيتى — تشوفاخين — يريد الاجتماع فورا مع رئيس الحكومة .

وعندما تمت المقابلة فى الثالثة صباحا ، كان « تشوفاخين » يحمل رسالة من كوسيجين جاء فيها : « اننا نطلب منكم أن تبذلوا أقصى ما فى وسعكم لتحاشى وقوع صدام عسكرى قد يسفر عن عواقب خطيرة بالنسبة لقضية السلام والأمن الدوليين ...... ونحن نأمل فى أنه بعد أن تكون الحكومة الاسرائيلية قد فكرت بطريقة جادة فى الموقف وفى المسئولية التى سيتحملها الطرف الذى يبدأ فى اطلاق النار ، ان تبذل قصارى جهدها لتحاشى وقوع صدام مسلح فى الشرق الأوسط » .

وفى الوقت نفسه وصل السفير السوفيتى فى القاهرة الى منزل الرئيس عبد الناصر فى الثالثة والنصف صباحا ، وجاء فى الرسالة التى يحملها السفير : « نطلب منكم عدم القيام بأى عمل عسكرى » . وكان ذلك عقب البرقية التى ارسلها جونسون الى كوسيجين . وأكد عبد الناصر لضيفه السوفيتى انه ليس لديه مطلقا نوايا من هذا النوع .

وفى الوقت نفسه ، أرسلت موسكو برقية عاجلة الى واشنطن لابلاغها الى الرئيس جونسون ، وتضمنت ما يلى : « ان المعلومات القائلة بأن مصر تستعد لمهاجمة اسرائيل هى معلومات ملفقة تماما . وبالعكس .. فان معلوماتنا تشير الى أن اسرائيل تنوى القيام بعمل مسلح ضد جاراتها العربية . اننا نعرف أن العرب لا يريدون صداما مسلحا . ان الاتحاد السوفيتى يتوجه الى الولايات المتحدة ليطلب منها اتخاذ كافة التدابير التى تهدف الى تحــاشى وقوع مواجهة عسكرية ، لان الشعوب السوفيتية والعربية والاسرائيلية لا تريد الحرب » .

وكانت هذه الرسالة تحوى عبارة تشكل تحذيرا خطيرا موجها لاسرائيل : « اذا اتخذت اسرائيل عنصر المبــادأة فى القيام بعمل عسكرى .. فان الاتحاد السوفيتى سيساعد الدول التى تتعرض للهجوم » .

— ٣ —

في **وزارة الدفاع الاسرائيلية** ، وفى مقر هيئة أركان الحرب . كان الجميع يشمون رائحة البارود . وطبقا لما تقوله الصحف الأجنبية .. فان الوحدات الاسرائيلية المرابطة فى صحراء النقب كانت مستعدة للتحرك فى فجر اليوم التالى . وفى صباح يوم ٢٧ مايو اجتمع « اشكول » رئيس الوزراء باسحاق رابين رئيس هيئة أركان الحرب ، وأفهمه أن الحرب وشيكة الوقوع .

وكانت الحكومة الاسرائيلية تنتظر بفارغ صبر برقية واشنطن الدبلوماسية ، التى تحوى تقرير ابا ايبان عن محادثاته مع جونسون وعندما اتصل مدير مكتب أشكول تليفونيا بالسفير الاسرائيلى فى واشنطن يستعجله فى ارسال التقرير ، علم منه أن هناك تعليمات من ايبان بعدم ارساله بالشفرة انتظارا لوصوله هو الى تل أبيب . واستشاط اشـكول غضبا وطلب ارسال برقيـة فورا بمضمون المحادثات ، وهذا هو ما حدث فعلا بعد ساعات قليلة .

وفى هذا اليوم نفسه — ٢٧ مايو — قدم اوثانت السـكرتير العام للأمم المتحدة تقريرا الى مجلس الأمن عن زيارته لمصر ، وطلب فيه من كلا الطرفين مهلة اسبوعين لالتقاط الانفاس ومحاولة حل الازمة . ولكن المصريين كانوا يتعجلون استغلال نجاحهم وطالبوا باجراء مناقشة عاجلة حول سياسة اسرائيل العدوانية خـلال السنوات الثمانى عشرة الأخيرة .

* * *

فى الساعة الثامنة والنصف مساء ، وصل ايبان بالطائرة الى تل أبيب قادما من واشنطن . وعلى الفور افتتح اجتماع مجلس الوزراء الاسرائيلى ، مع أن راديو اسرائيل كان قد اعلن أنه سوف يجتمع فى الغد . وقد حضر الاجتماع عدد من قواد الجيش وخبراء

وزارة الخارجية وتحدث ايبـــان بالتفصيل عن رحلته الى أوربا والولايات المتحـــدة ، وسحب من حقيبته نصوص محادثاته مع ويلسون وديجول وجونسون . كان التقرير الخاص بمحادثاته مع جونسون وحده يتضمن تسع صفحات كتبت على الآلة الكاتبة .

وروى ايبـــان كلمة كلمة تقريبا ، أقوال جونسون التى طلب فيها أن تنتظر اسرائيل اسبوعين أو ثلاثة ، تحاول الولايات المتحدة خلالها ايجاد حل للأزمة فى نطاق الأمم المتحدة أو بغيرها . ولكن « ايبان » كان غير دقيق فى كثير من النقاط . فقد أعلن عدة مرات أن جونسون تعهد أمامه بأن الولايات المتحدة سوف تفتح المضايق بأى ثمن مع غيرها من الدول أو وحدها اذا اقتضى الأمر ، مع أن جونسون لم يعد مطلقا باسم حكومته القيام بعمل من جانب واحد .

كذلك كان تقرير ايبان عن محادثاته مع ديجول غير دقيق ، فقد ذكر ايبان لمجلس الوزراء أن ديجول يعارض الحرب ، ولكنه لم ينبس ببنت شـــفة عن الموقف العدائى الصريح الذى اتخذه ديجول تجاه أية مبادأة اسرائيلية ، ولا عن التحذيرات العديدة التى قال فيها « لاتشنوا الحرب » .. وهى تحـــذيرات اتخذت شكل انذارات .

وفى الساعة نفسها التى كان فيهـــا مجلس الوزراء الاسرائيلى مجتمعا ، بدأ كل شىء يتحرك فى صحراء النقب . لقد غادرت طوابير من الدبابات الاسرائيلية والعربات نصف جنزير قواعدها واستعدت فرق الجيش للتقدم .

وفى القاهرة .. صرح أحد قواد الجيش لدبلوماسى أمريكى بقوله « تعتقد هيئة أركان الحرب المصرية أنه اذا وقع هجوم اسرائيلى فانه سوف يحدث فى يوم الأحد الأخير من شهر مايو (٢٨ مايو) — أى غدا فى الفجر » .

وعادت الوحدات الاسرائيلية فى صحراء النقب الى قواعدها . فقد قررت اسرائيل الا تشن الحرب فى هذا الصباح .

وفى واشنطن .. غادر الرئيس جونسون العاصمة الأمريكية الى مزرعته فى تكساس . وكان الباعث الرسمى لذلك هو أنه يريد أن يستريح هناك خلال عطلة نهاية الأسبوع . لكن البعض أكدوا أن الرئيس الأمريكى كان يرغب فى الهرب من الضغط المتزايد الذى كان يتعرض له البيت الأبيض من جانب المنظمات اليهودية الموالية لاسرائيل .. وكان جونسون يتصل من مزرعته بين كل ساعة واخرى بدين راسك ووالت روستو لمعرفة تطورات الموقف . وكان روستو من جانبه يمطر السفارة الاسرائيلية بالمكالمات التليفونية العاجلة .

وعندما حل الليل ، سلمت لجونسون الرسالة السوفيتية الموقعة من كوسيجين ردا على برقية الرئيس الامريكى المرسلة يوم ٢٦ مايو . وقرر جونسون أن يرسل على الفور رسالة جديدة الى « ليفى اشكول » يطلب منه فيها الامتناع عن القيام بأى عمل عسكرى .

وفى واشنطن .. استدعى يوجين روستو السفير الاسرائيلى لكى يبلغه أن البريطانيين بسبيل تنظيم قوة بحرية تشترك فيها دول أخرى منها هولندا وكندا ، وأن الولايات المتحدة اتصلت فى هذا الصدد بفرنسا وبدول أخرى . وقال له أن اسرائيل سوف تدعى بدون شك للاشتراك فى « القوة البحرية الدولية » .. وقال روستو ان الولايات المتحدة تطب من اسرائيل الانتظار أسبوعين أو ثلاثة الى أن تنتهى مناقشات مجلس الأمن ، وريثما يصدق الكونجرس على مشروعات الرئيس الأمريكى .

وفى تل أبيب .. قام السفير الأمريكى بتسليم برقية جونسون الى أشكول فى العاشرة صباحا يوم ٢٨ مايو . لقد نقل جونسون الى اشكول فى رسالته جوهر ما جاء فى رسالة كوسيجين اليه ، واشار جونسون بصفة خاصة الى العبارة الخاصة بالمساعدات التى سوف يقدمها السوفيت للعرب اذا تعرض الأخرون للهجوم . وقال جونسون فى برقيته لأشكول : « بصفتى صديقا لكم ، فاننى أؤكد ما سبق أن قلته لوزير خارجيتكم ، وهو انه يجب على اسرائيل الا تبدأ الحرب » .

وكانت هذه البرقية ، أخطر برقية ارسلتها الولايات المتحدة حتى ذلك الوقت لاسرائيل . فقد كانت هذه أول مرة تثار فيها صراحة مسألة وجود تهديد بالتدخل السوفيتى فى الشرق الأوسط ضد اسرائيل .

وفى سيناء .. استأنفت الطوابير الطويلة ، التى ظلت تزحف طوال الليل من قناة السويس نحـــو العريش ، تحركاتها فى هذا الصباح . وكان من رأى المراقبين فى القاهرة أنه من الممكن وقوع هجوم اسرائيلى بين لحظة وأخرى، وان قطاع العريش الاستراتيجى سيكون بلا شك مسرحا للمعركة . وقد قررت القيادة المصرية العليا ـــ بناء على ذلك ـــ جلب قوات جديدة منتعشة : الجنود القدماء فى اليمن ، وقد استدعوا على عجل ... وجنود الاحتياطى والمجندون الجدد القادمون من معسكرات التدريب فى مصر . وبعد فترة قصيرة وصل عدد القوات المصرية التى أرسلت الى صحراء سيناء الى مائة الف جندى ، والف دبابة ، والف مدفع ، و ٢١٥ طائرة .

ولكن التوتر العصبى الذى استولى على القواد المصريين لم ينعكس على وجه عبد الناصر المتسم بالثقة . فقد عقد الرئيس المصرى مؤتمرا كبيرا فى قصر القبة ـــ وكان أول مؤتمر من نوعه منذ سنوات ـــ وحضرة ثلاثمائة صحفى مصرى وأجنبى . لقد اعلن عبد الناصر فى المؤتمر : « اذا كانت اسرائيل تريد الحرب ، فاننا نقولها مرة أخرى : أهلا وسهلا ... اننى سأمنع اية دولة تتدخل لصالح اسرائيل من المرور فى قناة السويس .. ان مصر مستعدة للدخول فى مجابهة عامة مع اسرائيل » .

وفى الوقت نفسه .. عين عبد الناصر أحد نوابه «منظما للشعب» بقصد اعداده للحرب الشعبية ضد الغزاة الأجانب ، وأمر وزير الثقافة المصرى من جانبه بحظر عرض أفلام الجاسوسية وخاصة أفلام « جيمس بوند ٧» التى تنطوى على امتداح أعمال « الجواسيس والمحرضين على شن الحروب الاستعمارية » .

وفى واشنطن ، دعا المسئولون فى وزارة الخارجية سفير اسرائيل وقالوا له : « ان الرئيس « جونســـون » يدرس امـــكانية زيادة

المساعدات الاقتصادية لاسرائيل طوال المدة التى تعلن فيها التعبئة وحالة الطوارىء ... فهل تستطيعون ابلاغنا بالتفصيل بالمصاعب التى تسببها التعبئة للاقتصاد الاسرائيلى واطلاعنا على العجز الذى تعانيه السياحة ، والخسائر المالية الناجمة عن اغلاق خليج العقبة؟ وقد افهموا السفير ، أن الولايات المتحدة ربما تزود اسرائيل ، حتى انتهاء الأزمة ، ببترول تكساس وفنزويلا ، ثم قالوا بابتسامة مشبعة بالتفاؤل ؟ : « أما فيما يتعلق بمشروع القوة البحرية فان كل شىء يسير طبقا للخطة الموضوعة » .

وقد كانت هذه الخطة غريبة جدا . لانه فى هذه اللحظة ذاتها ، كان مبعوثان أمريكيان خاصان فى طريقهما للقاهرة ، وقد كلفا بالتوصل الى حل وسط مع السلطات المصرية .

وفى القاهرة .. قام مجلس الأمة — بعد ظهر اليوم نفسه — ٢٩ مايو — يمنح سلطات غير محدودة لعبد الناصر ، وسمح له بأن يمارس الحكم بواسطة مراسيم ، وهذا هو ما فعله عبد الناصر على الفور . ونقلت وحدات جديدة من اليمن الى سيناء ، وظلت التعبئة قائمة على قدم وساق . وبدا كما لو كانت القاهرة ، قد مسها تيار كهربائى من الاعلانات والشعارات التى ملأت الشوارع .

وفى اليوم التالى .. هبطت فى مطار القاهرة طائرة الملك حسين ، الذى هبط منها مرتديا حلة مشير ، وعلى رأسه قلنسوة سوداء وعلى بزته الرسمية جناحا طيار . لقد صاح وهو يعانق عبد الناصر : « أخى عبد الناصر » ، وصاح عبد الناصر وهو يعانق حسين : « أهلا بك يا أخى حسين » وانتهت بذلك حملة اذاعية متبادلة كانت مستمرة بين البلدين ، ووقعت معاهدة للدفاع المشترك بين مصر والأردن ، وهى معاهدة كانت تنص — بصفة خاصة — على انه : « .. فى حالة نشوب الحرب فان رئيس هيئة أركان حرب القوات المصرية المسلحة ، يتولى قيادة العمليات العسكرية فى الدولتين » .

وفى اليوم التالى — ٣١ مايو — ازداد ضغط القادة العسكريين على الحكومة فى اسرائيل للقيام بعمل عسكرى ، وكانت الحكومة قد استدعت الدفعة الأخيرة من جنود الاحتياطى يوم ٢٧ مايو ، وقد

أصبح الموقف ــ بعد اتفاقية عبد الناصر وحسين ــ ينطوى على مغزى خطير جدا . لهذا طالب العسكريون بأن يبدأ القتال قبل أن يفوت الأوان .

وفى هذه الظروف قرر « أشكول » أن يرســل الى واشنطن شخصية سياسية من الدرجة الأولى فى مهمة سرية جــدا . كان الهدف من هذه الرحــلة مزدوجا . لقد كانت ثقــة الأمريكيين بالمعلومات الاسرائيلية قد اهتزت منذ اعلنت اسرائيل يوم ٢٥ مايو ١٩٦٧ ــ وقد استولى عليها الذعر ــ ذلك التحذير الكاذب الذى قالت فيه أن مصر ستقوم بالهجوم بين لحظة وأخرى ، ولهذا ينبغى اصلاح الضرر واستعادة ثقة الامريكيين .. أما الهدف الثانى فهو التأكد من أن « أبا ايبان » قد تلقى فعلا وعدا من أمريكا بالقيام بعمل لفتح المضايق . لهذا فقد أرسل « أشكول » مبعوثه السرى صباح هذا اليوم ــ ٣١ مايو ــ الى الولايات المتحدة . وحتى بدون هذه الرحلة العاجلة ، فان الاسرائيليين كانوا سوف يكتشفون بسرعة الحقيقة فيما يتعلق بتعهدات واشنطن . فبالأمس أرسل «أشكول» الى ليندون جونسون رسالة عاجلة تناول فيها مرة أخرى مسألة المضايق ، والخطر الذى تمثله الحشود المصرية ، وذكر أن عنصر الوقت يلعب ضد اسرائيل . وضمن الرسالة عبارة جوهرية ترتكز على أساس المعلومات التى جاء بها «ايبان» الى الحكومة الاسرائيلية وتقول : « .. وانى أشكركم على ما وعدتمونا به ، من أن الولايات المتحدة ستستخدم كل الوسائل ــ بدون استثناء ــ لفتح مضايق تيران أمام الملاحة الدولية » .

ان هذه الرسالة التى وصلت فى هذا الصباح (٣١ مايو) الى واشنطن .. جعلت « جونسون » يقفز واقفا على قدميه . لقد استبد الغضب برئيس الولايات المتحدة الى حد انه اســتدعى « والت روستو » وقال له : « ليس من حقى أن اقدم مثل هذه الوعود دون موافقة الكونجرس . وما جاء فى رسالة « اشكول » لا يطابق ما قلته لايبان .. وعليك أن تبلغ ذلك للاسرائيليين » .

وكانت الجهود الأمريكية بالنسبة لمشروع « القوة الدولية لفتح المضايق » قد وصلت الى مرحلة كتابة مشروع بيان دولى لاعلان

الصفة الدولية للمضايق . لقد أرسلت الولايات المتحدة مشروع هذا البيان الى ٢٨ دولة للتوقيع عليه ، ولكن معظم الدول التى طلب اليها التوقيع على البيـــان ، والاشتراك فى القــوة الدولية المقترحة ، قد ردت — حتى قبل ان تطلع على مشروع البيان — بأنها لن توقع ولن تشترك ، واسرعت فرنسا باعلان رفضها القاطع لأى مشروع فى هذا الاتجاه .

وحتى فى داخل الحكومة الامريكيـــة نفسها ، كان من الواضح أن موقف « دين راسك » وزير الخارجية يتسم بالفتور الشديد . وكان موظفون آخرون فى وزارة الخارجية الامريكية قد تحدثوا عن « موقف موضوعى تجاه النزاع » يعمل فيه حســـاب « المصالح البترولية للولايات المتحدة » وقالوا .. ولو انه يجب « ترك الباب مفتوحا أمام عبد الناصر » . وقد أكدت وزارة الخارجية الامريكية لبعض الصحفيين المتعاطفين معهم أنه « رغم ان السفن الاسرائيلية تستخدم مضايق تيران ، الا أن شـــكاوى اسرائيل فيما يتعلق بالأضرار التى تصيب تجارتها بسبب اغلاق المضايق تنطوى على المبالغة الشديدة ، وهى بالتأكيد لا تستحق وقوع حرب » . وقد قال « جوزيف السوب » الصحفى الأمريكى الكبير معقبا على ذلك . « انه لشىء غريب أن تكون سفارة اسرائيل فى واشنطن أكثر تفاؤلا من الامريكيين . **ان الحرب ستنشب بالتأكيد خلال أسبوع** » .

أما فى موسكو فقد قال « الكسى كوسيجين » رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى لجورج براون وزير الخـــارجية البريطانية . عندما اختتم زيارته لموسكو : « اننا ضد أى حــرب فى الشرق الأوسط » .

وفى باريس تجمع ثلاثون الف شخص فى شارع فاجرام حيث عطلوا المرور فيه ، واسرعوا نحو مبنى السفارة الاسرائيلية . وكان معظم هؤلاء من اليهود ... وقد جاءوا الى السفارة للاعراب عن تأييدهم لاسرائيل . ان اليهود الفرنسيين الذين كانوا يرددون منذ بضعة أعوام انهم فرنسيون قبل كل شىء ، أصبحوا يعلنون اليوم فى هذا الحشد الجماهيرى « نحن يهود أولا . ان حرب اسرائيل هى حربنا » .

وقد وصلت اصداء هذه المظاهرات الى قصر الأليزيه . وكان رد الفعل لدى السلطات الفرنسية .. هو أنها أصدرت تعليمات وجيزة الى أجهزة الأمن طلبت منها فيها معرفة الدور الذى قامت به السفارة الاسرائيلية فى تنظيم هذه المظاهرة . وتلقت مختلف الادارات المنوط بها تزويد اسرائيل بالاسلحة أمرا بأن تفحص بدقة كل طلب فى هذا الشـــأن . وبدات تظهر عقبات غير متوقعة كلما طلب الاسرائيليون استخدام هذا المطار أو ذاك . وأخذ رجال الجمارك الفرنسيون يفحصـــون بدقة متزايدة كل مســـتند وكل صندوق . وشكلت لجنة من عدد من الوزارات لكى تدرس بصفة عاجلة امكان فرض حظر على شحنات الأسلحة التى ترســـل الى الشرق الأوسط ، أى الى اسرائيل .

فى صـــباح يوم أول يونيو ، ارتفعت فى واشـــنطن أصوات عديدة ومتزايدة تطالب بالوصول الى تسوية مع عبـــد الناصر . وصرح «دان آرثر» معلق التليفزيون وموضع ثقة البيت الابيض بقوله ان « الرئيس جونسون مقتنع بأن مصر لا تريد الحرب » .

ولقد أصبح الأمل فى الوصول الى تســـوية مع مصر معقودا على رجلين هما : « شارلس يوست » و « روبرت أندرسون ». لقد وصل يوست الى القاهرة يوم ٢٩ مايو ــ موفدا من قبل الخارجية الأمريكية للتفاوض مع المصريين . وعندما قابل محمود رياض وزير الخارجية أعاد الوزير المصرى على سمعه وجهة النظر غير الرسمية لمصر وهى : « أن اسرائيل تستعد للهجوم على سوريا ، وقد قام السوفيت باخطارنا بذلك فى الوقت المناسب » .

وسأل يوست : الا توجد اية فرصة للوصول الى تسوية ؟

وأجاب رياض : « نعم بالتأكيد . ان المصريين لا يفكرون مطلقا فى أن يبدأوا القتال ضد اسرائيل ، أما فيما يتعلق بالمضايق فيمكن تسوية هذا الموضوع » .

ولكن محمود رياض رفض أن يوضح كيف يمكن أن يتم ذلك ولم يقتنع « يوست » ، وأحس أن مهمته فشلت . ومع هذا فقد

أرسل برقية الى واشنطن قال فيهـــا .. انه يحسن ترك باب لعبد الناصر لكى يخرج منه .

وبالاضافة الى المبعوث الرســـمى يوست ، فقد وصـــل الى مصر مبعوث سرى فى تكتم شديد ... وكان مزوداً من قبل البيت الأبيض بتعليمات محددة هى : مقابلة عبد الناصر . وكان هـــذا المبعوث الخاص الذى يعرف عبد الناصر هو « روبرت أندرسون » الوزير السابق فى عهد حكومة ايزنهاور .

وقد هبط «أندرسون» فى مطار القاهرة يوم ٣١ مايو فى سرية مطلقة . ولم يتح للسفير الأمريكى فى القاهرة أن يراه سوى بضع لحظات فقط فى الفندق ، كما أن «اندرسون» لم يستخدم أجهزة السفارة فى نقل تقاريره الى واشنطن .

وفى صباح اليوم التالى ـــ أول يونيو ـــ أدخل اندرسون سرا فى مكتب عبد الناصر .

لقد اســـتمر الحديث بينـــه وبين عبد الناصر طويلا ، وقد رفض الرئيس المصرى أن يتراجع عن موقفه فى مسألة المضايق وقال « ان موقفى نهائى » ولم يقبل عبد الناصر من الاقتراحات سوى واحد هو : ارسال مبعوث مصرى كبير الى واشنطن لاجراء محادثات مع المسئولين الأمريكيين . وتقرر أن يرسل عبد الناصر نائبه الى واشنطن يوم الأربعاء ٧ يونيو .

وفى تل أبيب ، استدعى « أشكول » « موشى دايان » الى منزله واقترح عليه تولى منصب وزير الدفاع ، ووافق دايان . وبهذا انتهت أزمة كبرى عاشـــتها الحـــكومة الاسرائيلية خلال الأيام السابقة ، فقد اضطرت الحكومة أخيرا الى الاستجابة لضغوط العسكريين والمدنيين ، بتشكيل حكومة اتحاد وطنى تضم دايان وزيرا للدفاع . ولقد كان تعيين « دايان » وزيرا للدفاع ـــ فى أول يونيو ـــ يشكل قرارا فى حد ذاته هو : **تحدى عبد الناصر** .

وفى القاهرة .. عقدت القيـــادة العليـــا اجتمـــاعا طويلا يوم ٢ يونيو بحضور عبد الناصر ، وكانت القاهرة ترى أن حدة التوتر

الدولى قد خفت ولم يثر تعيين « موشى دايان » وزيرا للدفاع قلقا مبالغا فيه . كان من راى اجهزة المخابرات المصرية أن « أشكول » حاول بهذا التعيين الرد على انتقادات خصومه واستعادة الثقة التى اهتزت بحكومته .

ولهذه الأسباب .. وجدت القاهرة أنه من المنـــاسب تحاشى وقوع مواجهة عسكرية بأى ثمن ، وعدم اتاحة الفرصة للاسرائيليين للقيام بهجـــوم ، وكسب الوقت . وكان هـــذا بمثابة أمر واجب التنفيذ .

وظلت مصر ترسل تعزيزات الى سيناء بدون هدف معين . وقد أذاع قائد الجيش أمر قتال جديدا قال فيه « من المحتمل ان تقوم اسرائيل قريبا بهجوم على الجمهورية العربية المتحدة . وقد عملنا لذلك حسابا فى خططنا واننى اطلب منكم جميعا أن تكونوا يقظين » .

ان مصر لم تكن تنوى شن الحرب .

ولكن اسرائيل كانت تستعد لخوض المعركة .

* * *

لقد افتتح « موشى دايان » عمـــله فى وزارة الدفاع ، بأن طلب من الجنرالات ان يقدموا له فى المســـاء نفسه خطط عمليات هيئة أركان الحرب . وحوالى الظهر من اليوم نفسه ٢ يونيو ، عقد فى منزل « أشكول » اجتماع وزارى محدود اشترك فيه دايان وايبان وايجال آلون ورئيس هيئة أركان الحرب . وعرض دايان فى هذا الاجتماع خطته بشأن الحرب وهى تهدف الى تدمير الجيش المصرى فى سيناء واحتلال مضايق تيران .

لقد قال دايان للجنرالات : حدثونى عن خططكم فاذا لم يكن لديكم شىء منها فان لدى خططا . ولكن الجميع كانوا يعرفون ما هى مشروعات دايان ، فقد عرضها أكثر من مرة على قواد الجيش، وتحدث بشأنها أيضا مع رئيس أركان الحرب أثناء لقاءاتهما خلال فترة اعلان الطوارىء . وعرض « اسحاق رابين » على «دايان» فى

الاجتماع مشروعه الجرىء وهو يهدف الى اختراق سيناء على أربعة محاور : محورين فى الشمال فى قطاع رفح ، ومحورين فى الجنوب فى قطاع القسيمة ، فى اتجاه معسكر ابو عجيلة المحصن . ووافق دايان على هذا المشروع فى جملته .. ولكنه طلب أن تحدد بوضوح أهداف هذه الحرب على النحو التالى : تدمير الجيش المصرى ، واحتلال شرم الشيخ .

* * *

فى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالى (السبت ٣ يونيو) اتصل مدير ادارة افريقيا والشرق الأدنى بوزارة الخارجية الفرنسية بالسفارة الاسرائيلية فى باريس واستدعى الوزير المفوض الاسرائيلى لمقابلته .

وفى المقابلة .. قال المسئول الفرنسى للممثل الدبلوماسى الاسرائيلى : أبلغك أن فرنسا قررت أن توقف مؤقتا شحنات الأسلحة التى ترسلها الى الشرق الأوسط .

وكان هذا لا ينطبق الا على اسرائيل فقط ، لأن فرنسا لا تشحن أسلحة للشرق الأوسط الا لاسرائيل . لقد شرح المسئول الفرنسى فى هذه المقابلة أسباب هذا الحظر . كان السبب ــ شبه الرسمى ــ هو ان الصحف تحدثت أكثر من مرة عن شحنات الأسلحة الفرنسية لاسرائيل ، وبخاصة عن مسألة « بوردو » فمنذ يومين هبطت أربع طائرات بوينج تابعة لشركة (العال) الاسرائيلية فى « بوردو » حيث شحنت بأسلحة وقطع غيار . ونظرا لأن مطار « بوردو » يستخدمه كل من السلاح الجوى الفرنسى والطيران المدنى ، فلم يكن من الصعب تصوير الطائرات أو اعداد مقالات للصحف التى ستصدر فى اليوم التالى .

أما السبب الرسمى للحظر ، فقد كان قاطعا . لقد قال المسئول الفرنسى : ان فرنسا ليست مرتبطة بأى طرف من أطراف النزاع ، وهذا هو السبب فى اننا لن نرسل أسلحة للشرق الأوسط

وفى الساعة نفسها .. اتصل وزير الدفاع الفرنسى بجـورج بومبيـدو رئيس الوزراء وطلب منه رفـع الحظر المفروض على شحنات الأسلحة الفرنسية الى اسرائيل . وقد رد عليه بومبيدو ـ بعد بحث سريع للموضوع ـ انه يمكن الاسـتمرار فى ارسال الشحنات التى تم الاتفاق عليها . ان غاية ما فعله بومبيدو .. هو انه سمح بشحن صناديق الأسلحة الجـاهزة فى السفن ، واتمام شحن الطائرات الاسرائيلية التى وصلت فعلا الى باريس . وهكذا فان الحظر لم يتأجل الا لمدة اربع وعشرين ساعة .

وفى الساعة السابعة مساء من اليوم نفسه (السبت ٣ يونيو) وصل الى قصر الأليزيه متخفيا أحد الزوار . وكان هـذا الزائر هو « والتر ايبان » سفير اسرائيل فى باريس . لقد أدخل السفير الاسرائيلى فى سرية تامة الى الجنرال ديجـول ، وظل الاثنـان وحدهما وجها لوجه .

وكان ديجول يبدو فى هذه المرة أكثر هدوءا منه عندما اجتمع بأبا ايبان منذ عشرة ايام . ولكن رأى ديجول فى هذه الأزمة أنها لم تتغير .. لقد حلل الموقف فى هذا الصباح أمام أحد المقربين اليه فقال : « ان فكرة الروس كانت ترمى الى تسميم الموقف فى الشرق الأوسط ، وهذا هو السبب فى انهم دفعواالمصريين لـكى يدخلوا سـيناء . وكانوا يعتقدون انه اذا اسـتمرت حوادث الحدود ، واستمر تسلل المخربين ، واستمر تجمع القوات المصرية لمدة بضعة اسابيع أو بضعة اشهر .. فان الموقف سيصل الى نقطة الانفجار ، وعندئذ ستجد الولايات المتحدة نفسها مضطرة الى ارسال قوات الى الشرق الأوسط للدفاع عن اسرائيل ضد هجوم عربى محتمل ، مما يؤدى الى تحويل النزاع الى حرب على غرار الحرب الفيتنامية . ولكن عبد الناصر استطاع التخلص من سيطرة الروس ، فأرسل الى الحدود الاسرائيلية قوات تفوق ما كان متوقعا .. كما أغلق أيضا مضايق تيران دون أن يستشير موسكو . وهكذا ازداد خطر تصاعد الحرب تفاقما ، واصبح من الممكن أن يتدهور الموقف الى حد وقوع مجابهة عسكرية بين الدولتين الكبيرتين ، واصبح من الضرورى تحاشى ذلك بأى ثمن » .

وقد أعاد « ديجول » أثناء اجتماعه السرى مع سفير اسرائيل ترديد تحذيره فقال : (لا تكونوا البادئين باطلاق النار) ولم يكن سفير اسرائيل مستعدا لهذه المقابلة ، ولكن موضوع الحديث الذى جاء من أجله والذى كان يهمه فى المقـــام الأول هو : الحظر الذى فرضته فرنسا على شحنات الأسلحة الى اسرائيل .

ولم يحاول « ديجـــول » حتى الاحتماء خلف أعذار رسمية . فقد أبلغ السفير الاسرائيلى صراحة أنه قرر وقف شحنات الأسلحة بقصد منع نشوب الحرب . وقال انه اذا أدرك عملاء فرنسا ـــ أو بعبارة أخرى اسرائيل ـــ أن مصادر سلاحهم قد نضبت ، فانهم سيحذرون الارتماء فى أحضان الحرب .

وشرح السفير الاسرائيلى باسهاب .. أن مثل هذا القرار لن يضر سوى اسرائيل التى تشترى كل سلاحها تقريبا من فرنسا . أما الدول العربية ، فانها على العكس تتلقى من الاتحاد السوفيتى كميات ضخمة من العتاد العسكرى ، ومع هذا فان أحدا لن يهتم ولو لحظة واحدة بوقف شحنات المدافع والدبابات المرســـلة الى مصر وسوريا .

ولكن « ديجول » ظل صلبا كالصخرة ورفض رفع « الحظر الوقائى » الذى فرضه على الأسلحة المرسلة الى اسرائيل . لقد قرر ديجول للســـفير الاسرائيلى قوله : « لا تشنوا الحرب التى اعرف أن الطرف الآخر لا يريدها . لقد بذلت كل ما فى وسعى لتحاشى الحرب . وهناك حل واحد ، وهو موجود فى أيدى الدول الأربع الكبرى » .

ورد السفير قائلا .. ان مصر قامت بعمل عدوانى عندما أغلقت المضايق ، وأشار الى التهديدات التى ترددها الدول العربية بتدمير اسرائيل .

وأجاب ديجول : « اذا تعرضتم للهجوم ، فلن تتركوا لـــكى تصبحوا ضـــحية للتدمير ، واننى مقتنع بأنه اذا نشبت حرب ، فسوف تكلفكم الكثير من الخسائر والدماء ، كما أنها لن تحل أى

مشكلة . وسيكون لزاما عليكم بعد عشر سنوات أن تحاربوا من جديد » .

واستطرد ديجول قائلا كأنه يفكر بصوت عال : « اننى لا أعرف اذا كانت الحرب ستنشب أم لا . وأنت أيضا يا سيدى السفير لا تعرف .

وأضاف قائلا : « لا تضعوا أملكم فى الولايات المتحدة ، فهى لن تنقذكم » .

وخرج السفير من « قصر الأليزيه » وقد ساوره احساس عميق بالمرارة وخيبة الأمل . لقد قامت فرنسا من جانب واحد بوقف شحنات الأسلحة الى اسرائيل فى أشد لحظات وجودها حرجا . وقد فرض هذا الحظر على اسرائيل قبل أن تطلق رصاصة واحدة .

وقد بادر السفير بارسال برقية الى تل أبيب ، شرح فيها مضمون حديثه مع ديجول وقال فيها : انه لم يحدث أى تغيير ايجابى فى موقف الرئيس الفرنسى . بل على العكس ، فهو شخصيا الذى أمر بوقف ارسال شحنات الأسلحة الى اسرائيل لمنعها من القيام بأى عمل عسكرى .

غير ان السفير لم يعرف كل شىء . فهو يجهل العبارات القاسية التى وجهها ديجول الى رئيس وزرائه « جورج بومبيدو » بسبب المساندة التى يبديها آل روتشلد لاسرائيل . لقد استشاط ديجول غضبا من يقظة الشعور القومى اليهودى لدى بعض الفرنسيين ، ورأى فى ذلك ما يشبه الخيانة . وبعدها قال بومبيدو — وهو متضايق — لأحد أفراد أسرة روتشيلد « قل لاصدقائك ان يوقفوا انتقادهم لسياسة الحكومة الفرنسية ، لأنهم لا يعرفون أين توجد مصلحتهم » .

* * *

وفى تل أبيب .. قال الصحفى البريطانى : « ونستون تشرشل » لموشى دايان الذى دعاه لتناول الغداء : « كان جدى فى حاجة الى هتلر لكى يصل الى الحكم » .

ورد دايان قائلا : « لقد اقتضى الأمر أيضا حشد ٨٠ ألف جندى مصرى فى سيناء لكى أحصل على منصب وزير الدفاع » .

وقد قال دايان للصحفى الشاب ما يفهم منه ، أن الحرب ليست وشيكة الوقوع ، وعندئذ بادر « ونستون تشرشل » فحجز لنفسه مقعدا على أول طائرة تقلع فى الغد الى لندن .

وفى الساعة الثالثة ، وصل « موشى دايان » الى قاعة العمليات . وفى الساعة الرابعة عقد فى نادى الصحافة أول مؤتمر صحفى له أمام مئات من مراسلى الصحف الأجنبية ، ومن بين اجاباته على الأسئلة العديدة التى وجهت اليه .. كانت هناك اجابة تستلفت النظر .. فعندما سئل عن الورطة الدبلوماسية التى وجدت اسرائيل نفسها فيها منذ اغلاق المضايق قال : « فى الوقت الحاضر ربما كان الوقت مبكرا اكثر مما ينبغى ، أو متأخرا أكثر ما ينبغى . فهو ربما كان مبكرا أكثر مما ينبغى لاستخلاص نتائج بشأن العمل الدبلوماسى الذى يجب القيام به بشأن هذه المسألة ».

وقد استنتج الصحفيون من هذا الكلام ، ان دايان لا يتوقع نشوب حرب فى الأيام المقبلة .

وفى الوقت نفسه حصل كثير من الجنود الاسرائيليين على اجازة قصيرة . بل أن عدة آلاف من جنود الاحتياطى تم تسريحهم فى الوقت نفسه بعد أن أبلغوا بكلمة السر التى تذاع فى الراديو اذا ساء الموقف . وعندما رأى « آرثر جولدبرج » المندوب الأمريكى فى الأمم المتحدة صور الجنود الاسرائيلين فى أجازة والتى نشرت فى اليوم التالى ، اكفهر وجهه وقال : « ان هذه الحكايات المتعلقة بالجنود الاسرائيليين الذين حصلوا على اجازات لا تثير سرورى . وحيث أننى أعرف هؤلاء الاسرائيليين .. فان هذه الحكايات ربما تعنى أنهم سيعلنون الحرب غدا » .

* * *

فى القاهرة .. قام سفير الاتحاد السوفيتى بزيارة عبد الناصر فى هذا المساء (السبت ٣ يونيو) وقال له طبقا لما تلقاه من حكومته من معلومات : أن الأزمة فى طريقها الى الهدوء وان اسرائيل لن تقوم بالهجوم .

وفى تل أبيب .. بعث السفير السوفيتى « ديمترى تشوفاخين » ببرقية الى موسكو ضمنها وجهة نظره ، وهى ان اسرائيل لن تفعل شيئا قبل مضى أسبوعين .

وفى واشنطن .. دعا « والت روستو » ممثل اسرائيل لتناول طعام الغداء على مائدته وقال له : « انتظروا حتى نهاية الاسبوع المقبل قبل أن تقرروا العمل » .

ولكن المندوب الاسرائيلى لم ينبس ببنت شفة . فقد كان يعلم أن الحرب نفسها قد أصبحت مسألة ساعات .

وفى اليوم التالى (الأحد ٤ يونيو) عقد « الملك حسين » مؤتمرا صحفيا فى عمان وقال فيه : « ان اسرائيل تستطيع أن تهاجمنا خلال الثمانى والأربعين ساعة القادمة .. فهى معتادة على القيام بمثل هذه المفاجآت » .

أما فى القدس نفسها .. فقد اجتمعت الحكومة الاسرائيلية فى الثامنة صباحا وعرض عليها « آب هارمان » السفير الاسرائيلى فى واشنطن تقريره عن الموقف فى الولايات المتحدة . وفى الاجتماع اقترح « موشى دايان » وزير الدفاع أن « تعطى الحكومة سلطات مطلقة لرئيس الوزراء ولوزير الدفاع لكى يستطيعا دفع الجيش الاسرائيلى الى المعركة اذا دعت الحاجة الى ذلك » . وكان الجميع يفهمون ما يعنيه ذلك .

ورغم العبارات الغامضة التى تضمنها قرار الحكومة ، فقد كان المعنى واضحا ، وهو أن اسرائيل ستخوض الحرب . واتصل « موشى دايان » تليفونيا باسحاق رابين رئيس هيئة أركان الحرب، لكى يبلغه بقرار الحكومة .

وفى الساعة الحادية عشرة مساء ، عقد فى تل أبيب آخر اجتماع لمجلس الوزراء برئاسة « أشكول » . أما موشى دايان ، فقد رقد فى قاعة العمليات .

وقبل أن يستسلم « دايان » للنوم ، طلب من أحد مساعديه أن يمر على « بن جوريون » لكى يبلغه بقرار الحكومة : « قل له أن الحكومة وافقت على اقتراحى .. وانني أعتقد أن الحشود المصرية لها طابع هجومى » .

وعندما وصل المبعوث الى منزل بن جوريون .. فكر بن جوريون لحظة ثم قال : « هل موشى واثق من نفسه ؟ » .

— نعم ..

قال بن جوريون : فى هذه الحالة ، امنحه بركاتى !

طوال الفجر ، وفى الصباح المبكر ، من يوم الاثنين ٥ يونيو ١٩٦٧ كان يتوالى وصـــول قواد هيئـــة أركان حـــرب الجيش الاسرائيلى ، وعلى رأسهم وزير الدفاع ، الى قاعة عمليات السلاح الجوى الاسرائيلى . وهناك فى الساعة السابعة وعشر دقائق بتوقيت اسرائيل انحنى قائد سلاح الطيران نحو الميكروفون والقى بالكلمتين المتفق عليهما من قبل : « موكيد — جو » .

وأعلن المتحدث باسم الجيش للصحفيين أن الجيش الاسرائيلى يقوم بهجوم مضـــاد على اثر « التحركات المنطوية على التهديد » التى قام بها الجيش المصرى » .

واقلعت عشرات الطائرات من عدة قواعد جوية فى اسرائيل . وكانت تضم طائرات من طراز : فوتور — وميراج — وسوبر ميستير واراجون .. قد انتظمت فى تشكيلات يتكون كل منهـــا من أربع طائرات ، وقد انطلقت هذه الطائرات النفاثة طبقا لتوقيت حسب بدقة حتى الثانية الأخيرة ، بحيث تصل جميع الطائرات فى اللحظة نفسها الى أهدافها المنتشرة فى أراضى مصر وسيناء .

لقد تم اختيار ساعة الصفر بذكاء ودهاء .. فعندما تصـــل الطائرات الى أهدافها تكون الساعة قد بلغت الثامنة و ٤٥ دقيقة فى مصر (وفرق التوقيت بين القـــاهرة وتل أبيب هو ســـاعة) . واذن فان المصريين سيؤخذون على غرة .. لأنهم كانوا يعتقدون ان الهجوم الاسرائيلى الشهير سوف يأتى مع « أول ضوء فى الفجر » وما دام هذا الهجوم لم يقع فى ذلك الوقت .. فان يقظتهم سوف تضعف . كما أن الرؤية فى لحظة الهجوم ستكون رائعة ، لأن ضباب الصباح سيكون قد انقشع بفضل أشعة الشمس الأولى .

وسيكون معظم قواد سلاح الطيران المصرى فى طريقهم الى مكاتبهم أو الى معسكراتهم أو الى مواعيدهم فى المدينة . لقد كان هذا هو التوقيت المثالى للقيام بهجوم جوى .

وقد حدث ما كان متوقعا أن يحدث : فقد خفضت حالة الطوارىء فى المطارات المصرية ، وأوقف الطيارون المصريون محركات طائرات الميج ونزلوا منها الى قاعة الطعام لتناول قدح من القهوة . واقلعت من مطار غرب القاهرة ، طائرة ثقيلة ، كانت تحمل القائد العـــام للجيش المصرى الذى قرر التوجه اليوم « ٥ يونيو » الى الصحراء للقيام بجولة تفتيشية .

ومضت الدقائق والطائرات الاسرائيلية تمرق نحو أهدافها . وقد اتجهت أولا عدة طائرات مقاتلة نحو الشمال ، وحلقت على ارتفـــاع كبير فوق البحر الأبيض المتوسط ، ثم انحرفت نحـــو الغرب ، واتجهت نحو مصر . وكانت الطائرات تطير على ارتفـــاع منخفض جدا لا يتجاوز بضعة أمتار عن ذروة الأمواج .. وذلك بقصد تحاشى عيون الرادار الاليكترونية . وعندما وصلت الطائرات فوق البحر ، الى المنطقة الموازية لدلتا النيل ، انحرفت فجأة نحو الجنوب . ولم يكن أحد يتوقع أن تتخذ هذا الاتجاه الذى تسـير فيه عادة طائرات الخطوط الجوية المدنية .

أما أسراب الطائرات — التى انطلقت نحو مطارات سيناء — فقد اتخذت طريقا آخر . لقد أخذت تطير فى الأغوار وبين التلال . وهكذا مرت هى الأخرى دون أن تلحظها أجهزة الرادار المصرية . وفى الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة واربعين — بتوقيت مصر — كانت جميع الطائرات فوق أهدافها . وفى اللحظة نفسها اندفعت نحو ممرات المطارات وأمطرت الطائرات المصرية القابعة عليها برابل من الصواريخ والقذائف والقنـــابل ، كما القت قنـــابل ثقيلة على الممرات فصدعتها وأحدثت فيها فجوات واسعة . وهكذا تحولت مطارات مصر الى شعلات من اللهب والنار الضخمة .

ولم تلبث شبكات اللاسلكى بعيدة المدى الموجودة فى الطائرات الاسرائيلية ، والتى كانت صامتة حتى هـــذه اللحظة ، أن بدأت

تعمـــل من جديد فى وقت واحد . وقطع الصمت الثقيـــل المتسم بالتوتر ، والذى كان يسود قاعة العمليات الاسرائيلية بصيحات الدهشة والفرح من الطيارين .

وفى الساعة الثامنة والدقيقة العاشرة ــ بتوقيت اسرائيل ــ قطع راديو « صوت اسرائيل » اذاعته ليعلن : « فيما يلى بلاغ لمتحدث عسكرى : تدور منـــذ الصباح معارك عنيفة فى الجبهة الجنوبية بين القوات الجوية والمدرعة المصرية التى تحركت نحو اسرائيل ، وقواتنا التى اشتبكت معها لردها على أعقابها » .

وانطلقت الدبابات وبدأ الهجوم .

وبدأت حرب الأيام الستة .

* * *

فى الساعة الثانية والدقيقة الخمسين فى « نيويورك » وصـــلت التعليمات الى رئيس وفد اسرائيل فى الأمم المتحدة ، وبناء عليهـــا اتصل المندوب الاسرئيلى على الفور برئيس مجلس الأمن وطلب منه عقد اجتماع عاجل للمجلس . وقد سبقه بعشرين دقيقة عدوه اللدود « محمد عوض القونى » مندوب مصر ، الذى قدم هـــو الآخر طلبا لرئيس المجلس بعقد اجتماع عاجل .

وقبل ذلك بـــ ١٢ دقيقة .. التقط أحـــد أجهزة البرقيـــات فى « قاعة الأخبار » فى بدروم البيت الأبيض ، أول نبأ عاجل .. لقد اتصل الضابط النوبتجى على الفور بـــ « والت روستو » وأبلغـــه بالنبأ وقال روستو : « افحص الأخبار وعاود الاتصال بى » . وخلال دقائق كانت قد وصلت أنباء أخرى : لقد نشبت الحرب .

وعقب الساعة الثالثة بقليـــل ، بتوقيت واشنطن ، وصـــل « دين راسك » الى مبنى وزارة الخارجية ، وأسرع نحـــو قاعة العمليات التى يطلق عليها اسم « المخزن الساخن » وهى توجـــد بالدور الثامن من هذا المبنى الضخم . وهذه القاعة على اتصـــال

مستمر مع قاعة العمليات الموجودة بوزارة الدفاع ، ومع « قاعة الموقف » التى توجد بالبيت الأبيض . وفك « راسك » رباط عنقه وأمسك بالبرقيات التى وصلت من الشرق الأوسط ، وبدأ يدرسها وهو يحتسى قهوة ساخنة . وبسرعة تم تنظيم العمل على شكل مجموعات . وكانت كل مجموعة مؤلفة من عشرة رجال يحل غيرهم محلهم كل ٦ ساعات . وأخذ « المخزن الساخن » يتلقى سيلا من الأنباء من وكالة المخابرات المركزية ومن وكالات الأنباء الصحفية من وزارة الدفاع ومن البيت الأبيض .

وكان « والت روستو » على اتصال دائم من « قاعة الموقف » فى البيت الأبيض مع راسك ومكنمارا . وفى الساعة الرابعة والنصف صباحا قرر كل هؤلاء أنه يجب ايقاظ الرئيس جونسون .

وقال روستو لجونسون :

ــ لقد نشبت الحرب فى الشرق الأوسط .. ثم أضاف الى ذلك بعض التفاصيل المتعلقة بالهجوم الجوى الذى وجه الى المطارات المصرية .

وكان الرئيس الامريكى هادئا جدا وفى غاية التحفظ . وكان أول سؤال له « كيف بدأ ذلك ؟ من الذى أطلق النار أولا ؟ وأجاب روستو : « ان هذا ليس واضحا حتى هذه اللحظة » . ثم التفت نحو أحد مساعديه وقال له : « ابحث على الفور كيف بدأ ذلك . اننى أريد أن أعرف من الذى بدأ القتال » .

واتصل « راسك » تليفونيا بجونسون واقترح عليه ارسال خطاب الى « جروميكو » . ووافق « جونسون » وكان مضمون الرسالة معتدلا . وقد أعرب وزير الخارجية الأمريكية فى هذه الرسالة عن أسفه لنشوب القتال فى الشرق الأوسط .. وأشار الى أن الولايات المتحدة .. لا تزال تتمسك بشدة بمبدأ السلامة الاقليمية والاستقلال بالنسبة لجميع الدول فى هذه المنطقة من العالم ، وتأمل ان يتوقف القتال فى أقرب وقت ممكن . وأضاف « راسك » ان الولايات المتحدة ترغب فى وقف اطلاق النار على

الفور . وقال انها ستتدخل لدى الحكومات المعنية ، وكذلك فى نطاق الأمم المتحدة . وأعرب « راسك » عن أمله فى أن يتخذ الاتحاد السوفيتى من جانبه موقفا مماثلا . وارسلت الرسالة فى برقية عاجلة الى « أندريه جروميكو » فى موسكو .

وفى **باريس** .. استولى على الجنرال ديجول غضب شديد وقلق عميق عندما علم أن الحرب قد نشبت . أما الغضب .. فيرجع الى أن النصائح التى بذلها لاسرائيل ومصر لم تجد آذانا مصغية ، وقد قال لجورج بومبيدو ـ الذى استدعى على عجل الى قصر الأليزيه ـ : « انهم لم يصغوا الى نصيحة فرنسا » .

أما القلق فلأن ديجول كان يخشى تفاقم الموقف . وقد قال رئيس الجمهورية الفرنسية لأحد مستشاريه : « ان الاسرائيليين هم الأقوى . وليس ثمة شك فى أنهم سيحرزون خلال الأيام الأولى انتصارات باهرة . ثم بعد ؟! .. ان تقدمهم سوف يبطىء ، ثم ينتهى بهم الأمر بأن يغوصوا فى البحر العربى الذى يحيط بهم من كل جانب . وسوف يشن العرب هجوما مضادا ويردون الاسرائيليين على أعقابهم نحو أراضيهم بل انهم ربما يستطيعون التوغل فى اسرائيل . وعندئذ ستجد الولايات المتحدة نفسها مضطرة الى التدخل للدفاع عن الاسرائيليين ، مما قد يؤدى بالتالى الى تدخل السوفيت الى جانب العرب . وهكذا فان الصراع قد يسفر عن مجابهة بين الدولتين العظيمتين ، بل قد يؤدى الى حرب عالمية » .

وكان من رأى « ديجول » أن فرنسا يجب أن تبذل كل ما فى وسعها لوقف القتال ، أو على الأقل لتحديد نطاقه . وقد تصرفت فرنسا فعلا لتحقيق هذا الهدف . ففى هذا الصباح صدر بلاغ رسمى بناء على أمر « ديجول » يعلن حظر جميع شحنات الأسلحة للشرق الأوسط . واذن ... فبعد الحظر السرى الذى فرضته فرنسا على اسرائيل منذ يومين جاء الحظر الرسمى .

وفى **البيت الأبيض بواشنطن** .. كانت المبرقات الكاتبة الموجودة فى « قاعة الموقف » تقذف بأعداد متزايدة من البرقيات المتعلقة

بالشرق الأوسط . وقدمت مختلف فروع هيئة الاستعلامات الامريكية ، تقريرا عاجلا الى « الرئيس جونسون » . وكان أساطين الجاسوسية على يقين من أن اسرائيل ستحرز النصر خلال أربعة أو خمسة أيام . وقد رأوا أن الاسرائيليين لا يحتاجون الى أكثر من ٢٤ ساعة لتحطيم الطيران المصرى وهو جاثم على الأرض .

وفى الساعة السابعة .. قرأ « جورج كريستيان » السكرتير الصحفى للبيت الأبيض ، البيان الأول الذى يتضمن الاعراب عن أسف الرئيس جونسون لنشوب القتال ، كما تضمن البيان نداء بوقف اطلاق النار على الفور .

وأرسلت برقيات عاجلة ، الى الملحقين العسكريين والدبلوماسيين الأمريكيين فى القاهرة وتل أبيب ، طلب منهم فيها الاجابة على هذا السؤال : « من الذى أطلق النار أولا ؟ » .

وحوالى الساعة الثامنة كف مساعد « روستو » عن البحث عن المدفع الذى أطلق أول قنبلة . وقال له رؤساؤه ان هذه المسألة لم تعد موضع اهتمام فى الوقت الحالى .

واستدعى « جونسون » « جولد برج » مندوب أمريكا فى الأمم المتحدة و « مكنمارا » وزير الدفاع . وأصدر بنفسه تعليمات الى « جولد برج » بأن يقترح على مجلس الأمن وقف اطلاق النار على الفور . وطلب من « مكنمارا » أن يضع بصورة عاجلة جميع الوحدات الامريكية فى المنطقة فى حالة تأهب .

ولم يكلف « جونسون » نفسه مشقة النهوض من فراشه وارتداء ملابسه ، فقد كان فى هذا الوقت من الأزمة ، يدير شئون أمريكا من على سريره .. والى جانبه تليفونه الخاص .

وفى الساعة السابعة والدقيقة ٥٩ دق التليفون ، وكان المتحدث هو « والت روستو » . وبعدها نهض الرئيس الأمريكى والتفت

الى ســـكرتيره وقال له : يجب ان أنزل الى « قاعة الموقف » فقد تسلمنا عن طريق « التليفون الأحمر » رسالة من كوسيجين .

ان « التليفون الأحمر » ــ هذا التليفون الغامض ــ يتألف فى الواقع من أربع آلات كاتبة مبرقة .. اثنتين فى الكرملين فى موسكو ــ والاثنتين الاخريين فى وزارة الدفاع الامريكية بواشنطن . وهكذا .. فان كلا من العاصمتين تملك جهازين يتصلان ببعضهما بخط مباشر مع توأميهما فى الدولة الأخرى . واحد الجهازين روسى مزود بحروف روسية .. بينما الاخر أمريكى مزود بحروف لاتينية . وعن طريق هذه المبرقات الكاتبة .. يستطيع زعماء الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الاتصال ببعضهما فى أى وقت ، والتشاور معا فى حالة وقوع أزمة عالمية يخشى أن تتحول الى نزاع خطير . ومنذ أنشىء الخط الأحمر فى ٣٠ اغسطس ١٩٦٣ ، فانه لم يستخدم مطلقا الا فى نتائج مباريات الكرة الطائرة ، ونقل خلالها الاخصائيون السوفيت الى واشنطن عبارات مأخوذة من كتاب «مذكرات رسام» لتورجنيف .

ولكن الموقف اليوم خطير . فى هذا الصباح استيقظت فجـأة الآلات المبرقة الكاتبة الموجودة فى وزارة الدفاع الأمريكية وسجلت الكلمات التالية : « ان كوسيجين رئيس مجلس الوزراء يسأل اذا كان الرئيس جونسون موجودا على الخط .. »

ثم توقف الجهاز الأوتوماتيكى برهة قبل أن يستأنف الكتابة .. « نرجو أن تنقلوا للرئيس جونسون الرسالة التالية .. »

ونزل جونسون بخطوات سريعة الى « قاعة الموقف » وجلس على مقربة من مائدة المداولات . وفى اللحظة نفسها سقطت رسالة كوسيجين التى كانت عبارة عن بضعة سطور مكتوبة على ورقة صفراء من انبوبة التفريغ الى داخل الوعاء المعدنى . بعد ثوان وصلت الترجمة الانجليزية للرسالة . وكانت الرسالة قصـيرة ، ونظرة واحدة اليها كانت كافية لادخال الطمأنينة الى قلب جونسون الذى قال حينئذ .. « لن تقع حرب عالمية » .

ان « كوسيجين » أكد فى رسالته ، أن الاتحاد السوفيتى يعارض بشدة الحرب والعدوان . ثم القى بمسئولية نشوب القتال على اسرائيل وطلب من الولايات المتحدة أن تستخدم كل نفوذها لدى

الحكومة الاسرائيلية ، وأن تحذرها من العواقب المفجعة التى قد تنجم عن أعمالها . وأضاف كوسيجين .. أن الاتحاد السوفيتى يقف الى جانب الشعوب العربية المحبة للسلام . وقال : انه اذا اشتركت الولايات المتحدة فى الحرب الى جانب اسرائيل فان الحكومة السوفيتية ستصدر أوامرها فورا الى قواتها المسلحة لتقدم عونها العسكرى الى الدول العربية ولتوقف العدوان الامبريالى .

وقد كانت هذه الرسالة ، لا تعدو أن تكون طريقة لبقة ، يقصد بها القول للامريكيين : « اننا لا نريد الحرب ومن الأفضل لكم ولنا أن نظل خارج هذا الموضوع كله » .

وخلال فترة قصيرة ، رد « جونسون » على « كوسيجين » ، وقال فى رده : « اننا لا نملك معلومات عمن بدأ القتال ، ويجب أن تتعاون كل من موسكو وواشنطن حتى تحصلا على وقف اطلاق النار فى الحال واعادة السلام » .

وفى اليوم نفسه ٥ يونيو .. تسلم كوسيجين رسالة اخرى من ديجول عن طريق « الخط الأخضر » وهو نظير « الخط الأحمر » بين باريس وموسكو . وأعرب « الجنرال ديجول » فى رسالته عن قلقه البالغ من أجل سلام العالم فى أعقاب أحداث الشرق الأوسط .. وكرر اقتراحه المعتاد بعقد لقاء عاجل بين الدول الكبرى لحل مشكلات المنطقة واجبار الأطراف المعنية على وقف اطلاق النار والانسحاب داخل حدودها .

وفى واشنطن .. بدأت الأنباء تتوالى عن اتساع جبهة القتال وعن امتداد القتال الى الحدود الأردنية والحدود السورية . وعندما أصبحت الساعة السابعة فى موسكو ، والثانية عشرة فى واشنطن ، بدأ « الخط الأحمر » أو « الخط الساخن » يعمل من جديد بين موسكو وواشنطن . ان الجهاز لا ينقل فى هذه المرة رسالة عادية من كوسيجين ، بل انذارا . أن نص هذه الرسالة يعيد الى الأذهان .. الرسائل الشهيرة التى بعث بها الاتحاد السوفيتى الى كل من انجلترا وفرنسا واسرائيل أثناء أزمة قناة السويس فى الخامس من نوفمبر ١٩٥٦ .

واحدثت الرسالة ــ فى هــذه المرة ــ تأثيرا بالغا وجــزعا حقيقيا فى البيت الأبيض ، واصبح العالم مهددا من جديد بحرب ذرية يمكن أن تنشب فى أى لحظة . واحتفظ « جونسون » بهــدوء اعصابه ، وراح يضع مع « والت روستو » اسس خطة عمــل على مرحلتين . وبدأ جونسون بأن أرسل رسالة الى موســكو يؤكد فيها تسلمه لرسالة كوسيجين . وفى الوقت نفسه أصدر أوامره الى جميع وحدات الأسطول السادس الأمريكى فى البحر الابيض المتوسط بالاتجاه صوب منطقة المعارك .

وفى خلال بضع دقائق .. كانت عشرات السفن الحربية وحاملات الطائرات الأمريكية تتجه بسرعة صوب شواطىء سيناء . وكان ذلك بمثابة مظاهرة كبرى من مظاهرات القوة ، وعندما وصــلت الى موسكو أنباء هذه التحركات ــ وكان هذا ما يريده جونسون ، الذى بدأ بعد ذلك يكتب بيده ، بمساعدة والت روستو ، رســالة الى كوسيجين أشار فيها الى تعهدات الحكومة الأمريكية بالمحافظة على استقلال اسرائيل . وفى تلك اللحظات .. لم يكن العالم فى أى وقت مضى ــ منذ أزمة كوبا ــ على مقربة هكذا من الحرب النووية .

ان « جونسون » لم يخاطر بالحرب الذرية من أجل « ســواد عيون » اسرائيل ، بل خضع لاعتبارات منطقية بحتة . فقد انهالت على البيت الأبيض ــ طوال فترة الصباح ــ البرقيات التى تبرز الانتصارات المذهلة للجيش الاسرائيلى : أولا الهجوم الجوى ثم التقدم بسلاح المدرعات . ولهذا فلقد كان واضــحا أن العرب سيطلبون مساعدة حليفهم الرئيسى : الكرملين . وادرك « ليندون جونسون » انه اذا نجح فى تجميد نشاط السوفيت ومنع تدخلهم فى المعارك .. فان هزيمة العرب أمــام الاسرائيليين سيفسرها العالم على أنها هزيمة منكرة للاتحاد السوفيتى ، تفوق هزيمــة كوبا سنة ١٩٦٢ . كما أدرك أيضا .. ان العالم العــربى الذى لحقته الهزيمة فى الحرب ، سيشعر بخيبة أمل كبيرة تجاه موســكو وهكذا سيكون الروس فى نهاية الأمر هم أكبر المهزومين فى الحرب الاسرائيلية العربية . أن جميع الأسباب تحمل لندون جونســون على أن يتمنى النصر لاسرائيل .

وفى الوقت نفسه الذى كانت فيه الرسائل تطير بين واشنطن والكرملين ، وقع حادث « فنى » بوزارة الخارجية الأمريكية . لقد عقد المتحدث الرسمى مؤتمرا صحفيا شرح فيه موقف أمريكا فى الأزمة بقوله : « اننا محايدون بالفكر والقول والعمل » . ولم يكن المتحدث الأمريكى يعلم أنه ألقى بقنبلة ! .

فقد انهالت فى الحال المكالمات التليفونية الغاضبة على البيت الأبيض ، وعشرات الآلاف من البرقيات ، كما وصلت احتجاجات من القادة الأمريكيين واليهود . وعندما علم « جونسون » بالسبب .. اجتاحه غضب شديد ، وقرر اذاعة بيان يضع الأمور فى نصابها فورا .

وفى الحال .. هرول المتحدث الرسمى ليجمع الصحفيين ويقول لهم : ان التعبير السابق .. لم يكن يعنى أن أمريكا تقف موقف الحياد وعدم المبالاة .. بل المقصود هو أن مريكا ليست محاربة .

ولم يكتف جونسون بذلك ، بل استدعى « دين راسك » وطلب منه أن يؤكد هذا التكذيب أمام الصحافة .

* * *

فى موسكو .. كان المكتب السياسى ــ وهو أهم هيئة فى الحياة السوفيتية ــ منعقدا منذ الصباح . وكان فى جدول أعماله مسألة واحدة هى : الحرب فى الشرق الأوسط . وكانت المعلومات التى وصلت الى موسكو متفرقة مشوشة . ولم يكن السوفيت فى البداية يعرفون من الذى بدأ القتال وأين توجد الجبهة ومن الذى كسب ومن الذى خسر . وخلال ساعات ، كان الموقف قد بدأ يتضح للسوفييت شيئا فشيئا . وبعد ثمانى ساعات من المناقشات المستمرة .. رفع المكتب السياسى جلسته أن رد فعل الولايات المتحدة الحاد على رسالة كوسيجين من شأنه ان يمنع من الآن فصاعدا أى تدخل عسكرى سوفييتى . وانتصر المعتدلون من أعضاء المكتب السياسى ، واتخذوا قرارات فى نهاية الاجتماع : سوف لا يصوت الاتحاد السوفيتى فى الأمم المتحدة على قرار بوقف اطلاق النار ، الا اذا تضمن هذا القرار نداء للأطراف المعنية بأن تسحب قواتها من الأراضى المحتلة . وفى

الحقيقة .. لا تستهدف مثل هذه التوصية سوى اسرائيل ، التى توغل جيشها فى الأراضى المصرية .

اما القرار الثانى .. فكان قرارا سريا وهو : أن العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل سوف تقطع اذا استمرت هذه الدولة فى اعتداءاتها . أن قطع العلاقات الدبلوماسية هو عمل مظهرى . ولكى يكون لـه وزن ، فيجب أن تقوم به جميع دول الكتلة الشيوعية . ولم يكن قادة الاتحاد السوفيتى واثقين من أن الدول الديمقراطية الشعبية ستتبع كلها مثل هـذا القرار الذى اتخذه الكرملين . فرومانيا تنتهج منذ فترة بعيدة سياسة مستقلة ، وتحاول بولندا — بحذر — أن تسير على منوالها . وحتى تتأكد روسيا من أن جميع دول الكتلة الاشتراكية ستتبع توجيهات موسكو ، قررت استدعاء رؤسائها على عجل لحضور اجتماع سرى للغاية فى العاصمة السوفيتية .

* * *

وفى مجلس الأمن .. اقترح « آرثر جولد برج » المندوب الامريكى .. وقف اطلاق النار بلا قيد أو شرط ، ولكن العرب رفضوا الموافقة على قرار لوقف اطلاق النار لا ينص على سحب القوات فورا . واعترض جولد برج : « أن العودة الى المواقع السابقة — أى مواقع ٤ يونيو — هى اقرار لاغلاق خليج العقبة ».

وفى الوقت نفسه الذى استولى فيه الجيش الاسرائيلى على خان يونس ورفح والعريش ، قررت الحكومة الاسرائيلية أن يسافر « أبا ايبان » الى نيويورك ليشترك فى مناقشات مجلس الأمن — كما قررت الاستيلاء على غرب الأردن . أما على الجبهة المصرية .. فسوف يتم الانتقال الى المرحلة الثانية من الهجوم بعد فتح ممرات سيناء ، وهى الاستيلاء على شرم الشيخ وابادة الجيش المصرى فى سيناء . فقد كانت التعليمات واضحة أمام الضباط الاسرائيليين : « ان المصريين فى حالة ذهول ، اذ أن قادتهم قد أشعلوا فيهم الحماس حتى وصلوا لحالة من الهستيريا الجماعية . فاذا تمكنا — منذ الالتحام الأول — أن نلحق بهم هزيمة مرة .. فان روحهم المعنوية سرعان ما تنهار ، ولهذا فان المعركة الأولى هى الحاسمة » .

وفى الوقت نفسه .. اذاع راديو القاهرة بيانا خاصا فى السابعة و ٣٧ دقيقة من صباح الثلاثاء ٦ يونيو جاء فيه : « أيها الاخوة المواطنون .. ان القيادة العليا المسلحة تعلن أن لديها ادلة اكيدة على أن القوات الجوية الأمريكية والبريطانية تشتركان فى الاعتداء الاسرائيلى . ان لدينا أدلة على أن حاملات الطائرات الأمريكية والانجليزية تقوم بعمليات واسعة المدى الى جانب اسرائيل ، وعلى الجبهة المصرية .. أقامت الطائرات الأمريكية والانجليزية غطاء جويا فوق القوات الاسرائيلية . أما على الجبهة الاردنية ، فان هذه الطائرات تشترك فى عمليات مباشرة ، وان محطات الرادار لديها الاثبات الكافى » .

أما فى موسكو .. فقد اجتمع المكتب السياسى من جديد فى جلسة طويلة ومكتئبة ، فقد تم ابادة القوات الجوية العربية وتم تدمير المطارات وانهارت الجبهتان المصرية والأردنية .

وبعد الظهر .. بعث كوسيجين برسالة الى البيت الابيض جاء فيها : أن الاتحاد السوفيتى موافق على التصويت على قرار وقف اطلاق النار بدون شرط . وخلال فترة قصيرة — أى فى الساعة السابعة وعشر دقائق مساء — وافق مجلس الأمن بالاجماع على قرار من أقصر القرارات التى أصدرها فى تاريخه ، وهو : مطالبة جميع الحكومات المعنية بأن تتخذ جميع الاجراءات اللازمة لوقف اطلاق النار ولانهاء جميع العمليات العسكرية فى الشرق الأوسط .

لقد ابتهج « أبا ايبان » من نتيجة التصويت ، فصرح بأن اسرائيل تشترط لتطبيق القرار أن يوافق عليه الطرف الآخر . وأعلن الممثلون العرب الواحد تلو الآخر انهم يرفضون قرار مجلس الأمن .

واستمرت الحرب .

* * *

كان ثالث أيام الحرب .. يتميز بسباق الدبابات الجنونى فى سيناء . لقد كان الهدف الاسرائيلى مزدوجا : سحق حشود

الدبابات المصرية ، واغلاق طريق الهروب الموصل الى الضفة الأخرى لقناة السويس ، لكى تتحول سيناء الى فخ ضخم للجيش المصرى .

وفى الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم الرابع للقتال (٨ يونيو) كانت سفنية التجسس « ليبرتى » تمر فى البحر الأبيض المتوسط جيئة وذهابا على بعد ١٧ ميلا بحريا من العريش . وتعرف السفينة ليبرتى فى الأرشيف السرى للبحرية الأمريكية باسم « البنك ليبرتى » وهو تعبير يرمز الى «المخابرات الالكترونية» ويمتلىء جوف السفينة بالمترجمين والفنيين وضباط المخابرات .. الذين تم انتقاؤهم « على الفرازة » . وكانت مهمتهم الاستماع الى الاشارات اللاسلكية للجيش الاسرائيلى والجيش المصرى فى سيناء وفك رموزها . وكانت السفينة خاضعة مباشرة لوكالة المخابرات المركزية وتعمل بطريقة مستقلة .

وفجأة ظهرت طائرتان اسرائيليتان من طراز (ميراج) فى السماء وأخذتا تحلقان حول السفينة ، وانقضتا عليها وهاجمتاها بالصواريخ والقنابل والمدافع . وبعد ذلك بقليل وصل الى مكان السفينة ثلاث من سفن الطوربيد وبدأت فى مهاجمة السفينة . ومالت السفينة لدرجة خطيرة ، ولكن طاقمها أسدل على الفور حواجز ثقيلة من الصلب ، أغلقت بطريقة محكمة الجزء الذى أصيب ، وحالت دون وتسرب المياه الى داخل السفينة فلم تغرق .

وفجأة .. رفع علم أمريكى كبير على السارى الضخم لليبرتى ، وأصبح واضحا أن الاسرائيليين أصابوا احدى سفن البحرية الأمريكية . ولم يبق أمام الاسرائيلين الا أن يقدموا اعتذارهم عن هذا الهجوم الذى كلف ٣٤ بحارا أمريكيا حياتهم فى نهاية الأمر .

وتبلور أكثر جوانب هذا الحادث ايلاما على بعد عدة آلاف من الكيلومترات .. فى البيت الأبيض الأمريكى ..

لقد وصلت رسالة عاجلة بشأن الحادث بعد التاسعة صباحا بقليل ــ بتوقيت واشنطن ــ وكانت الرسالة قصيرة جدا : « هوجمت سفينة أمريكية وأصيبت فى البحر الأبيض المتوسط » .

وكان الرئيس جونسون بقـــاعة الموقف مع بعض مستشاريه ومعهم ماكنمارا ودين راسك . واحدثت البرقية فعل القنبلة .. !

لقد كان جونســـــون يستبد به خوف عميق من احتمـــال أن تقوم سفينة سوفيتية بمهاجمة احدى سفن الاسطول السادس الأمريكى . ولمدة بسيطة ، كان مكنمارا وراسك وجونسون .. مقتنعين بأن السفينة الأمريكية قد اصابتها غواصة سوفيتية . ووفقا لأقوال أحد الذين شهدوا هذا الاجتماع ، فان تلك كانت أرهب لحظات ازمة يونيو كلها وأخطرها . لقد قال جونسون : « ربما كنا على شفا الحرب العالمية الثالثة » .

وفى اللحظة نفسها .. اجتاح شاشات رادار السفن السوفيتية فى البحر الأبيض المتوسط عدد كبير من النقاط المضيئة . انهـــا أطياف عدة عشرات من الطائرات الأمريكية التى تحلق لانشـــاء ستار واق حول السفينة « ليبرتى » ولضرب من أصابها ردا على ما قام به . وساد البيت الأبيض اضطراب متسم بالعصبية . لقد أصبح واجبا أن يوضع الجيش الأمريكى كله فى حــالة استعداد وكذلك القيادة الجوية الاستراتيجية ، بل وربما قواعد الصواريخ الأمريكيـــة .

هل هى الحرب حقـــا ؟ !

ان اللحظات القصـــيرة ، التى انقضت منــذ تلقى البرقية ، تشبه كابوســـا جنونيـــا . ثم وصلت برقية ثانية ، من الحكومة الاسرائيلية مبـــاشرة . لقـــد أحاط الاسرائيليون رئيس الولايات المتحدة علما بأنهم هاجموا بطريق الخطأ سفينة أمريكية من الجو والبحر . واعربوا عن أسفهم العميق لهذا الحادث المؤسف . وبهت الرئيس الأمريكى .. فقد كان بوسع الروس ، وربمـــا المصريين ، ان يهـــاجموا السفينة « ليبرتى » . أما أن يفعل ذلك الاسرائيليون ؟ ... ورغم ان فقدان السفينة قد أذهل لينـــدون جونســـون فانه تنفس الصـــعداء . ان الروس لم يهـــاجموا .. والحرب العالمية لم تقع .

هذا .. علما بأن خطرا آخر كان يتهيأ فى تلك اللحظة . فالسفن السوفيتية فى البحر المتوسط كان عليها أن تخطر موسكو بالتحليق المفاجىء لعشرات من الطائرات الأمريكية التى اتجهت الى سيناء ، ولابد من تهدئة السوفييت . ولأول مرة يستخدم الخط التليفونى الاحمر بمبادأة من جانب الولايات المتحدة . وحرر والت روستو ، وروبرت مكنمارا ، على جه السرعة ، رسالة الى السوفييت . وهكذا أحيط كوسيجين علما بأن الاسرائيليين قد هاجموا بطريق الخطأ سفينة أمريكية فى البحر المتوسط ، وأن الطائرات الأمريكية قد حلقت من حاملات طائرات مختلفة لمساعدة السفينة الأمريكية ، وأن مهمة هذه الطائرات دفاعية بحتة وليست لها أهداف هجومية ضد الوحدات السوفيتية ، ولا ضد القوات المتقاتلة فى سيناء .

وبعد ذلك بقليل .. أفاد الكرملين أنه تلقى الرسالة ، وأنه يقبل الرواية الأمريكية للحادث .

ان تطورات الحرب تتلاحق بسرعة .. فقد استولى الاسرائيليون على الضفة الغربية لنهر الأردن بأكملها ، واستولوا على سيناء . لقد قبلت الأردن وقف اطلاق النار وقبلت مصر ، وبدأت النيران تتزايد على الجبهة السورية .. فى هضاب الجولان .. لقد شنت القوات الاسرائيلية هجومها على خمس نقاط مختلفة فى آن واحد . وتختلف الصورة العامة للمكان عنها فى سيناء ، فلا وجه للمقارنة بينهما من حيث الأرض ولا التحصينات . فالحصون المصرية كانت تبدو منيعة .. ولكن حصون السوريين أقوى بكثير . وتبدو الهضبة وكأنها تشكل حصنا واحدا ، يضم جيوبا جوفية متعددة الطبقات ، وجدرانا سميكة من الخرسانة ، وأبراجا خرسانية وخنادق لا تنتهى ، وحقول ألغام ومواقع للمدرعات والمدفعية .

ومع تطور الموقف على الجبهة السورية .. وصلت رسالة من موسكو الى اشنطن عن طريق « الخط الاحمر » . وهرع « والت روستو » الى بدروم البيت الأبيض . ان هذه الرسالة التى وصلت من موسكو تختلف كثيرا عن الرسالات السابقة . ان الموقف

يختلف اليوم ، فالاسرائيليون قد توغلوا فى الأراضى السورية ، والاتحاد السوفيتى قد عقد العزم على انقاذ الموقف . ان الرسالة التى نقلها « كوسيجين » الى واشنطن هذا الصباح (١٠ يونيو) تتضمن تهديدا صريحا : « اذا لم يوقفه الاسرائيليون فورا عدوانهم ضد سوريا ، فان الاتحاد السوفيتى سيتدخل فى النزاع لوقف المعتدى . ان الجيش الاسرائيلى الذى يتقدم نحو دمشق يستعد لقلب نظام الحكم الديمقراطى فى سوريا ، وهذا امر لن يسمح به الاتحاد السوفييتى . وقد أصــدرت أوامر بهذا المعنى الى القوات السوفيتية التى سوف تقوم باجراء عملى بأسرع ما يمكن » .

ان الرسالة خطيرة للغاية .

ويتخذ البيت الأبيض قرارا : لابد من وقف الاسرائيليون .

ويتلقى ســفير الولايــات المتحــدة فى تل أبيب مكالمة تليفونية تنذره بالخطر ، كى يتدخل لــدى الاسرائيليين ليطلب منهم وقف اطلاق النار بأسرع ما يمكن . ومنذ ايام قليلة .. كان خبراء وزارة الخارجية الأمريكية يسألون الاسرائيليين كل صباح : متى تهاجمون سوريا ؟ . اذ أنه لو كان هناك نظام حكم تود الولايات المتحدة أن تشهد سقوطه ، فهو بالتأكيد نظام دمشق المؤيد للشــيوعية . ولكن كل شىء قد تغير حالا ، اذ أن الروس قد يتدخلون فى الحرب بين لحظة وأخرى

ولا يرى « الجنرال هويلر » رئيس هيئــة أركان الحــرب المشتركة لجيش الولايات المتحدة هــذا الرأى ، فقد قال : « ليس علينا أن نخشى قيام السوفييت بعمل ما . ان السوفييت لا يملكون وحدات كبيرة سريعة الحركة تستطيع التدخل على الفور فى المعارك الدائرة فى الشرق الأوسط . لقد أعلنوا حالة الطوارىء فى صفوف فرق المظلات السوفييتية ، لكنهم يدركون مدى خطورة استخدامها فى هذا النزاع » .

* * *

وفى مجلس الأمن .. كانت العاصفة ، فمنذ الرابعة والنصف صباحا كانت الوفود فى اجتماع طارىء . وفى الســاعة التاسعة

والنصف ـــ بتوقيت نيويورك ـــ طلب المندوب الأمريكى « جولد برج » الى مندوب اسرائيل ان ينضم اليه على وجه السرعة خارج قاعة الاجتماعات .. فقـد تلقى المندوب الأمريـكى لتوه مكالمة تليفونية من البيت الأبيض الذى نقل اليه نص الرسـالة السوفييتية المبلغة عن طريق التيلفون « الأحمر » .

لقد قال « جولد برج » لمندوب اسرائيل : « ان الموقف خطير جدا . ففى خلال لحظات سوف يعلن المندوب السوفييتى أن بلاده سوف تتدخل عسكريا فى الشرق الأوسط اذا لم توقفوا تقدمكم فى سوريا . وليس بوسع الولايات المتحدة أن تقف موقف اللامبالاة من مثل هذا التصريح .. حتى ولو لم ينفذ هذا التهديد ، اذ أن الجميع سوف يعتقدون أن اسرائيل والولايـات المتحـدة قـد استسلمتا أمام تهـديد الاتحاد السوفييتى ، وعليه .. ينبغى أن تعلنوا على الفور أن بلادكم تقبل وقف اطلاق النـار على الجبهة السـورية . افعل ذلك على مسئوليتك . ان كل دقيقـة لهـا قيمتهـا » .

ولكن المندوب الاسرائيلى لم يفعل ذلك على مسئوليته .

فبعد قليل .. اخطرته الحكومة الاسرائيلية تليفونيـا ، بأن يقبل وقف اطلاق النار بعد أن كانت قد انتهت من الاستيلاء على الجـولان .

لقد انتهت حرب الأيام الستة .

بناء الجيش الإسرائيلى

بقلم : إيجال آلون

هـذا الكتاب ..

وهذا المؤلف ..

عندما نحاول أن نفهم التفكير العسكرى الاسرائيلى .. فان أكثر اثنين يعبران عن هذا التفكير هما : موشى دايان وزير الدفـاع الاسرائيلى ، وايجال آلون نائب رئيسة وزراء اسرائيل .. وهو فى الوقت نفسه مؤلف هذا الكتاب .

ان المؤلف يعتبر من الجيل الصهيونى الثانى الذى نشأ فى ارض فلسطين . فلقد ولد فى سنة ١٩١٨ ودرس الزراعة فى الجـامعة العبرية ، ثم درس فى جامعة أكسفورد .

ولقد بدأ النشـاط العسكرى للمؤلف عندما عمل فى منظمة « الهاجاناه » منـذ سنة ١٩٣١ ، وهى المنظمة السرية المسلحة التي أقامتها المنظمة الصهيونية فى فلسطين ، وأصبحت بعد ذلك نواة الجيش الاسرائيلى عندما أعلن قيام دولة اسرائيل .

وقد تطور التاريخ العسكرى « لايجال آلون » بعد ذلك .. الى أن عين قائدا لقوات « البالمـاخ » .. التى كانت تقوم بالعمليات العسكرية الخاصة ضد العرب .

وفى « حرب ١٩٤٨ » تولى قيـادة قوات اسرائيل فى الجليل الأعلى ووسط فلسطين ومحور القدس ، ثم تولى قيادة الاحتياط، وبعدها زعامة حزب « أحدوت هاعفودا » .

الى جـانب ان « ايجـال آلون » أصبح وزيرا فى الحكومـة

الاسرائيلية منذ ١٩٦١ ونائبا لرئيس الوزراء الاسرائيلى .. وظل واحدا من الشخصيات الرئيسية فى اسرائيل .

وفى هذا الكتاب .. يركز المؤلف على تناول النظريات العسكرية، ويتابع تطورها منذ بدأت المنظمات الصهيونية فى فلسطين نشاطها المسلح ضد العرب قبل الحرب العالمية الأولى .. مع التركيز على اسلوب تطبيق هذه النظريات خلال الحروب الثلاثة التى بدأتها اسرائيل ضد العرب فى ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ .

والكتاب .. هو واحد من الكتب التى كان محظورا حتى الآن تداولها فى مصر والدول العربية .

* * *

أنشىء « جيش الدفاع الاسرائيلى » بصفة رسمية فى يوم ٢٧ يونيو سنة ١٩٤٨ . ولكن القوة العسكرية الاسرائيلية كانت فى الواقع قد تكونت ـ بصفة غير رسمية ـ قبل ذلك بوقت طويل .. امتد من أيام المجموعات التى تكونت من جماعات صغيرة من رجال الحراسة الى أن تطورت الى جيش حديث استطاع أن يكسب « حرب الأيام الستة » .

ان التكوين الحقيقى للجيش .. بدأ مع قيام منظمة «الهاجاناه» ـ وهى كلمة عبرية معناها الدفاع . وقد أطلق الاسم على المنظمة السرية المسلحة التى أقامها مجتمعنا اليهودى فى فلسطين فى ظل حكم الانتداب البريطانى . فبعد صدور « وعد بلفور » تكونت أولى الكتائب اليهودية داخل الجيش البريطانى الذى يقاتل فى مسرح أحداث الشرق الأوسط خلال سنوات الحرب العالمية الأولى . وكانت هذه الكتائب مكونة من متطوعين ومجندين يهود.. من فلسطين وبريطانيا وأمريكا زودوا الشباب اليهودى بفرصتهم الأولى لاكتساب مران عسكرى وتنظيم أفضل . واستطاعت هذه الكتائب ـ أيضا ـ أن تجمع كمية معينة من الأسلحة الخفيفة التى ثبت فيما بعد أنها ذات فائدة كبيرة .

وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى مباشرة ، فرض الانتداب البريطانى على فلسطين ، نيابة عن عصبة الأمم ، وبدأ تطبيق

اجراءات « وعد بلفور » الخاص بحق اليهود فى الهجرة والاستيطان فى فلسطين ، وخلق وطن قومى لليهود هناك . ومنذ ذلك الحين .. بدأ التوتر بين العرب واليهود يأخذ طابعا سياسيا أكثر من ذى قبل ، وقد أثر الوضع الجديد تأثيرا واضحا على تطوير النظام العسكرى اليهودى .

وقد تميزت الفترة بين ١٩٢٠ و ١٩٣٩ بسلسلة من الهجمات المتبادلة بين العرب واليهود . أما موقف السلطات البريطانية .. فقد كان يسمى بموقف الحياد ، وبناء على ذلك .. أعلنت السلطات عدم شرعية المنظمات المسلحة التى اقامها المجتمع اليهودى ، ولكن اليهود ثابروا على تطويرها .. ومن ثم ظهرت « الهاجاناه » الى حيز الوجود تدريجيا وتدعمت نتيجة لتدفق المهاجرين اليهود الذين بدأ وصولهم بأعداد كبيرة من كثير من البلدان ، وخاصة من شرق أوربا .

وفى البداية على الأقل ، كانت عملية تخطيط وتطوير المستعمرات الصهيونية الرائدة فى فلسطين .. محكومة جزئيا باحتياجات سياسية استراتيجية . مثال ذلك .. أن اختيار موقع المستعمرات كان لا يتأثر فقط باعتبارات النمو الاقتصادى ، بل ويتأثر أيضا بصفة رئيسية باحتياجات الدفاع المحلية ، وباستراتيجية التوطين على نحو شامل التى كانت تستهدف تأكيد الوجود السياسى فى أجزاء كثيرة من البلاد ، وبالدور الذى تلعبه مثل هذه المجموعات من المستعمرات فى الصراع الحاسم الذى قد ينشب فى وقت ما فى المستقبل .

وقد ادخلت هذه الاحتياجات فى التفكير العسكرى « للهاجاناه » واسلوبها فى تنفيذ سياستها ، عناصر جديدة متنوعة ــ بما فى ذلك استراتيجية عامة أكثر تجانسا أخذت فى اعتبارها الظروف المحلية، وتخطيطا شاملا ومرونة أكبر واستخداما للمدافع الأوتوماتيكية الخفيفة على نطاق أكثر اتساعا . ومع تزايد التوتر بين اليهود والعرب .. كانت امكانيات الهاجاناه تتزايد هى الأخرى . وفى تلك السنوات .. أسهمت مبادرتان مشجعتان من جانب البريطانيين

فى التطور بالهاجاناه الى حد كبير . وكانت المبـادرة الأولى وهى الرسمية..هى انشاء بوليس شرعى للمستعمرات اليهودية يتكون من ثلاثة عناصر رئيسية :

- عدد ضئيل من الوحـدات المنظمة تقوم حكومة الانتـداب البريطانى بدفع أجورها وتزويدها بالأسلحة .

- عدد أكبر من رجال البوليس ذى طابع خاص .

- وحدات متحركة يقتصر وجودها على مناطق معينة .. وتقوم حكومة الانتـداب البريطانى أيضـا بدفع تكاليفهـا .. لتـكون مسئولة عن حراسة الطرق والحـاصلات ، ودعم المستعمرات ، ووضع الكمائن فى طريق رجال العصابات العرب .

أما المبادرة الثانية .. فكانت غير رسمية ، لكنهـا مع ذلك لا تقل أهمية عن الأولى .. تلك هى أن « رجال العصابات العرب » كانوا قد أنزلوا خسائر فادحة بخطوط أنابيب شركة بترول العراق الممتدة الى معامل التكرير فى حيفا . ونتيجة لذلك .. شكلت وحدة يهودية انجليزية مشتركة عرفت باسم « الفرق الليلية الخاصة » بقيادة الكابتن « وينجت » لحماية هذا الخط الحيوى . وهكذا تعاون « وينجت » مع وحدات الهاجاناه المماثلة التى كانت تعمل بالفعل.

وكانت هاتان القوتان من رجـال البوليس — الأولى شرعية والأخرى شبه شرعية — تخضعان لادارة الهاجاناه ، وتستخدمان كغطاء للتدريب والعمليات العسكرية .

* * *

ومع نهاية عام ١٩٣٦ ، أصبح واضحا أن حرب العصـابات لن تنتهى بالانهيار النهائى للحشود العسكرية لأى من الجانبين . اليهود أو العرب ، اذ أن كليهمـا كان يعتبر غير شرعى فى نظر

السلطات البريطانية . وقد أدى هذا الى أن تقــوم « الهاجاناه » بالتركيز على تكتيكات حرب العصابات مع استغلال وحداتها القليلة – التى تعترف بريطانيا بشرعيتها – الى أقصى حد ممكن . وبمرور سنوات ٣٧ و ٣٨ و ١٩٣٩ ضاعفت الهاجاناه من مجهودها لاقامة مستعمرات – سابقة التحصين – تمثل برج مراقبة للقيام بالأعمال العسكرية ، وكان الانجاز الأعظم يتمثل فى تطوير المنظمة العسكرية اليهودية على أساس مناطق جغرافية استراتيجية . ولهذا فاننى مقتنع بأنه يمكن القول بأن الصهيونية قد كسبت الحرب الفلسطينية فى الثلاثينات (أى قبل أن تنشب رسميــا فعلا بـــ ١٨ سنة) ، ولكن العرب هم الذين كسبوا الصراع السياسى .

وعندما بدت بوادر احتيــاج بريطانيــا الى العرب فى الحرب العالمية الثانية ، التى أصبحت وشيكة ، ازدادت قدرة العرب على المساومة ، وانتزعوا من بريطانيا « الكتاب الأبيض » (١٩٣٩) الذى تعهدت فيه بريطانيا بتثبيت العدد النسبى بين العرب واليهود فى فلسطين لغير صالح الطائفة اليهودية بشكل دائم ، وذلك عن طريق الحد الخطير من هجرة اليهود . وهكذا لاح أنه – بالرغم من علاقة العمل الطويلة التى تربط بين اليهود والبريطانيين فى فلسطين .. فان صداما سافرا لم يكن من الممكن تجنبه على أية حال .

وأدى قيام الحرب العالمية الثانية الى وضع اليهود فى مأزق خطير : ان بريطانيا تحارب المــانيا النازية ، ولذلك يجب أن يقف معها اليهود . ولكن بريطانيا تحد من هجرة اليهود الى فلسطين .. ولذلك يجب ان يحاربها اليهود . أن أضعاف بريطانيا فى جبهــة حيوية – مثل الشرق الأوسط – سوف يؤدى الى اضعافهــا فى حربها ضد المــانيا النازية ، وهى العدو المشترك .

لقد حدد الزعيم « دافيد بن جوريون » رئيس اللجنة التنفيذية الصهيونية هذا الموقف المتناقض على نحو لا ينسى حينما أعلن : « سوف نخوض الحرب ضد المــانيا كما لو لم يكن هناك كتاب أبيض .. وسوف نقاوم الكتاب الأبيض كما لو لم يكن هناك حرب » .

كانت هــذه الســياسة .. هى نقطة تحول جديدة فى تاريخ المنظمة العسكرية اليهودية فى فلسطين . لقد قررت القيادة العليا للهاجاناه ــ بموافقة الهيئة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية ــ أن تقوم بتشكيل قوة ضاربة سرية مستقلة تضم تسع سرايا واســمها « البالمــاخ » لكى تعمل فى صف بريطانيا ودول الحلفاء فى الشام، وقد جاء هذا القرار متفقا مع قرار الحلفاء بغزو سوريا ولبنان فى اغسطس سنة ١٩٤١ . ونظرا لأن الحلفاء لم يكن لديهم وقت كاف للاستعداد لهــذا الغزو ، فقــد طلبوا الاســتعانة بأول سريتين من (البالمــاخ) كمرشدين ومخربين ووحدات متقدمة .. الى جانب القيام بعمليات التجسس خلف خطوط العــدو ، وتم تنفيذ جميع هذه العمليات بنجاح ، مما بعث الارتياح البالغ فى قيادة الحلفــاء فى المنطقة .

ومنذ ذلك الوقت ــ حتى انتصــار الحلفاء فى العلمين ــ استمر هذا التعاون غير الرسمى الذى انطوى على الاعتراف بالأمر الواقع، وان كان فى الحقيقة مؤقتا ، بقوات (البالماخ) غير القانونية من قبل السلطات البريطانية ولم يحدث قط أن انضم أعضاء (البالماخ) الى الجيش البريطانى ، وكان هذا بناء على رغبة مشتركة من الجانبين ، ونتيجة لاصرار (البالمــاخ) على أن تظل مستقلة عن البريطانيين.

وعندما انتهت الحرب العالمية الثانية ، انتهت معهــا الميزانية الضخمة التى كانت بريطانيا تنفقها على (البالماخ) مقابل التعاون المشترك ، وأصبحت هناك مشكلة .. كيف يمكن التمويل . وقد تم حل هــذه المشكلة بتقسيم (البالماخ) الى فصــائل ترابط فى المستعمرات اليهودية المختلفة ، بشرط أن يقضى افراد القوة جميعهم خمسة عشر يوما من كل شهر فى العمل فى زراعة المستعمرات ، والنصف الآخر فى التدريب وبحيث أن ما يكتسبونه من عمل نصف الشهر يكفى لاعالتهم الشهر بأكمله .

ولكن نهاية الحرب ادت الى مشكلة أخرى : وهى ضرورة التفرغ لمحاربة البريطانيين بعــد أن انتهى التعــاون معهم . وهكذا بدأ التنظيم العسكرى فى فلسطين يواجه البريطانيين . لم يكن هدف هذه الأعمال العسكرية هو تدمير القوات البريطانية فى فلسطين ،

فهذا غير ممكن وغير مطلوب . ولكن الهدف الحقيقى كان تقويض مركزهم واحساسهم بالأمن ومكانتهم الأدبية ، وفوق هذا كله .. انه بدون موافقة اليهود لا تستطيع بريطانيا الاحتفاظ بفلسطين كقاعدة آمنة عاملة فى هذه المنطقة الحيوية (وبذلك تتساهل بالنسبة لمسألة اعداد المهاجرين اليهود المسموح لهم بالقدوم الى فلسطين.. حيث أن اليهود ما زالوا حتى الآن أقلية ضمن السكان) . أن الاستعدادات العسكرية التى حصلت عليها من قبل بمساعدة بريطانيا خلال سنوات الحرب لمقاومة دول المحور ، أثبتت الآن أنها عظيمة الفائدة فى العمل ضد البريطانيين أنفسهم .

* * *

وفى تلك الفترة .. كان التفكير العسكرى (للهاجاناه) يقضى بعدم التخلى عن المستعمرات النائية بأى ثمن ، ومهما كان طول خطوط المواصلات والامدادات .. وذلك لكى تمتص جزءا من الضغط العربى على المراكز اليهودية ، ولاستخدامها كقواعد لعمليات العصابات خلف خطوط العدو (العربى) .. كما أنها ستصبح بمثابة أهداف نهائية لبلوغها عندما يحين الوقت لشن حرب شاملة فى المنطقة بأسرها، كما كان تفكيرنا العسكرى يقضى أيضا بتجنب الاشتباكات المباشرة مع البريطانيين بعد أن حددوا موعدا لجلائهم عن فلسطين ، حتى لا نعرقل هذه الخطوط .

وفى هذه المرحلة أيضا .. أصبحت (البالماخ) رأس رمح (للهاجاناه) وجزءا منها ، كما بدأ العمل على تكوين أسلحة منفصلة للبحرية والطيران .. وكذلك تعبئة حرس داخلى يضم الرجال والنساء والشبان ، الذين تقل أعمارهم عن ١٨ سنة للقيام بأعمال الحراسة الداخلية فى المدن والقرى .

وعندما بدأت الجيوش العربية فى غزو فلسطين بعد ١٥ مايو ١٩٤٨ كان التأثير السيكولوجى للغزو مثبطا للغاية . وهنا رفضت « الهاجاناه » اتباع استراتيجية دفاعية ، رغم أنها لم تكن تضمن تماما نجاح الهجوم . أن التركيز على الدفاع كان معناه أن نخسر

الحرب ، لأن المبادرة فى هذه الحالة سوف تكون فى يــد العرب ، وسوف يسمح لهم ذلك باختيار زمان الهجوم ومكانه .

ومع ذلك فان العدو (العربى) ظفر بمكاسب هامة فى جبهتين خلال تلك المرحلــة من حرب ١٩٤٨ . فبالنســبة للمصريين .. استطاعوا أن يتقدموا على بعد ١٢ كيلو مترا من « ريحفوت » ، وأقام الســوريون رأس جسر عبر الأردن فى الجليل الأعلى ، كما رابطت قوات شرق الأردن فى مدينتى الرملة واللد العربيتين . فى هذه المرحلة أمكن التوصل الى هدنة مدتها شهر واحد ، بنا على نداء من الأمم المتحدة ، وهى هدنة نفذها الجانبان اعتبارا من ١١ يونيو ١٩٤٨ . وينبغى اعتبار هذه المرحلة نصرا اسرائيليا وان لم يكن حاســما .

لقد اصبحت دولــة اسرائيل الآن معلنــة رسميا ، واصبحت « الهاجاناه » هى الجيش الرسمى للدولة ، الــذى أصبح اسمه « زحال » .. أى جيش الدفاع اليهودى ، كما استطاع الجيش — اثناء الهدنة — أن يحصل على أسلحة من تشيكوسلوفاكيا وفرنسا وبريطانيا . وكان معنى ذلك .. ان المرحلة التالية — التى تبدأ عند انتهاء فترة الهدنة — سوف تكون هى المرحلة الحاسمة . ان التفكير العسكرى فى الجيش الاسرائيلى كان يصر دائما على أن يتمتع بميزة البدء بالهجوم والاحتفاظ لنفسه بزمام المبادرة ، بمجرد أن تنتهى فترة وقف اطلاق النار الذى فرضته الأمم المتحدة .

ورغبة فى عدم انتهــاك قرار الأمم المتحــدة .. وادراكا من الجيش الاسرائيلى بأن الجيوش العربية اعتادت أن تبدأ هجومها نهارا .. فقد قرر الاسرائيليون أن يسبقوا العدو بمجرد ساعات قليلة ، ويشنوا هجومهم فى اللحظة التى تنتهى فيها الهدنة رسميا .. أى عند منتصف الليل . وبذلك بدأنا نحن الهجوم واحتفظنا بزمام المبــادرة .

وعلى الرغم من ان عددا اكبر من القوات أصبح يشترك الآن ضد هدف واحد ، الا أن تكتيكات حرب العصابات لم تغفل تماما من

العمليات العسكرية الاسرائيلية . وبوجه عام .. فان كل اهداف حرب التحرير هذه حققت جميعهـا . ولو لم تفرض الأمم المتحدة وقف اطلاق النار للمرة الثانيـة فى ١٩ يونيـو ١٩٤٨ لكان من المحتمل أن يستمر الهجوم الاسرائيلى دون هوادة تقريبا . لقـد استمر الوقف الثانى لاطلاق النار حتى ١٠ أكتوبر ١٩٤٨ ، وهنا قامت القيادة العسكرية الاسرائيلية بتصميم عمليـاتها العسكرية ، على أساس أن هناك احتمالا لمزيد من تدخل الأمم المتحدة فى صورة وقف اطلاق النار ، لهذا .. فان كل عملية عسكرية يجب أن تكون مستقلة فى حد ذاتها الى جانب كونها جزءا من خط شاملة .

وفى جميع المعـارك التـالية .. كانت القيـادة العسكرية الاسرائيلية تصر على أنه ، فى جميع عمليات الهجوم ، يجب عـدم فقدان مرونة حرب العصابات ، والقـدرة على الارتجال ، والقدرة على الحركة والمناورة واستخدام تكتيكات « الاقتراب غير المباشر ». ودق أسفين قوى فى جنوب رفح بالقرب من الحدود الاسرائيلية المصرية ، بهدف فصل قطاع غزة كله عن مؤخرته ، مع ترك الخط الحديدى دون أن يمس .. أملا فى أن يضعف هذا من عناد العدو المصرى ، ويشجعه على الانسحاب عائدا الى مصر . عند هذه المرحلة ، وافقت الحكومة المصرية على الدخول فى مفاوضات الهدنة بشرط أن يرفع الاسفين الاسرائيلى ، وتم هذا ، ولكنه كان خطأ .. لأنه أضعف بشدة من مركز المساوم الاسرائيلى فى المفاوضات التالية، فتم توقيع اتفاقية الهدنة فى جزيرة رودس فى ٢٤ فبراير ١٩٤٩ تاركة قطاع غزة فى أيدى المصريين ، وتبعتها اتفاقيات هدنة مع الدول الأخـرى .

* * *

.. ان الجيش الاسرائيلى صنعته الظروف . وهـذا ينطبق عليه فى هذه المرحلة من تاريخه بقدر ما ينطبق عليه فى المراحـل التالية . ولكن تطوره الأساسى فرضه عليه العدو . وبعض نواحى نجاحه كان مرجعه أخطـاء العدو العربى وضعفه . ومع ذلك .. فان معرفة السبيل الى استغلال ضعف العـدو — وأعنى استخدامه بصورة بناءة — يعد موهبة فى حد ذاته . وبالنسبة لجيش اسرائيل .. فان استخدام هذه الموهبة، كان يتطلب الى جانب جهاز مخابرات متطورا للغاية ، قادة وجنودا .. ليسوا مدربين ومنظمين جيدا طبقا

للمستويات العسكرية المألوفة فحسب ، بل أيضا مدربين بدنيا ومعنويا لمواجهة مقتضيات حرب متغيرة .

بقيام دولة اسرائيل الجديدة .. بدأت تضطلع بمشروعات لاستيعاب المهاجرين الجدد وتنمية الموارد الاقتصادية وتحسين الكفاءة العسكرية . ولم تكن الخدمة العسكرية تعتبر على نطاق عام غاية فى حد ذاتها ، بل شرطا لا مناص منه للبقاء . لذلك .. اتخذ قرار حكيم يقضى بالاحتفاظ بجيش عامل صغير قدر المستطاع ، يتكون أساسا من المجندين وتشكيل دائم للقيادة مع الخبراء والفنيين المطلوبين . وتقرر أن يتكون السواد الأعظم من أسلحة الجيش المختلفة ، من قوات الاحتياط المدربة التى يجب استدعاؤها للتدريب والمناورات لبضعة اسابيع قليلة من كل عام وفى أية حالة طارئة .

وكانت الفجوة ، فى كميات الأسلحة ، بيننا وبين العدو مشكلة أخرى ، الا أن حلها كان يعتمد على أن نوجه هذا الكم بتفوق فى الكيف تفوقا كبيرا ومن ثم كان لزاما سد هذه الفجوة بتحقيق مستويات أعلى بكثير فى الخبرة العلمية والتكنولوجية والفنية ..

وبتنظيم أفضل وتطوير لخدمات الميدان وعن طريق المهارة فى الاستراتيجية والتكتيكات .

وبالاضافة الى ذلك .. فقد كان هناك مبدأ خطير آخر لابد من مراعاته :وهو الاحتفاظ بزمام المبادرة دائما فى الجيش الاسرائيلى واعطاء أهمية كبرى للمفاجأة بالهجوم ، لأن هذا هو الحل الوحيد لمشكلة الضعف الجغرافى الاسرائيلى ، وهذا يؤدى الى التركيز على قوات الطيران . أن مسرح الحرب الاسرائيلية العربية فى أساسه برى ، بمعنى أن معاركه الحاسمة سوف تدور فى البر ، ولكن التفوق الجوى هو الذى يفتح الباب أمام حسم أى حرب برية . لقد بدأ التفكير العسكرى الاسرائيلى يركز النية للقوات البرية على الوحدات المدرعةالتى يمكنها أن تقطع مسافات طويلة بسرعة ،وعلى سلاح المشاة تسانده الطائرات ، ثم قوات طوارىء كبيرة فيها من صفات الجيش الحجم الكبير ، ومن صفات الفرق الخاصة ، المرونة .

واعتمد التفكير العسكرى الاسرائيلى أيضا ، على تطوير جهاز للمخابرات من الطراز الأول، وربطه بالعناصر المختلفة لقوات الجيش الاسرائيلى ، ودعما لهذا الجهاز .. كان لا بد من اقامة شبكة فنية للانذار المبكر . اما اهمية هذا الجهاز فتبدو واضحة حينما نعلم أن الهجوم لابد أن يكون دائما طابع العمليات العسكرية الاسرائيلية .. مهما كان الثمن السياسى الذى ندفعه فى سبيل ذلك . كان لا بد ان تعتمد النظريات العسكرية الاسرائيلية على « هجوم مضاد سابق لهجوم العدو » او « هجوم مضاد توقعى » كما كان يسمى ايضا . وبالنسبة للعمليات العادية ، فلا بد من الاعتماد على استراتيجية الانتقام الديناميكية .

كان هذا هو الأساس العسكرى عندما نشبت حملة سيناء سنة ١٩٥٦ — أن وضع الأمن الاسرائيلى كان معناه شن حرب توقعية . وللتهيئة للنصر .. كان لابد من ضمان تفوق عسكرى محدد على الجبهة المصرية . الأمر الذى تطلب حشد قوات ضاربة كافية على هذه الجبهة ، من مدرعات للمشاة مزودة بالآلات الميكانيكية ووحدات استطلاعية خفيفة وقوة جوية تكتيكية ورجال مظلات ومدفعية وميدان .. حتى على حساب أضعاف جبهات أخرى مختلفة . على ذلك كان يمكن القيام بهذه المخاطرة بفضل التعبئة الكاملة لقوات الاحتياطى ، والاحتفاظ بوحدات متحركة كبيرة فى المؤخرة لاستخدامها اذا اقتضت الضرورة ذلك. وتعين علينا (فى حرب ١٩٥٦) استغلال عنصر المفاجأة الى أقصى الحدود بالنسبة للاستعدادات وللجبهة ذاتها وتوقيت الهجوم وأسلوبه . وتمت التعبئة بسرعة وفى صمت .. فأطلقت شائعات بأن الأردن على وشك التعرض للهجوم ، بينما كانت القوات الرئيسية فى واقع الأمر تحتشد فى ساعة الصفر تقريبا عند نقط انطلاقها على حدود سيناء .

وكان الهدف من عمليات انزال جنود المظلات — التى تمت سنة ١٩٥٦ خلف خطوط الجيش المصرى — هو اتخاذ سيناء كنقطة للمساومة فى مفاوضات السلام مع مصر ، اذا ما قدر اجراؤها .

ولأن ما يعنينى هنا .. هو تطور قوة الجيش الاسرائيلى ونظرياته العسكرية .. فاننى لن اسرد وصفا تفصيليا لحملة سيناء ..

منتقلا الى الفترة بين حملة سيناء فى ١٩٥٦ ، وحرب الأيام الستة فى ١٩٦٧ .

***

فى السنوات السابقة على سنة ١٩٦٧ — كان هناك رأى متشائم ، كان يمكن أن يقودنا الى أخطاء قاتلة . هذا الرأى يقول ان الوقت ضدنا .. ولصالح العرب . ان هذا الرأى كان يعتمد على أن السكان فى الدول العربية يزدادون بمعدل مخيف ، وأن مستوى معيشتهم فى ارتفاع مستمر وأن عدد شبابهم الذين يتلقون تعليما ثانويا وجامعيا يزداد باطراد .. بمعنى أن هناك تحسنا كبيرا فى النوع كان يحدث فى المجتمع العربى ، ولن يمضى وقت طويل حتى تلحق بنا الدول العربية ، وما أن يضاف الكيف الى تفوقهم العددى حتى تصبح قوتهم العسكرية قادرة على التغلب على اسرائيل وتدميرها .

وكان رأيى الخاص .. هو أن ما يهم ، هو كيفية استفادة المرء من الوقت ، كنت مقتنعا بأننا أقوى بكثير مما كنا عليه فى الاختبارين السابقين سنة ١٩٤٨ و ١٩٥٦ . وهكذا فان الوقت حتى لم يكن ضدنا ، وانه لن يكون بالضرورة فى المستقبل القريب ضدنا لفترة جيلين على الأقل . وكان من رأيى ، أن هناك ارتباطا وثيقا بين التقدم الاجتماعى والتطور من ناحية ، والقدرة على تطبيق الخبرة العلمية والتكنولوجية التى تتطور بسرعة أكبر من النظام الاجتماعى. ولهذا فان وضع أسلحة حديثة معقدة للغاية فى أيدى مجتمع متخلف .. لا يدل بالضرورة على زيادة فى القدرة العسكرية . وقد يبرهن بعكس ذلك على أنه عائق وليس عاملا مساعدا .ومن الواضح أن الزيادة السريعة فى سكان الدول العربية هى نقمة وليست نعمة.

ان الأخطاء القاتلة ، التى كان يمكن أن تقودنا اليها النظرة المتشائمة ، تتراوح بين ضرورة الاعتماد التام على الرادع الذرى ، بانتاج القنبلة الذرية مثلا ، والاعتماد التام على دولة كبرى .

وبالنسبة للحالة الأخيرة .. فقد كانت مرفوضة تماما ، لأن اعتمادنا على دولة واحدة كبرى ، سوف يتضمن املاء سياسيا لأساليب ووسائل حل النزاع العربى الاسرائيلى بصورة قد تكون

فى صالح أعدائنا ، وبالاضـــافة الى ذلك .. فان القوة الكبرى التى ستضمن وجودنا .. قد لا تكون بالضرورة متفقة معنا دائما فى تقدير الحالة الفعلية للأمور . أما السبب الآخر .. فهو أن نتيجة الحرب فى أيامنا وفى عصرنا ، تتقرر فى الأيام القليلة الأولى ، بل وفى الساعات القليلة الأولى أحيانا ، وبالتالى فان مساعدة حلفائنا لنا قد تأتى متأخرة ، ومن ثم لن تجدى فتيلا .

وبصفة عـــامة .. فانه ـــ حتى الأيام الســـابقة على حرب ١٩٦٧ ـــ اعتمدت النظرية العسكرية الاسرائيلية على أن اسرائيل لابد أن تقوم فورا بحرب وقائية فى واحـــدة من الحالات الست التـــالية :

١ ـــ عند حشد القوات الهجومية العربية على نحو يشكل خطرا على اسرائيل .

٢ ـــ حين يصبح واضحا أن العدو يستعد لشن هجوم جوى مفاجىء ضد قواعد اسرائيل الجوية .

٣ ـــ فى حالـــة التعرض لهجوم جـــوى .. حتى وان كان محصورا فى مكان محدد ضد منشآتنا النووية ومؤسساتنا العلمية.

٤ ـــ حين تصل حرب العصابات الى النقطة التى يصبح معها الدفاع السلبى والاجراءات الانتقامية عاجزة عن مواجهتها .

٥ ـــ اذا دخلت الأردن فى تحالف عسكرى مع دولة عربيـــة اخرى وسمحت للقوات العسكرية الأجنبية بالتمركز فوق أراضيها وخاصة على الضفة الغربية من نهر الأردن .

٦ ـــ اذا أغلقت مصر مضايق تيران .

فى هذه الحـــالات ، أو فى اية واحدة منها ، كان لابد من تطبيق نظرية « الهجوم المضاد التوقعى » فورا .. حتى ولو تعرضت اسرائيل لادانة الأمم المتحدة . الهجوم أولا .. ثم تقديم تفســـير الى العالم بعد ذلك ، وهذا هو ما حدث فى سنة ١٩٦٧ .. !

* * *

فى الأيام القليلة السابقة على ٥ يونيو ١٩٦٧ ، كانت لـــدى المخابرات الاسرائيلية المعلومات الحديثة عن التشكيل العسكرى للدول العربية ، وعن مواقع القوات ونواياها ، ومن ثم تسنى للقوات العسكرية الاسرائيلية أن تعدل من خططهـــا طبقـــا لخطط العـــدو .

وفى ظل الظروف التى ظهرت بعـــد انســـحاب قوات الأمم المتحدة من سيناء واغلاق مضايق تيران فى مايو ١٩٦٧ ، قررت حكومة اسرائيل تأجيل ردهـــا العسكرى على مضايق تيران ريثما يتم القيام بمحاولة دبلوماسية خاصة .. للتأكد مما اذا كانت الدول البحرية الكبرى مستعدة لفك الحصار المصرى بالقوة .

وكان فى رأيى .. ان هذا خطأ عسكرى وسياسى على حـــد سـواء ، لأن حرية الملاحة أصبحت اعتبارا ثانويا ، بينما التحدى الخطير يتمثل فى حشد القوات الهجومية فى سيناء الذى أعقبه دخول الأردن فى حلف عســكرى مع مصر . وفى تلك الأيام .. لم تكن اسرائيل تقوى على انتظار هجوم مصرى كبير قبل أن تشن هجومها المضاد .

كانت سيناء .. تمثل الخَطر الرئيسى من حيث القوة العسكرية. وكان تهديد الأردن استراتيجيا ــ جغرافيا ، أما تهديد سوريا فكان يتمثل فى قدرتها على الازعاج . ولهذا كان ــ من الصائب ــ توجيه الجهد الرئيسى ضد مصر بمفاجأة استراتيجية ، لأن الجيوش (المصرية) كانت على أهبة الاستعداد ، والنوع الوحيد من المفاجأة الذى كان لا يزال ممكنا ، هو على المستويات التكنيكية والتنفيذية، اى فى الميدان .. فى مسرح الحرب .

ولم يكن خافيا .. ان التفرق فى الجو هو مفتاح النصر ، حتى وان كان فى حد ذاته لا يضمن النصر . وتمكنت قواتنا الجوية من مباغتة السلاح الجوى المصرى .. رغم أننا كنا قد فقدنا منذ وقت طويل ميزة المفاجأة الاستراتيجية . وجدير بالذكر ان الســـلاح

الجوى الاسرائيلى لم يستطيع مباغتة القـوات المصرية ، الضحية الأولى للمبادرة العسكرية فحسب،بل أيضا القوات الجوية الأردنية والسورية والعراقية .

وكان الحرص كبيرا .. على أن تكون سـيناء مصـيدة كبيرة للجيش المصرى .

ان شبه جزيرة سيناء .. يمكن أن تكون منطقة حاجزة بين مصر واسرائيل ونقطة انطلاق لأى هجـوم مصرى على اسرائيـل . لكنها يمكن ان تصبح ايضا فخا للقوات المحتشدة فيها لشن هـذا الهجوم . وقد حاولت القـوات البرية الاسرائيلية ــ وخاصـة المدرعات والمشاة ــ أن تعوض نفسها عن ضياع عنصر المفاجأة الاستراتيجية باستخدام سلسلة من المفاجآت التكتيكية ، وتلك التى على مستوى العمليات .

وكانت الجبهتان ــ الاردنية والسورية ــ تعتبران من الدرجة الثانية من حيث الأهمية حين بدأت الحرب . وضاعت عدة أيام من القرار السياسى من جانبنا بالنسبة لشن الهجـوم على الجبهـة السورية ، بسبب المغالاة فى تقدير قدرة السوريين على الصمود . ولأنه لم يكن من المتوقع موافقة المصريين على وقف اطلاق النار بمثل هذه السرعة .

وفى رأيى .. أنه كان يجب على اسرائيـل أن تشن هجومـا على الجبهة السورية بمجرد أن تم ابطال فاعلية القوات الجوية العربية بما فى ذلك السورية . لو تم هذا ــ فىالوقت المناسب ــ لأمكن تحقيق هدف سياسى آخر عظيم الفائدة الى جانب المكاسب الواضحة الأخرى ، فقد كان يمكن للقوات الاسرائيلية أن تجرى اتصالا مباشرا مع جماعة الدروز ، التى طال قمع دمشق لها ، وتقديم يد العون لها لتقيم جهازا سياسيا للدروز ــ أى دولة درزية مستقلة ــ وهكذا كان يمكن لدولة من الدروز أن تكون بمثابة دولة صديقة حاجزة بين اسرائيل وكل من سـوريا والاردن ، وهـكذا نسهم كثيرا فى استقرار المنطقة .

لقد أثبتت حــرب الايام الســتة ، بصورة حاســمة ، بعض الفروض الأساسية المعينة التى تمسكت بها خلال الفترة السابقة وهى :

أولا : اننا فى حرب ١٩٦٧ تجنبنا ما اقترفناه من أخطــاء فى حرب ١٩٥٦ .. فبينما حظينا فى حرب سيناء بالتأييد العسكرى من بريطانيا وفرنسا .. فاننا خسرنا على الجبهة السياسية ، وهذا هو ما لم يحدث فى حرب الأيام الستة .

ثانيا : ظهرت اسرائيل بأنها اقوى من الجيوش العربيةمجتمعة. وكان هذا مرجعه الى أن النظام الاجتماعى العربى ــ بغض النظر عن التتدم الذى حققه ــ قد فشل حتى الان فى أن يتقدم بالقدرالكافى فى ميدان التكنولوجيا العسكرية الحيوية . ولم يكن هناك أى وفاق اجتماعى أو شعور بالوحدة الوطنية داخل اية دولة عربية . بل كانت السمة المميزة السائدة هى الغش والكذب ، فكان الحــكام يكذب كل منهم على الآخر .. والوزراء يدبرون المؤامرات للاطاحة برفقائهم ، والضباط ينزعون الى خديعة رؤسائهم كمــا يخــدع الجنود ضباطهم.ولم يستطع كبار المسئولين فى الحكومة انيكونوا أمناء كل منهم مع الآخر . .أو حتى مع أنفسهم .

وبالمقارنة .. كانت اسرائيل مثال للانسجام والحضـــــارة . فهى أساسا متحدة ، وبالرغم من مشاحناتها الداخلية العنيفــة ، فانها تتسم بالتفكير المستقل وتحظى بمساندة التضامن اليهــودى فى جميع انحاء العــالم ، وأثبتت أن الكيف ــ على مستوى الفرد والمجتمع ــ يتفوق على الكم .

ثالثا ــ كذلك برهنت حرب الأيام الستة بصــورة قاطعة .. على ان نظرية الهجوم المضاد التوقعى قد ضمنت ــ بفاعلية ــ أن تنتزع اسرائيل زمام المبادرة من العدو . ولقد تعلمت من هذه المرة ــ الى الابد ــ انه لا بديل لاسرائيل فى حربها مع أعدائها العرب سوى أن تحتفظ بزمام المبادرة مع رفض الدفاع السلبى بشدة .

* * *

والآن ، حين أرى الموقف بعد حرب يونيو ١٩٦٧ — فان هناك دفعة هائلة نحو اعادة تسليح الجيوش العربية مرة أخرى . ففى مستهل عام ١٩٦٩ أستعاد سلاح المدرعات المصرى — بفضل الامدادات السخية — ما كان عليه من قوة عشية حرب الأيام الستة،واصبح السلاح الجوى المصرى بنسبة ٥٠٪ ومن المؤكد أنه خلال سنة بعد ذلك سوف تبلغ المدرعات المصرية ١٥٠٪ والسلاح الجوى المصرى ٢٠٠٪ من قوته قبل الحرب .

ومع أن هناك خطوطا واضحة الان لوقف اطلاق النار ، الا انه فى رايى أنه — فى مواقف معينة — سوف يكون من واجب اسرائيل — بل وستجد نفسها مضطرة بجدية — الى أن تبحث ضرورة عبور خطوط وقف اطلاق النار ، سواء كان هجوما مضادا توقعيا على نطاق ضيق أو واسع .. فى غزو قصير الأمد أو فى عملية أكثر امتدادا .. وهذه هى المواقف الرئيسية :

● أولا : فى حالة التعرض لهجوم محدود أو شامل .. أو فى حالة اكتشاف أن العدو يستعد بنشاط لهجوم جوى أو بالصواريخ واسع النطاق على أهداف حيوية فى اسرائيل .

● ثانيا : فى حالة تعذر وقف نشاط الارهابيين بوسائل محدودة .

● ثالثا : فى حالة تدخل العدو فى ملاحة اسرائيل فى البحار المفتوحة وفى المضايق ، أو الممرات الضيقة للبحر الاحمر .

● رابعا : يهدف تحقيق المعونة لحلفاء ظاهرين أو مستترين ، فعليين أو محتملين فى دولة أو أخرى من الدول العربية .

● خامسا : فى حالة تغيير الوضع الراهن لدولة مجاورة على نحو يهدد اسرائيل بخطر محقق .

مستقبل إسرائيل

تأليف: شاؤول فريد لاندر

١٣ — ممنوع من ١١٠١اوا



بالنسبة لنا ــ نحن الاسرائيليين ــ فــان الكراهية المنصــبة على الاسرائيلى تجعله يبدو كالغريب تماما فى نظر العربى. وكأنه ركيزة لقوى الشر فى العالم أجمع ، فضلا عن اتسامه بالقسوة والخداع الشيطانى . وهكذا يرى العرب أن اسرائيل دائمةالحديث عن السلام منذ عشرين عاما ، ولكنها هاجمت جيرانها مرتين فجأة.

وبالاضافة الى ذلك .. فان الضمير العربى يزداد يوما بعــد يوم اقتناعا بأن اسرائيل أداة للاستعمار الغربى . وهكذا يصبح احتمال الهزيمة العربية أقل قسوة ، اذ أنها لا تأتى على يد الدولة اليهودية وحدها ، بل على يد الغرب الاستعمارى كله ، ان هذا التفسير العقلى للاحداث يسمح للعالم العربى بأن يؤمن بالنصر النهائى .. نظرا لأن تقدم التاريخ سيؤدى الى انهيار الامبريالية الغربية ان عاجلا أو آجلا .

ومن الصعب ان نتحدث عن سياسة عربية مشــتركة ، حتى بالنسبة للمشكلة الفلسطينية ، الا أن هزيمة العرب فى يونيو ١٩٦٧ قد عجلت ببلورة اتجاهات متباينة تتعلق بالتكتيك الواجب اتباعه تجاه اسرائيل . ففى العالم العربى اليــوم هناك ثلاثة مــواقف تكتيكية بالنسبة لاسرائيل :

الموقف الأول : تؤمن به مجموعة يصعب تقدير أهميتها ،وهى مستعدة للبحث فى حل سلمى ، وهى تعتبر أن المفاوضــات هى الوسيلة الوحيدة لاستعادة جزء من الأراضى التى فقدت فى يونيو ١٩٦٧ .وعلى مستوى رؤساء الدول ، يتخــذ كل من الرئيس التونسى بورقيبة وحسن ملك الأردن هذا الموقف .

الموقف الثانى : يؤمن بأنه « لا تفاوض ولا اعتراف ولا صلح مع اسرائيل ، وكذلك لا مساومة بشأن مستقبل أراضى وشعب فلسطين » . وهذا الموقف بسيط ، اذ يرى أن الوقت فى صــالح

العرب وأنه يمكن استعادة جميع الأراضى التى فقدت فى يونيـــو ١٩٦٧ ، بفضل اعداد سياسى وعسكرى صبور .

الموقف الثالث : يؤمن بأن نشوب حرب تقليدية جـديدة مـــع اسرائيل أمر غير ممكن فى المستقبل المباشر . لهذا فان أصحاب هذا الموقف يؤمنون بأن الحل هو حرب العصابات . وهذا القطاع من العرب نفد صبره من الأساليب الدبلوماسية حتى باعتبارهــا تكتيكا مرحليا . وأبرز الذين يمثلون هذا الموقف منظمة « فتح » .. اشهر حركات المقاومة الفلسطينية .

ولكن ما هى سياسة اسرائيل تجاه المواقف العربية ؟

لقد قيل ان اسرائيل ليست لديها سياسة خارجية حقيقية . لأن هذه السياسة تتجدد بصفة جوهرية وفقا لاحتياجات أمن الدولة الملحة . وذلك صحيح الى حد ما . ولكن هناك ، من البداية ، موقفان متطرفان ومختلفان بالنسبة للرأى العام داخل اسرائيل، وهمـــا :

الموقف اول : يؤمن به مجموعة من اليساريين ودعاة السلام المخلصين وهم مستعدون بدون شك، الىتقديمكافة التنازلاتكمبادرة أولية من قبل اسرائيل ، مثل الجلاء عنالأراضى المحتلة بما فى ذلك القدس القديمة وقبول جزء من اللاجئين على أمل أن يختفى شك العرب تجاه هذه النوايا الطيبة ، واعلان الجانبين المتخاصمين عن استعدادهما للتفاوض من أجل الوصول الى صلح قانونى . ولاتضم هذه المجموعة سوى اقلية ضئيلة ، الى جانب أعضاء حزب«ركاح» الشيوعى الموالى للسوفييت ، وجماعات صغيرة للغاية مثلجماعة « ماتزين » . وكل المؤمنين بهذا الموقف لا تزيد نسبتهم من مجموع السكان على ٢٪ أو ٣٪ .

الموقف الثانى : وهؤلاء هم الذين يرفعون شـــعار المطالبة بكل ارض اسرائيل .

وهى التى تمتد — من النيل الى الفرات — وهذه المجموعة تضم عناصر من اليسار واليمين ، لم يكن بينها اى اتصال قبل حرب يونيو ١٩٦٧ . ولكن هدفا مشتركا جمع بينهم فجأة . وأعضاء هذه المجموعة يمكن تقديرهم بعشرة فى المائة من السكان .

ولكن ، بينما لا يمكن تصور زيادة المؤمنين بالموقف الأول ، فان من المحتمل جدا ان تحدث زيادة واسعة للمؤمنين بالموقف الثانى.

وهناك موقف ثالث تؤمن به الأغلبية الكبرى من السكان ، وتعبر عنه الحكومة رسميا بناء على المبدأ الاساسى التالى : « ان اسرائيل مستعدة للتخلى عن جزء من الأراضى المحتلة .. مقابل اعتراف صريح من البلدان العربية بها وتوقيع معاهدات صلح رسمية معها .. بشرط أن تلبى الحدود الجديدة احتياجات أمنها» ونظرا لأن الأراضى المحتلة تشكل ميزات رئيسية بالنسبة لاسرائيل فى حالة حدوث مواجهة عسكرية جديدة ، فان الجلاء عنها لا يمكن أن يكون شرطا مسبقا للمفاوضات ، بل لابد من توقيع معاهدة صلح أولا .. ثم بعدها يتم الجلاء

لقد رأينا من قبل نظرة العرب الينا — نحن الاسرائيليين . والان ، فان نظرة الكثيرين منا — نحن الاسرائيليين — الى العرب يحكمها شعور بالتفوق ، لأن كثيرين من الاسرائيليين يعتبرون المجتمع العربى بدائيا ومتخلفا . بل وفى حالة انحلال . فاذا كانت هذه هى النظرة المتبادلة ، فهل يمكن أن يكون للدول الكبرى موقفه يفرض على الطرفين حل النزاع ؟

ان من الصعب تقييم الاثر الحقيقى للدول العظمى على النزاع الاسرائيلى العربى . لقد خلقت دولة اسرائيل بفضل توافق موقف كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى ، وكان الروس هم الذين مكنوا الاسرائيليين من الصمود خلال الشهور الأولى من حرب عام التحرير فى ١٩٤٨ . كما أن الأمريكيين هم الذين أجبروا القوات

الاسرائيلية على الجلاء عن منطقة العريش فى سيناء فى نهاية تلك الحرب نفسها .

وفى ١٩٥٦ — أدى التوافق بين موقفى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى الى انقاذ مصر من الانهيار (كما سبق أن أدى الى انشاء اسرائيل فى ١٩٤٨) وتحولت هزيمتها الى نصر سياسى ونفسى . وكان الروس هم الذين تسببوا فى اثارة سلسلة الحوادث التى انتهت الى حرب يونيو ١٩٦٧ . ولكن ليس بامكان أى من الأمريكيين أو الروس — منذ ذلك الوقت — أن يبدلوا الموقف الجديد الناتج عن النصر الاسرائيلى . ويبدو لى أن أزمة عام ١٩٦٧ وآثارها قد أوضحت حدود سلطة الدول العظمى فى الشرق الأوسط ، مهماكان نفوذها الحقيقى فى هذه المنطقة فى الماضى ، وترجع هذه الحدود الى قيام الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى بتحييد كل منهما للاخر .

ولو بدأنا بمصالح الاتحاد السوفييتى فى المنطقة .. فان هناك أهدافا عاجلة متعددة له ، هى منع الغرب من تثبيت أقدامه مرة أخرى فى مصر وسوريا فى حالة تغيير نظام الحكم بهما ، وتحييد وجود الاسطول السادس الامريكى،والالتفاف حول التنظيم الدفاعى لحلف شمال الاطلنطى ، وكذلك اجبار الامريكيين على تقسيم الشرق الأوسط الى مناطق نفوذ مما سيدعم الوجود السوفييتى فى الأجل الطويل .. ومن ثم فان الابقاء على التوتر بين اسرائيل والدول العربية ، يعتبر شرطا لازما لتعاون هذه البلدان معها . كما أن من شأن حسبة اضافية أن تشجع موسكو على استغلال التوتر ، اذ من غير المستبعد أن يتوقع الروس دخو الولايات المتحدةفىمرحلة انعزالية جديدة عقب تسوية النزاع الفيتنامى ، وانسحابهم من كافة مواقعهم المحيطة بهم للاحتماء داخل القلعة الامريكية.ولاشك ان الروس مخطئون فى هذا الاعتقاد .. ويعتقد الاتحاد السوفييتى أن المجال سيكون عندئذ خاليا أمامه فى الشرق الاوسط وبصـــفة خاصة ، ان الابقاء بصفة منتظمة على التوتر فى المنطقة سيؤتى بثماره .

ولكن مثل هذا الموقف له مخاطره ، أبرزها حدوث تصعيد فى حالة نشوب نزاع محلى . ولنتصور مثلا وقوع حادثة فى منطقة

قناة السويس تؤدى الى استئناف القتال بين اسرائيل ومصر.فمن الصعب على الاتحاد السوفيتى أن يسمح بوقوع هزيمة عربيةثانية، اذ أن ذلك قد يهدد بالقضاء على المراكز التى اكتسبها فى العالم الثالث ، نتيجة للضربة التى ستلحق بمكانته .

ويبدو أن سياسة « الكرملين » تهدف الآن الى الابقاء على حالة محمومة من التوتر ، لانستبعد معها ــ كما رأينا ــ وقوع تدخل من الاتحاد السوفييتى فى ظل بعض الظروف ، كما تهدف الى تحاشى التدخل عسكريا بقوة بسبب مخاطرة تصعيد الموقف ، واستغلال خيبة الأمل التى تشعر بها البدان العربية للتغلغل فيها على مستوى كبير ، والسعى الى التوصل لحل وسط للنزاع فى الشرق الأوسط مع الولايات المتحدة فى ظل بعض الظروف العالمية دون التخلى عن المواقع التى اكتسبها فى العالم العربى .

واذا كانت روسيا تؤيد موقف العرب ايجابيا ، ولا يستبعد قيام العرب بعمل عسكرى محدود . . فان أى ضغط روسى قد يضع اسرائيل فى موقف صعب ، ولكنه لن يكون كافيا فى حد ذاته لاجبار اسرائيل على تغيير سياستها . اذن ما هو موقف أمريكا ؟

ان موقف امريكا تحكمه تناقضات وضروريات متعارضة . ان مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية فى البلدان العربية هى أكبرجدا من مصالحها فى اسرائيل . وبينما تفرض مصالح أمريكا عليها أن تتخذ موقفا مختلفا . . فانها تؤيد اسرائيل لأسباب أخرى غير مجرد المصالح . . اسباب عقائدية . . واسباب تتعلق بالسياسة الداخلية لامريكا نظرا لاهمية الناخبين اليهود فى الحياة السياسية الأمريكية. ومن المؤكد أن رفض امريكا اتخاذ موقف معاد من الدولة اليهودية، قد سهل من مهمة الروس فى مصر وسوريا .

وبالنسبة للموقف الآن . . فمن الجائز أن يكون الأمريكيون مستعدين للقيام بتنازلات فى الشرق الأوسط ، وأن يحاولوا فرض تسوية على اسرائيل عن طريق المفاوضات ، وفقا لما يشترطه الاتحاد السوفييتى . . وذلك فى مقابل سعيها الى التوصل الى اتفاق

مع موسكو فى الشرق الأقصى وبشأن مشكلات نزع السلاح . ولكن يحتمل أيضا أن انسحاب أمريكا من فيتنام قد يدفعها الى المراهنة على انها لن تضحى بمصالح البلدان التى كانت تساندها فى المناطق الاستراتيجية الأخرى .

وهناك احتمال ثالث ، وهو أن التدخل السوفييتى فى تشيكوسلوفاكيا وفشل المفاوضات الخاصة بفيتنام قد يتسببان فى زيادة التوتر العالمى واتباع أمريكا لسياسة أكثر تشددا فى الشرق الأوسط .

ويبدو أن الولايات المتحدة ، تهدف الى تحاشى نشوب نزاع مسلح فى المنطقة ، والابقاء على مصالحها القائمة واستعادة مكانتهافى العالم العربى ، كما تهدف الى تشجيع الظروف المؤدية لتفاهم عالمى مع الاتحاد السوفييتى ، وفى الوقت نفسه ، عدم التضحية بالمصالح الحيوية لاسرائيل . أن أمريكا لا تود اضعاف أسرائيل بصورة قد تعرض وجودها للخطر .. ولكن لا يبدو أن وزارة الخارجية الأمريكية تعتقد أن مبدأ التوقيع على معاهدة الصلح لا يعتبر ضرورة ملحة ، ويبدو أيضا أن أمريكا لا توافق على موقف اسرائيل بالنسبة القدس . وقد استغل الضغط الأمريكى ، بصفة خاصة ، احتياجات اسرائيل الملحة فى مجال التسليح الجوى ، وأجبرها على التخلى عن المفاوضات المباشرة على الأقل فى المرحلة الأولى للاتصال مع العرب . ولكن الأمر لم يكن متعلقا بمصلحة حيوية لاسرائيل ، على عكس معاهدة الصلح . وقد تجبر واشنطن اسرائيل نظريا على الرضوخ على طول الخط ، ولكن هذا الاحتمال نظرى بحت .. اذ يجب أن نضع الرأى العام الأمريكى فى الاعتبار .

ويبدو أن اقصى ما يمكن أن تفعله أمريكا ضد اسرائيل .. هو أن تظهر تشددا اكبر فى الأمم المتحدة او فى مجال تزويدها بالأسلحة . ولن يكون ذلك كافيا لحمل اسرائيل علىتغيير سياسة تعتبرها نابعة من مصالحها الحيوية . مصالح لا يمكن لاسرائيل أن تتخلى عنها الا اذا أقدمت الولايات المتحدة على مباشرة ضغط شديد جدا عليها . غير انه من المستبعد تصور وقوع هذا الضغط .

وهكذا .. فان من المحتمل ان يؤدى العمل الدبلوماسى لروسيا وامريكا الى اجبار الدول العربية واسرائيل على تعـديل بعض من مواقفها التاكتيكية . بل أن هناك احتمالا فى أن يؤدى هذا العمل الى بدء اجراء مفاوضات .. ولكن من المشكوك فيه أن يؤدى الى تخلى الطرفين المعنيين عن مواقفهما الأساسية ! .

وتدفعنا هذه الاعتبارات العامة فى ذاتها .. الى بحث حـالتين خاصتين ، وهما : موقف اسرائيل تجاه مصر ، وموقفها تجاه الأردن.

ففى بداية سنة ١٩٦٨ تردد الحديث عن احتمـال التوصـل الى تسوية مؤقتة بين مصر واسرائيل ، وخلال الشهور التالية اتضح التاكتيك المصرى بصورة أكبر . ومنذ ذلك الوقت يسير المصريون على خطين متوازيين . يجب الاعتراف بأنهما لا يخلوان من الفعالية . فهم من جهة .. يثيرون من وقت لآخر بعض الحوادث فى منطقة قناة السويس ليثبتوا للعالم أن الموقف الراهن يشكل تهديدا للسلام ، وأن جلاء اسرائيل عن الأراضى المحتلة يعتبر الوسيلة الوحيدة لضمان الهدوء . ومن جهة أخرى يشيعون مشروعات مختلفة تتضمن بعض التنازلات ، مع علمهم مقدما بأن اسرائيل سترفضها ولا يمكن أن توافق عليها .. مما يضع اسرائيل فى موقف دفاعى على الصـعيد الدبلوماسى ، وفى هذه الأثناء .. تستعد مصر لاحتمال نشـوب حرب جديدة .

أما بالنسبة للأردن .. فان من المحتمل ، بل ومن المقبول ، التوصل الى معاهدة صلح فى هذه الحالة الخاصة والمحدودة ولكن الأمر غير مؤكد على الاطلاق لان هناك أربع عقبات رئيسية . فأولا ــ اعتراض مصر. ان اسرائيل تعرف أن أى سلام على المدى البعيد مع العالم العربى يجب أن يمر بمصر . وأن التوصل الى اتفاق مع الأردن وحده يحتمل ألا يكتب له الاستقرار . واذا كان موقف القـاهرة مهما بالنسبة لاسرائيل ، فانه أكثر أهمية بالنسبة للملك حسين .. لخوفه من العناصر الموالية لمصر داخل الأردن ، ومن المنظمـات الفدائية .. هذه هى العقبة الثانية . وأخيرا هناك عقبة احتياجات الأمن الاسرائيلى وعقبة القدس .

وهكذا .. فاننـــا نواجه نوعا من الديناميكية المستقلة للنزاع بيننا وبين العرب . هناك (رفض) يهودى فى مواجهة (الرفض) العـــربى . وحتى الآن كان العـــرب هم أكثر من خسر فى هـــذا التسلسل من الرفض ، ولكن الخاسرين سيكونون من الجـــانبين فى الأجل الطويل . وهكذا فانه من غير المحتمل على الاطلاق ظهور امكانيات سلام حقيقى بين اسرائيل والعالم العربى .. أو على الاقل مع مصر .. أهم دولة فى العالم العربى . اذن .. فى هذه الحالة .. طالمـــا أن احتمالات السلام منعدمة .. هل هناك احتمالات للحـــرب ؟

أن الهزيمـــة المصرية أمـــام اسرائيل فى ســـنة ١٩٦٧ كانت فـــادحة . وبالاضافة الى الأسباب العسكرية والســـياسية التى وضعت الجيش المصرى فى موقف صعب جدا من البداية .. فان هنـــاك عوامل أخرى نفسية . أن أخطر عـــامل سيكولوجى فى الهزيمة العربية يكمن فى ضعف الصلات الاجتماعية التى تربط بين العربى وأخيه العربى ، ونتيجة لهذا العجز فى البنيان الاجتماعى ، يجد كل جندى عربى نفسه يحارب فى الأوقات الحرجة للمعركة كفرد معزول .. لا باعتباره عضوا فى مجموعة . لذلك .. فان كل فرد يميل الى الاهتمام بنفسه أولا ، فتتحلل الوحدة . وقد سئل قادة بعض الجماعات العسكرية عندما وقعوا فى الأسر عن أسماء رجالهم ، فقالوا أنهم كانوا يكتفون بمعرفة أسماء قادة السرايا ، وكانوا يعتبرون سؤالهم عن أسماء الرجـــال الذين خدموا تحت أمرتهم اهانة لهم .

وصدم الاسرائيليون عندمـــا لاحظوا الهوة التى تفصـــل بين الضباط بعضهم عن البعض ، وأحيانا كراهيتهم المتبادلة لبعضهم البعض .. حتى وهم فى الأسر . فقد كان كل منهم يلوم الآخر بأنه لم يقم بواجبه ، كما لو كانوا هم قد تصرفوا بطريقة مرضية .

وتشير دراســـات أخرى خاصة بالمجتمع العربى .. الى أن العامل الثانى الذى ساهم فى انهيـــار العرب هو موقفهم تجـــاه الحقيقة والواقع . ان المرء ليصعق من كثرة الأكاذيب التى يرددونها فى حياتهم العـــامة . ومن أمثلة تلك الكذبـــات الكبرى .. هذه

المزاعم التى قالت ان الطيران المصرى دمر نتيجة لهجمـــات أمريكية وبريطانية . وقــد حــدث فى ســـيناء ان وقعت بعض الوحدات المصرية فى الاسر نتيجة لأنبــاء مضـــللة أذاعهـــا راديو القاهرة عن انتصار الجيوش العربية ، فقد كانت سياسة الاعلام المصرى ابان الحرب ضد المصالح المصرية بأكثر مما هى معها .

ولكن .. هل تعتبر نقاط الضعف هذه ملازمة حقـــا للمجتمع العربى وتقاليده الثقافية واتجاهاته السيكولوجية العميقة ؟ وهل تستطيع اسرائيل أن تستمر فى اعتمادها على نقاط الضعف هذه؟ اننى أشـــك فى ذلك . فاذا أمكن لاسرائيل أن تعتمد فى الاجـــل القصير والمتوسط ــ أى فى السنوات المقبلة ــ على نقاط الضعف العـــربية الســـابقة ، فانه من الخطر أن تعتمـــد على ذلك لفترة أطـــول .. !

ان من الممكن ــ بل من المحتمـــل ــ أن يشن العرب حـــربا جديدة ضد اسرائيل ، فى شكل هجوم مفاجىء . ان الذى يجعـــل هذا الاحتمال نظريا بأكثر مما هو واقعى .. هو مدى قدرة العرب على التغلب على المخابرات الاسرائيلية التى قد تكشفت مثـــل هذه الخطة فى الوقت المناسب ، والتغلب على الرادار الذى قد يكتشف الطائرات المصرية .. بعد ان اصبح عليها منذ يونيو ١٩٦٧ أن تقطع مسافة كبيرة نسبيا لبلوغ الأراضى الاسرائيلية . وأخيرا .. فانه قد يكون من الصعب تدمير الطيران الاسرائيلى وهو رابض على الأرض لأسباب فنية عديدة ، منها مثلا حالة الطوارىء شبه الكاملة التى تطبق على هذا الســـلاح .

ومن ناحيـــة اخـــرى .. فان اسرائيل لا يمكنهـــا أن تفرض الصلح على العرب عن طريق احراز انتصارات جديدة . ان اسرائيل املت مرتين ــ ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ــ فى فرض السلام على العـــالم العربى عن طريق هزيمته عسكريا ، ولم يتحقق املها فى المرتين . وقد يستطيع الجيش الاسرائيلى أن يدمـــر الجيـــوش العربية فى الحـــال ، أو ان يحتل فى الحالات القصوى كلا من عمان ودمشق والقاهرة ، بل انه قد يتمكن من البقاء لفترة ما فى عمـــان ، ولكن لايمكنه ان يبقى فى دمشق . أو فى القاهرة بصفة خاصة . وقد

اضطرت اسرائيل منذ حرب الأيام الستة واحتلال الأراضى الجديدة .. الى مد فترة التجنيد الالزامى الى ثلاث سنوات ، فضلا عن أن جنود الاحتياطى يستدعون للخدمة العاملة شهرين كل عام تقريبا . أن هذا أقصى ما يمكن أن يقدمه سكان البلاد واقتصادها . ومن الواضح..أن هناك استحالة فنية بالنسبة لجيش بعدد جيش اسرائيل فى مد رقعة الأراضى التى يحتلها لفترة طويلة، خاصة بالنسبة للمناطق المكتظة بالسكان كمشارف دمشق ودلتا نهر النيل . وهذه معطيات تعرفها اسرائيل كما يعرفها العرب ، وقد تقودنا الى استنتاج بسيط ، هو أن هناك حدودا لفعالية استخدام قوة اسرائيل العسكرية .

بعد ذلك .. هناك سؤال : هل يحتمل تدخل الاتحاد السوفيتى عسكريا لصالح العرب ؟

ان هذه الفكرة قد تبدو طبيعية داخل الجيش السوفيتى . عندما نعرف أنه أبان الغزو السوفيتى لتشيكوسلوفاكيا .. خرجت أنباء تشير الى أن الجنود الروس كانوا قد أخبروا قبل ذهابهم الى تشيكوسلوفاكيا .. أنهم متوجهون الى مصر لمحاربة اسرائيل .

ولكن من المعقول هنا أن نقول : ان اقصى ما يستطيع الروس أن يفعلوه بشكل مباشر هو التدخل المحدود جدا .. وحتى هذا الاحتمال ضعيف للغاية نظرا للوجود الأمريكى فى المنطقة . اذن .. هل تتدخل أمريكا ؟ ان الواضح أنها قد تتدخل فى حالة واحدة فقط ، هى عدم السماح بتدمير اسرائيل ، ولكن هناك احتمال اقل بالنسبة لتدخل أمريكا فى حالة وجود عمل عسكرى محدود يهدف الى اجبار اسرائيل على الجلاء عن الأراضى المحتلة .

والآن ، نظرا لأنه من غير المحتمل اقرار سلام قريب بين اسرائيل ومصر — أقوى جاراتها العربية — فان الدولة اليهودية ستكون مضطرة الى تركيز جل اهتمامها لفترة طويلة على مشكلات الأمن . ان أمن اسرائيل يتوقف بطبيعة الحال على مجموعة من العوامل ، من بينها : الحصول على أسلحة جديدة أو صنعها ، والمفاهيم الاستراتيجية لهيئة أركان الحرب ، وتدريب القوات

المسلحة ، وتنظيم الامدادات والتموين بالجيش ، وتنظيم اقتصاد الحرب وأجهزة المخابرات العسكرية وغيرها .. وهذه موضوعات نتركها للاخصائيين لنركز على بعض المشكلات الأساسية .

من هذه المشاكل .. مصير الأراضى المحتلة . فلو بدأنا بالمرتفعات السورية التى تحتلها اسرائيل الآن ، فاننا سنجد أنها تطل مباشرة على القرى الاسرائيلية الواقعة فى منطقة بحيرة طبرية ووادى نهر الأردن . وخلال عشرين عاما . دأب السوريون على مهاجمة السكان الاسرائيليين فى الوادى وعلى ضفاف البحيرة بصفة متقطعة ، من فوق هذه المرتفعات التى كانت تبدو وكأنها غير قابلة للسقوط .

ومن الواضح أن هــذا الموقف يجب الا يتكرر . أن من بين الحلول الممكنة لهذا الموقف .. نزع سلاح مرتفعات جولان ووضعها تحت اشراف دولى . ولكن المعروف أنه من الصعب أن نعتمد — كاسرائيليين — منذ مايو ١٩٦٧ على دوام الاشراف الدولى ، خاصة وان كثرة تغير نظام الحكم فى سوريا قد يجىء مرة بحكومة تضمن الابقاء على نزع سلاح هذه المنطقة ، ومرة أخرى بحكومة تلغيه .

ومن ثم ، فـــانه من الواجب وجود اشراف اسرائيلى . أن الاشراف على جولان لا يعتبر ضمانا بالنســـبة لأمن قرى وادى الأردن فحسب ، ولكنه سيضمن للاسرائيليين أيضا أنهم باحتلالهم لهذه المنطقة الصـــغيرة — التى تقل مساحتها عن ألف كيلو متر — سيجعلونها منطلقا استراتيجيا أساسيا للزحف جنوب دمشق فى حالة استئناف القتال مع سوريا ، ومهاجمة الأردن من الخلف . كما أن الاشراف على مرتفعات جولان ، يعنى أيضــا الاشراف على نهر بانياس وسد المخيبة ، ممـــا يسمح بمنع أية محاولة عربية جديد لتحويل مياه نهر الأردن (الذى يعتبر مصدرا آخر للنزاع) . ومباشرة الضغط على الأردن اذا ما لزم الأمر . فضلا عن أن خط أنابيب شركة أرامكو الناقلة للبترول السعودى الى مصافى سوريا يمر بهذا الاقليم ، مما يعتبر ضمانا هاما للابقاء على السلام فى أيدى اسرائيل .

وهكذا يبـــدو أن الاشراف على المرتفعات الســـورية ، يعتبر ورقة أساسية بالنسبة لنا — نحن الاسرائيليين .

ولننتقل الآن الى صحراء سيناء .

ان وجــود اشراف مصرى من طرف واحــد على ســيناء كلها .. قد يسمح لحكومة القاهرة ، اذا ما رغبت فى اســتئناف القتال — كما فعلت فى ثلاث مرات فى المــاضى — أن تحشد قواتها بالقرب من الحدود الجنوبيــة لاسرائيل . مهــددة فى كل وقت بشــطر النقب الى قسمين والتوغــل صــوب منطقــة تل أبيب الساحلية . وقد تقرر اغلاق مضيق تيران من جديد . ففى حالــة وقوع هجوم جوى مصرى ترتفع فترة الانذار من أربع دقائق الى سبع وعشرين دقيقة . وبينما كان فى امكان أجهزة الرادار المصرية الموجودة فى العريش ونقاط أخرى من شمال سيناء — قبل يونيــو ١٩٦٧ — أن تتبع من الناحية النظرية كل حركة جوية فى اسرائيل ؛ فانها فى هذه المرة — أجهزة الرادار الاسرائيلية الموجودة على ضفاف قناة السويس — هى التى يمكنها ان ترصد التحركات الجوية فى الدلتا والقــاهرة . وفى حــالة شن المصريين لهجوم برى ضــد اسرائيل ، فسيكون عليهم أن يعبروا أولا عائقــا هامــا هو قنــاة السويس الذى يدعمه خط من التحصينات ، ثم عبور ما يقرب من مائتى كيلو متر من الخطوط المصرية ، أصبحت بعض المراكــز الحيوية المصرية (ولا سيما بور سعيد) على مدى ضربة مدفع من الخطوط الاسرائيلية .

وهذه العوامل العسكرية .. تعطى لاسرائيل أيضا ميزة سياسية ضخمة . فأمام التهديد المصرى ، أصبح بامكانها الآن أن تلتــزم استراتيجية دفاعية ، وتتفادى الادانة التى كانت توجه اليها عندما كانت تشن هجمات وقائية وهى الهجمات التى كانت ضرورية حتى يونيو ١٩٦٧ . ولنضف الى ذلك : الميزة السياسية التى يمثلهــا بالنسبة لاسرائيل الاشراف على احدى ضفتى قنــاة الســويس ، والميزة الاقتصادية الناجمة عن امتــلاك حقول البترول فى سيناء (التى يعتبر انتاجها الحالى ضعف الحاجة الجارية لاسرائيل الى هــذا الخــام) وكذلك مناجم المعادن المختلفة .

ويعتبر الوضع القائم الحالى بالنسبة لوجهة نظر امن اسرائيل مثاليا فى قنــاة السويس وسيناء ، ولكنه يستبعد اية امكانية

للسلام مع مصر . اذن ما هو الحل ؟ ان هناك عدة حلول وسط تفرض نفسها ، من بينها مثلا : تقسيم سيناء الى قسمين ، بخط يبدأ من العريش شمالا وينتهى بشرم الشيخ جنوبا ،على أن يخضع كله — مثل الضفة الغربية فى الأردن — لاشراف اسرائيل . وكل هذه الحلول على اساس توقيع معاهدة صلح مقدما مع الدول العربية . أما لو لم يحدث ذلك .. فان بقاء الاشراف الاسرائيلى العسكرى على الأراضى المحتلة الآن يضمن لاسرائيل مزايا استراتيجية أساسية ذكرناها من قبل .

واذا كان السلام غير ممكن مع مصر ، والنهاية غير متوقعة لمنظمات المقاومة الفلسطينية .. اذن ، هل هناك حل نهائى لهذه الأزمة ؟!

ان هناك مبدئيا ، مزايا واضحة لتوقيع معاهدة صلح بين اسرائيل والأردن ، حتى فى حالة رفض مصر واعتراضها . أن التوصل الى تسوية بين اسرائيل والأردن سيثبت أولا أن بالامكان قيام تعايش بين الدولة اليهودية واحدى الدول العربية فى الشرق الأوسط . وعندئذ يحدث شرخ فى الجبهة المشتركة التى يقيمها العرب منذ عشرات السنين ضد العمل الصهيونى ودولة اسرائيل، كما تضعف حركة حرب العصابات ابتداء من غرب الاردن وشرقه . كما ان هناك احتمالا فى أن ينضم لبنان والسعودية الى الحل السلمى ، وبذلك تنشأ فى الشرق الأوسط منطقة خاصة للنفوذ الأمريكى وتتمتع ايضا بحماية الولايات المتحدة ، وتضم كلا من اسرائيل والأردن ولبنان والسعودية . وعندئذ يمكن لاسرائيل أن تكسب من جديد عطف الرأى العام الغربى ، كما أن فرنسا سترفع بدون شك القيود المفروضة على تزويد اسرائيل بالأسلحة ؛ ولن يكون الجيش الاسرائيلى قلقا على حدوده الشرقية فى حالة نشوب حرب جديدة مع مصر . واخيرا .. فان الاقتصاد الاسرائيلى سيجد منافذ واسعة فى البلدان المجاورة . ولا شك أن هذه المزايا الرائعة تبرر ان تعيد اسرائيل جزءا من غرب الأردن وأن تقدم تنازلات فى القدس .

فى الواقع .. ان أى ثمن تدفعه اسرائيل للأردن لن تكون له قيمة قبل التوصل الى اتفاق مع مصر . ان أى تسوية منفصلة مع

الملكحسين سوفتظل دائما محفوفة بالمخاطر وغير دائمةالاستمرار، طالما لم توافق عليها مصر ، لهــذا فان قيام اسرائيل بالتخلى عن أمور هامة فى مجال الأمن كثمن للتوصل الى اتفــاق منفصل مع الاردن ليس له مـــا يبرره فى الوقت الحـــاضر ، لأن على اسرائيل فى جميع الأحوال ، أن تحتفظ باشراف عسكرى كاف على غرب الأردن لتتمكن من اعادة احتلال المنطقة فى بضع ساعات فى حـــالة قيـــام حكومة معادية فى عمان .

واذا كان مستقبل علاقة اسرائيل بالمنطقة كلها ما زال محفوفــا بالمخاطر .. فهل توجد مخاطر مماثلة بالنسبة لمســـتقبل المجتمع الاسرائيلى نفسه ؟ فى الواقع أن هناك مشكلتين أساسيتين يجب على اسرائيل ان تحلهما فى المستقبل القريب ، حتى لا تتقهقر الى مستوى مجتمع من مجتمعات المشرق العربى وهما :

● معدل اندماج اليهود الذين هم من أصل افريقى لو شرقى فى مجتمع تكنولوجى حديث .

● مشكلة تكوين الصفوة الحاكمة .

أما بالنسبة للمشكلة الأولى ، فانه حتى حرب الأيام الستة .. كان المجتمع الاسرائيلى ، ينقســـم الى معسكرين تزداد الشـــقة بينهما : « الموسرين وهم اليهود ذوو الأصل الأوروبى .. والفقراء وهم ذوو الأصل الشرقى . وبعكس مشكلة الزنوج فى أمريكا ــ التى تمثل ١٠ ٪ من السكان ــ فان اليهود الشرقيين فى اسرائيل يمثلون اكثر من ٤٥ ٪ من السكان . ويتدهور وضعهم يوما بعد يوم .

أما مشكلة الصـــفوة الحاكمة .. فان مستقبلهـــا متشـــائم بالدرجة نفســـها حيث ما زالت غالبيـــة الصـــفوة الســـياسية والاقتصـــادية ، تتألف حتى الآن من يهـــود من أصـــل روسى ، وبولندى . أما الصفوة العلمية ، فيسيطر عليها الأصل الأوربى والأمريكى .

وهنـــاك بعد ذلك .. مشكلة الابقاء على التماسك الاجتماعى الاسرائيلى ، وهى هنا مطروحة على مستويين : حل للقضاء على

الهوة التى تفصل بين اليهود الشرقيين والأوربيين من ناحية ، ثم حل مشكلة السكان العرب داخل الأراضى التى تحتلها اسرائيل من ناحية أخرى .

ان المشـــكلة الأولى زادت حـــدة عندما ظهرت فترة هدوء نسبى على الحدود فى السنوات الســـابقة على ١٩٦٧ . فعندما اقترب المجتمع الاسرائيلى من أن يكون مجتمعا (طبيعيا) أوشكت تلك المشكلة على الانفجـــار ، وطبقت سياسة اقتصادية انكماشية عجلت من اتجاه التفكك الاجتماعى . ان انتصار يونيو ١٩٦٧ قد أعاد التماسك الى المجتمع الاسرائيلى ، ولكن المشكلة ما زالت تهدد بالانفجار ، ويمكن حلها بواسطة هجرة يهودية واسعة تأتى من الدول الغربية . ولذلك .. فربما يكون من مصلحة اسرائيل دائما أن تلجأ من وقت لآخر ، الى تقوية الاتجاهات المعادية للسامية فى الغرب .. بهدف تنمية الرغبة فى الهجرة اليهـــا .

الجيش والسياسة فى إسرائيل

تأليف : عاموس بيرلموتر

هذا الكتاب

وهذا المؤلف

بالنسبة للجيش الاسرائيلى ، فان أبرز شخصيتين مثلتا السلطة المدنية فى منصب وزير الدفاع كانتا دافيد بن جوريون وموشى ديان . ومع ان هذا الكتاب يعتبرهما مدنيين .. الا أن الخط الفاصل بين المدنيين والسياسيين ليس بهذا الوضوح القاطع فى اسرائيل ، نظرا لأن الحركة الصهيونية حرصت من البداية على أن تقيم مجتمعا عسكريا أشبه بمجتمع « اسبارطة » القديم . مجتمع من المحاربين ، الذين يقومون بأعمال عسكرية .. حتى وهم بملابس المدنيين .

وهذا الكتاب يحلل — من وجهة نظر اسرائيل طبعا — العلاقة بين السلطة المدنية والسلطة العسكرية فى اسرائيل ، بناء على المفهوم السابق للحدود بين السلطتين . ونظرا لندرة المؤلفات التى تتناول هذا الموضوع — خصوصا من وجهة نظر اسرائيل — فان هذا الكتاب « العسكرية والسياسة فى اسرائيل » يكتسب أهمية مضاعفة من حيث موضوع الكتاب ، ومن حيث مؤلفه .

ان المؤلف « عاموس بيرلميوتر » اسرائيلى من مواليد تل أبيب ، حصل على البكالوريوس ثم الماجستير ، ثم حصل على الدكتوراه من جامعة كاليفورنيا الأمريكية . وقد خدم فى وزارة الدفاع الاسرائيلية كعضو فى لجنة الطاقة الذرية الاسرائيلية . كما أنه كان زميلا باحثا فى معهد الدراسات الدولية فى « بيركلى » حتى ١٩٦٧ ، ويعمل الآن زائرا بمركز الشئون الدولية بجامعة هارفارد الأمريكية ، مع احتفاظه بجنسيته الاسرائيلية ، ومساهمته فى ابحاث وزارة الدفاع الاسرائيلية .



كان الانتصار المفاجىء الذى احرزه «زاحال» — جيش الدفاع الاسرائيلى — سنة ١٩٦٧ نتيجة لفلسفة تعتبر أن المجهود الحربى أداة لبناء الامة منذ بداية الحركة الصهيونية فى فلسطين . وفى عام ١٩٤٨ أدت حرب التحرير الاسرائيلية الى القاء الضوء على الجيش ومنذ ذلك الوقت أصبح لقادة الجيش نفوذ بين النخبة الحكومية والاقتصادية التى التزمت بادخال الأساليب الحديثة فى الجيش بسرعة . وقد أدى انتصارنا العسكرى على المصريين فى ١٩٥٦ وانتصارنا على مصر والاردن وسوريا فى ١٩٦٧ الى دعم سمعة الجيش .

وبالرغم من أن جيش اسرائيل النظامى لايزيد على ثمانين الف جندى .. الا أن سبع اجمالى السكان اليهود، وعددهم مليونان ونصف مليون ، يعتبر احتياطيا عسكريا فعالا . لهذا فمن الطبيعى ان نتساءل عن أثر الجيش على الحياة السياسية فى اسرائيل .

ولكى نفهم هذا الاثر ، لابد أن نفهم الدور الذى تم تحديده للجيش الاسرائيلى من البداية لكى يقوم به بالنسبة لأمن اسرائيل وسياستها .. ان هذا الدور يمكن تلخيصه فى (نظرية التطويق العربى) التى اعدت فى البداية تحت اشراف بن جوريون .. واصبحت من يومها هى المبدأ الذى يحكم عمل وتفكير جيش الدفاع الاسرائيلى — زاحال .

ان هذه النظرية تعتمد على الأفكار التالية :

● أولا : ان العرب يحاصرون اسرائيل جغرافيا .

● ثانيا : ان مهمة الجيش هى أن يحاصر العرب عسكريا لكى يلغى تأثير هذا الحصار الجغرافى .

● ثالثا : ان هذا الحصار يعتمد على الحصول باستمرار على أحدث الأسلحة . ومهمة القيادة السياسية أن تضمن دائما وجود دولة — أو اكثر — قادرة على امداد اسرائيل بأحدث الأسلحة هذه .

● رابعا : ان نجاح السياسة لا يقاس بالحصول على سلاح حديث فقط .. ولكن بالحصول على المعلومات التى تمكن الجيش من صناعة هذا السلاح الحديث محليا ، حتى لايظل الجيش تحت رحمة الدولة الموردة ، والتى قد تتعارض مصالحها مستقبلا مع مصالح اسرائيل ..

ان بن جوريون ، باعتباره اول وزير دفاع لاسرائيل ، كان هو بالطبع أول من أشرف على تطبيق هـذه النظـرية . ان مـوقف بن جوريون كان قائما على أساس : انه طالما احتفظت اسرائيل بتفوقها العسكرى الذى يسميه هو — لأسباب سياسية — توازنا عسكريا على قوات الدول العربية مجتمعة .. وطالما استطاعت اسرائيل أن تحمى حدودها وتتوسع فيها عن طريق الغارات الانتقامية ، فانها ستكون فى أمان . وهذا الوضع الدفاعى قائم على أكثر من مجرد الحد الأدنى لاعتبارات الأمن القومى . فالمقصود به السماح بقيام مناورات عسكرية مرنة على الحدود . حتى يمكن صد أى هجوم عربى فوق الأراضى العربية . ولا بد — فى جميع الأحوال — أن تتم جميع الأعمال العسكرية فوق أرض العدو العربى .. وليس فوق أرضنا فى اسرائيل . ان هذا معناه الانتقام السريع . ومعنى الانتقام هو اقامة السلام عن طريق القوة .

وقد حرص موشى دايان — وزير الدفاع الحالى فى اسرائيل — أن يطبق هذه المبادىء باعتباره تلميذا مخلصا لبن جوريون . ان مفهوم دايان للعلاقات العربية الاسرائيلية ينبع من الافتراضـات التاليـة :

● اولا : ان الحـد الأقصى لمهمـة الجيش هى أن يكسب الحرب .. ان ولاء الجيش لابد أن يكون لمهنته ، وليس لمساندة أى حزب سياسى ضد حزب آخر . أن الجيش هو مجموعة من الفنيين المتخصصين ، وتخصص أفراده هو القيـام بالأعمال العسكرية لتحقيق أهداف سياسية تحددها القيادة المدنية .

● ثانيـا : ان الحـد الأدنى لمهمـة الجيش ، هو الدفاع عن حدود اسرائيل .

● ثالثا : ان الدولة كلها ــ اسرائيل ــ هى حدود .

● رابعا : ان الجيش يجب أن يعمل على اســاس أن هناك دائما تدميرا وشيك الوقوع .

● خامسا : ان سياسة العرب بالنسبة للتسلل هى (حــرب فدائيين) ضد اسرائيل .

● سادسا : ان سياسة اسرائيل هى تحــويل الأمر الواقــع الى حالة دائمة .. وتحويل الهدنة الى صلح .

● سابعا : ان غرض الغارات العسكرية التأديبية .. هو تنبيه الدول الكبرى حتى تقوم بالضغط على العرب من أجل الصلح مع اسرائيل .

لقد ظلت المبــادىء الســبعة الســابقة دليل عمــل الجيش الاسرائيلى منذ ١٩٤٨ حتى ١٩٦٧ . ان التغيير الوحيــد الذى طرأ على الموقف بعد ١٩٦٧ يتعلق بالمبدأ السابع فقط . فنتيجة للانتصار الاسرائيلى فى الحرب ، أصبحت سياسة اسرائيل الآن تتنافى مــع اعطاء أى دور للدول الكبرى ، بينما أصبح العرب هم الذين تتوقف قدرتهم العسكرية والسياسية على ما تريده الدول الكبرى .

والمهم الآن ان نتذكر ان (نظرية التطويق العربى) التى عمل الجيش الاسرائيلى على أساسها دائما ــ قد ترتب عليها فى التطبيقــ اجراءات كثيرة تحدد طريقة العمل داخل الجيش نفسه . ان وجود جيش محترف ، وضرورة احتفاظ هــذا الجيش دئما بمســتوى عال من التخصص ، قد أدى الى نتائج عديدة .. من بينها مثــلا : ضرورة الاحتفاظ بمستوى سن منخفض فى القيادات العليا بالجيش حتى تكون القيادات دائما من الشباب . لقد تم وضع حــد أعلى للأعمار بالنسبة للخدمة بالجيش . خصوصا فى المراكز القيادية بحيث تكون القيادة دائما محترفة وشابة ، وبحيث تتاح لهــا فرصة الترقية بسرعة حتى يسمح للمواهب الجديدة بالظهور دئما .

ونتيجة لهذا .. فان رؤساء أركان حــرب الجيش الاسرائيلى يتولون مناصبهم فى المتوسط لمدد تتراوح بين ثلاث سنوات وخمس سنوات . لقد تعاقب على الجيش فيما بين عامى ١٩٤٨ و ١٩٦٧ سبعة رؤساء لأركان الحرب ، استقال احدهم بعد سنتين ، وواحد بعد سنة واحدة ، وواحد بعد انتهاء مدة السنوات الثلاث . ان رؤساء الأركان السبعة بلغت أعمارهم ــ فيما عدا اثنين منهم ــ أقل من اربعين عاما عند تعيينهم .

ان القاعدة نفسها موجودة بالنسبة لكبار الضباط . ومتوسط الأعمار منخفض نسبيا ، اذ يبلغ من ٤٠ الى ٤٤ سنة لمن فى رتبة بريجادير جنرال ومن ٣٥ الى ٤٠ لمن فى رتبة كولونيل ، ومن ٣٠ الى ٣٥ لمن فى رتبة ليفتانت كولونيل ، وذلك فى سنة ١٩٦٦ .

ولأن هذا الكتاب يهتم اساسا بسيطرة المدنيين على العسكريين فى اسرائيل ــ بالرغم من الدور غير العادى الذى يقوم به «زاحال»ــ فان هناك حادثا من الماضي القريب سوف نستخدمه للدلالــة على تغلب المدنيين على السلطة العسكرية .

فعندما قام الرئيس المصرى ناصر فى ٢٤ مايو ١٩٦٧ بحصــار خليج العقبة .. واجهت الحكومة برئاسة « ليفى أشكول » هذا التحدى بالدبلوماسية فى بادىء الأمر . ولكن المبادرة الأمريكيةبدعوة الدول البحرية للمساعدة فى رفع الحصـــار أدت الى ما أعتبرناه كاسرائيليين كارثة دبلوماسية . ويومها طالبت الصحافة وضغط الجمهور على الحكومة من أجل القيام بعمل عسكري . وقبل نشوب الحرب بعشرة أيام ، طالب زعماء أحزاب المعارضة ومعظم الصحف الاسرائيلية بتشكيل حكومة طوارىء يتم فيها ائتلاف جميع الأحزاب. لقد مارست المعارضة السياسية ضغطا قويا على الحكومة لفصل منصب وزير الدفاع عن منصب رئيس الوزراء (وكان أشــكول يشغلهما معا) . وطالبت أيضا بتعيين موشي ديان (بطل سينـــاء ١٩٥٦) . فى هذا المنصب.واجتمع حزب (الماباى) ــ وهو الحزب الرئيسى فى الائتلاف ــ عدة مرات .. وعارضت لجنته التنفيذية ــ وخصوصا الســكرتير العام وقتها جــولدا مائير ــ فى انضمام

الجنرال دايان . وبعد عدة أيام من الضغط .. استطاعت المعارضة أن ترغم زعامة الحزب على تشكيل حكومة وحــدة قومية مع تعيين دايان وزيرا للدفاع .

وخلال تلك الفترة (من ١٥ مايو حتى ١٥ يونيو) لم يصدر عن الجيش وأركان حربه أى عمل يقصد به تحدى مجلس الوزراء . ان كل ما فعله الجيش .. هو الضغط على رئيس الوزراء من أجل الاقدام على عمل عسكرى ، وقام اسحــق رابين ــ رئيس أركان الحرب ــ بالدعوة الى التعبئة العــامة وبالرغم من أن هيئة أركان حرب الجيش كانت مستاءة من «أشكول» ولا تثق فى كفايته وتعتبره مفتقرا الى الحزم .. الا انها ظلت خاضعة للسلطة المدنية . وحتى عندما تم تعيين دايان وزيرا للدفاع ــ وهو الأمر الذى كان الجيش يريده فى الحقيقة ــ فان هذا التعيين تم بواسطة السلطة المدنية، وأصبح موشى دايان نفسه ممثلا للسلطة المدنية فى منصب وزيــر الدفــاع .

وهذا التحديد الواضح لدور السلطة المدنية ــ بالنسبة للجيش ــ لم يستقر الا منذ سنة ١٩٤٨ . أما قبلها فلم تكن هنــاك حــدود واضحة بين السياسة والعسكرية ، منذ أن أنشئت «الهاجاناه» سنة ١٩٢٥ ، باعتبارها أول منظمة يهودية مسلحة فى فلسطين. لقدقامت (الهاجاناه) أولا للقيام بالأعمال المسلحة ضد العرب فى فلسطين ولحماية الجالية اليهودية فى فلسطين .. ولسنوات كثيرة .. لم تكن (الهاجاناه) محتاجة الا لكي تترك العرب يستنفدون جهودهم ضــد بريطانيا ، باعتبارها سلطة الانتداب فى فلسطين . لقد اتجه التمرد العربى فى فلسطين فى البداية ضد سلطات الانتداب البريطانية ، وكانت القيادة اليهودية تعلم أنها لو اتبعت السياسة نفسها ــ التى طبقها العرب ضد الانتداب ــ فسوف تحل كارثة باليهود ، لأنه بمجرد قهر الانتداب فسوف يقف اليهود وحدهم ضد العرب . وهــكذا سعى اليهود وقتها الى الاستفادة من هذا النزاع لمصلحتهم ، بأن تركوا العرب يحاربون البريطانيين ، بينما يقومون هم بالتعاون مع البريطانيين ضد العرب .

وفى الوقت نفسه .. قام « بن جوريون » والــوكالة اليهودية بدعوة اليهود للتطوع فى الجيش البريطانى فى صفوف الحلفاء ضد

المحور . وهكذا تطوع ثلاثون الف يهودى مع الحلفاء ليكتسبوا الخبرة منهم ، ويحصلوا على السلاح الذى استخدم فيما بعد ضد العرب والبريطانيين على السواء .

وفى مايو ١٩٤١ بدأت « الهاجاناه » فى بناء قوة فدائية هي « البالماخ » لتكون أول وحدة عسكرية تضم نخبة عسكرية محترفة متفرغة متخصصة فى العمليات الخاصة التى يقوم بها الفدائيون ، والتى تعتمد على الحرب الخاطفة،والحركة السريعة ، واحراز أكبر النتائج بواسطة أقل عدد ممكن .. ونستطيع أن ندرك اهمية « البالماخ » بالنسبة لمستقبل الجيش الاسرائيلى بعد ذلك حينما نعلم انه فى سنة ١٩٤٨ كان الجيش الاسرائيلى يضم ١٢ ضابطا برتبة لواء .. من بينهم ثلاثة جاءوا من « البالماخ » وحوالى ٤٥ عقيدا فى تلك الفترة ، كان ٢٠ منهم من ضباط « البالماخ » وكان أكثر من أربعين فى المائة من الضباط فى رتب مقدم ورائد مدربين فى «البالماخ» ومنذ سنة ١٩٤٨ أصبح ثلاثة من قواد « البالماخ » رؤساء لاركان حرب الجيش وهم : موشى دايان ، واسحق رابين ، وحاييم بارليف . وفى حرب ١٩٦٧ كانت أركان حرب الجيش تضم ١٨ ضابطا ، من بينهم ١١ من ضباط « البالماخ » السابقين .

ومع هذه الأهمية التى كانت تعطى « للبالماخ » .. الا أن « بن جوريون » باعتباره أول وزير دفاع اسرائيلى ، قرر فى سنة ١٩٤٩ حلها وادماجها فى الجيش كجزء من تحويل المنظمات المسلحة المختلفة الى جيش رسمى ، بعد اعلان قيام دولة اسرائيل .

وهنا .. نشأ أول خلاف فى الكنيست (البرلمان الاسرائيلى) بين بن جوريون ومعارضيه . كان الخلاف هو : هل ننشىء جيشا شعبيا يعتمد على فرق الصاعقة والفدائيين وحرب العصابات التى تقوم بها « البالماخ » أم ننشىء جيشا محترفا ؟ هل ننشىء جيشا سياسيا .. أم جيشا متخصصا ؟

وكانت الصيغة التى تم التوصل اليها هى : أن يكون الجيش صغيرا ومحترفا ، ولكن مع وجود نظام ضخم للاحتياطى .. ونظام

فعال للتعبئة السريعة جدا ، ونظام دقيق لضمان ارتفاع مستوى الاحتياطى عند التعبئة العاجلة . وتم كذلك وضع الأساس لأن يقوم الجيش بمتابعة أحدث الاختراعات العلمية والتكنولوجية ، وأن يغرس روح « الهاجاناه » . . و « البالماخ » فى المجندين الجدد ، وان يساعد الجيش فى اندماج المهاجرين الجدد ، ويهتم بالزراعة ويسهم فى مجهودات المستعمرات الزراعية .

* * *

لقد كان « بن جوريون » يؤمن بأن المهمة الرئيسية للجيش هى القتال . . والهدف الوحيد له هو الانتصار وقت الحرب ، وكان يرى أن على العسكريين أن يقصروا انفســـهم على تلك الوظائف الأساسية . لقد كانت هذه هى النظرية التى أرسى « بن جوريون » أساسها باعتباره أول مدنى فى وزارة الدفاع ، وهى نظرية أدى العمل بها الى تحديد واضح للعلاقات المدنية العسكرية ، والى تفادى تضييع مجهودات الجيش فى مهام ادارية أو اقتصادية مباشرة . . مما يحدث عادة فى الدول النامية .

ومع ذلك . . فان الجيش كان عليه أن يتدخل أحيانـــا ، ليس للعمل كبديل عن المؤسسات الاقتصادية والثقافية ، ولكن لمجـــرد سد الثغرات فقط ، وفى الاحوال التى تتعلق مباشرة بكفاءة الجيش نفســـه .

ففى ميدان التعليم مثلا . . كان مستوى التعليم ـــ ولا ســـيما بالنسبة للضباط ـــ يمثل قلقا عظيما للجيش . . ولكى يتم سد هذه الثغرة . .أقام الجيش مدارس خاصة ودراسات لتعليم المجنـــدين الجدد بهدف القضاء على الامية فى الجيش . وهنا يبرز دور النساء فى الجيش لاول مرة . ومن ناحية أخرى أسقط اقتراح بادخـــال تخصص عسكرى فى المدارس الثانوية ، وبدلا من ذلك أقام الجيش اكاديمية خاصة لهذا الغرض .

وفى الوقت نفسه . . قام الجيش بانشـــاء وحدة خاصـــة هى (ناحال) ـــ أى : شباب طلائع الرواد الاسرائيلى . ومهمة هذه

الوحدة . .هى اعطاء فترة قصيرة من التدريب العسكرى للشباب لكى يتم تعيينهم بعد ذلك كمجموعات فى المستعمرات الزراعية ، التى تقع عادة فى الأماكن الحساسة على الحدود السورية أو المصرية .

وقد استلزم الدور الجديد ايضا .. أن يقوم الجيش بتـأسيس صناعة كبيرة وبحث علمى معقد أدى الى انتاج المعدات الحـربية والالكترونية التى يعتمد عليها أمن الجيش وبالتالى أمن الدولة .. ان هذه الطريقة تطورت الى صناعة الكترونات راقية ومعقـدة ، وقد دعم ذلك مقـدرة وزارة الدفاع على تنميـة شركات الطيران والالكترونات بحيث أصبح عدد العاملين فى تلك الصناعة الحـربية أكثر من عشرين ألفا . ومنذ حرب ١٩٦٧ وسعت وزارة الدفـاع صناعاتها الخاصة بالالكترونات والطيران والصواريخ الموجهة . كما قامت بخلق طبقة من الفنيين اللازمين لتلك الصناعات . .وفى الوقت نفسه ، فانه على مستوى الضابط العادى .. يقوم الجيش بتشجيعه على دراسة المهارات الادارية والاقتصادية المختلفة ، لكى يستطيع الضابط العثور على وظيفة ملائمة عندما يخرج من الجيش ، حيث يؤدى نظام الترقيات السرية ، والتقاعد فى سن مبكرة .. الى خروج الضابط الى الحيـاة المدنية مبكرا . ويركز اغلبية الضـباط على دراسة الاقتصاد أو ادارة الأعمال أو عمليـات البحث سـواء بدراستها فى اسرائيل أو فى الخارج (بريطانيا أو فرنسا أو أمريكا).

وبالنسبة للعـلاقة بين الجيش ووزارة الدفاع ، فقد استقرت عند مفاهيم معينة منذ سنة ١٩٤٨ . فبعد تشكيل « زاحال » أصبح لوزارة الدفاع الدور الثانى بعد الجيش ، واقتصرت مهمتها على الشراء ، وظل ضـباط الجيش ، ينظرون الى الوزارة باعتبارها مجموعة من الكتبة والتجار . وفى الوقت الذى كان الجيش يتلقى أحسن الاهتمام ، كانت وزارة الدفاع تعانى من عـدم الاهتمام .. وتتكون من السياسيين وطبقة الفنيين البارزين امثال ليفى أشكول (أول مدير عام لها) وبنحاس سابير (ثانى مدير عام لها ووزير المـالية الحالى) واسرائيل جاليلى (أول نائب لوزير الدفاع ووزير الاعلام الحالى) . وقد هجر كل هؤلاء الوزرارة بعد سنوات قليلة فقط .. وهكذا اكتملت سيطرة بن جوريون باعتباره وزيرا للدفاع .

لقد عمل ، بن جوريون ، على رفع دور الجيش فوق الوزارة ، فكان يترك اصدار التعليمات الخاصة بالجيش والوزارة للقادة وبعد أن حرم على الأحزاب السياسية أن تعمل داخل الجيش ، وبعد أن أزال اليساريين من كل المراكز التى شغلوها فى الجيش ، وضع نظاما للترقيات يقوم على أساس الكفاءة لكى يتمشى هذا مع تنمية روح الاحتراف داخل الجيش ، وأصبح برنامج تدريب ضباط الجيش يتضمن كثيرا من مبادىء تدريب البالماخ (الصاعقة) على القيادة . وأصبح بن جوريون — باعتباره وزيرا للدفاع وممثلا للسلطة المدنية — هو الذى يوافق على جميع التعيينات والترقيات ابتداء من رئس أركان الحرب حتى رتبة ليفتانت كولونيل (مقدم) وكان الترشيح لمنصب رئيس أركان الحرب يتم بناء على توصية رئيس الأركان السابق ، وكذلك اللجنة الداخلية الخاصة وكبار المستشارين . أما تعيينات وترقيات كبار الضباط الآخرين فيرشحها رئيس الأركان ، ولكنه يعتبر سلطة نهائية أقل من رتبة ليفتنانت كولونيل .

واذا كان « بن جوريون » قد استطاع أن يحسم الصراع على السلطة بين المدنيين والعسكريين داخل وزارة الدفاع ، فان هذه الأزمة تفجرت عندما استقال بن جوريون فى نوفمبر ١٩٥٣ . لقد قام بن جوريون قبل استقالته باختيار « لافون » لمنصب وزير الدفاع .. ولكن فى خلال شهور قليلة تجمع العسكريون ضده وفجروا أزمة عرفت فيما بعد باسم « **فضيحة لافون** » . **ان هذه *الفضيحة — التى ظلت على درجة عالية من السرية حتى سنة* ١٩٦٠ — ومازالت غامضة حتى الآن — تتعلق اساسا بسلسلة من** عمليات التجسس والتخريب ، كان الجيش والمخابرات قد أعداها للقيام بها فى القاهرة سنة ١٩٥٤ .

كان السبب الرئيسى فى العمليات .. هو أن اسرائيل احست فى سنة ١٩٥٤ ببوادر تحسن فى العلاقات بين مصر وأمريكا،وببداية تحول السياسة الامريكية نحو القاهرة . وفى الوقت نفسه فان السياسة الاسرائيلية كانت فى سباق مع الزمن لكى تكسب أمريكا كحليف لها فى صراعها ضد العرب ، وخصوصا ضد مصر ، لهذا

قامت المخابرات الاسرائيلية بتصميم عدة عمليات نسف وتجسس تتم فى القاهرة ضد السفارة الامريكية والمنشآت الامريكية فى مصر بهدف القضاء مقدما على أى احتمال لتحسن العلاقات المصرية الامريكية . ولكن مصر كشفت شبكة التجسس والتخريب الاسرائيلية فى اللحظة الاخيرة وأعدمت زعماءها ، وفشلت العملية فشلا ذريعا .

وأدى الفشل المدوى .. الى تحقيق سريع داخل الجيش وداخل جهاز المخابرات ، تبين بعده أن العمليات نفذت بدون علم لافون وزير الدفاع . وهنا أثار «لافون» أزمة لأنه اعتبر هذاالعمل تحديا لسلطته المدنية ، ولكن المخابرات استطاعت أن تقدم وثائق مزورة ضده ، دعمها الجيش ، لكى يتم فى النهاية التخلص منه .. وهذا ما حدث فعلا ، عندما اضطر لافون الى الاستقالة .. فانتهت بذلك فترة من المنافسة بين وزير الدفاع والقيادة العليا للجيش ، وهى فترة استمرت ١٥ شهرا ، انتهت بعودة بن جوريون من جديد الى وزارة الدفاع واستئنافه العمل مع تلميذه — موشى دايان — على تأكيد نظرياتهما من جديد بالنسبة للعلاقة بين الجيش والمدنيين .. الأول كوزير للدفاع .. والثانى كرئيس لهيئة أركان الحرب .

وبعد سنوات طويلة من الصراع .. اصبحت العلاقة المدنية والعسكرية الآن كما يلى : ان جماعة كبار الضباط فى جيش اسرائيل ليست لها اى مطامح سياسية كجماعة ، وهى تحتفظ بولائها لرئاستها المدنية . ولكن .. من ناحية أخرى .. تتمتع هذه النخبة بنفوذ ضخم فى شئون الدفاع والشئون الخارجية ، خصوصا تلك التى تتعلق بأمن الجيش أو بضمان قدرته على النجاح فى مهمته العسكرية ، وهذا النفوذ يعتمد على أن الجيش مسئول عن الانتصار فى العمليات العسكرية .. بينما السياسة مسئولة عن توفير الموارد وخلق الظروف التى تسمح للجيش بالتصرف بحرية . لهذا فاننا نجد أنه بينما عارض « بن جوريون » مثلا فى قيام اسرائيل بالحرب سنة ١٩٦٧ لخشيته من التدخل السوفييتى لصالح مصر .. فان رئيس الوزراء ووزير الدفاع وقتها — ليفى أشكول — اضطر أن يوافق على الحرب بناء على تقرير من مخابرات الجيش .. قررت

فيه أن الاتحاد السوفييتي لا يمكن أنيساعد المصريين بشكل مباشر . ومع وجود عوامل كثيرة خلف القرار .. الا أن العامل الأول هو صدق تنبؤات تلك المخابرات فى الماضى .. ودقة المعلومات التى كانت تقدمها دائما عن موقف أعدائنا العرب .

كما أنه يجب الاشارة أيضا الى : انه فى ظل وزير مدنى ـ هو اشكول ـ حصل الجيش على أحسن وأغلى الاسلحة فى تاريخه كله ، بينما نجد أن وزارة المالية عارضت مرتين ، ضد بن جوريون وموشى دايان ، زيادة ميزانيـــة الجيش . ووجود دايان الآن فى منصب وزير الدفاع لا يعنى أنه ممثل للعسكريين .. لان الذى أعاد « دايان » الى السلطة قبيل حرب ١٩٦٧ كان هو الناخب الاسرائيلى، وليس جنرالات الجيش الاسرائيلى !

ان النظرية الاساسية هنا هى : أن الجيش لا يتحرك كمجموعة سياسية ، ولكن كمجموعة متخصصة محترفة ، لذلك فان الجيش الاسرائيلى لم تكن له مطامع بالنسـبة للصراعات السـياسية فى اسرائيل . ان ما يحدث فى العادة ، هو أن الجيش يتحرك فى الدول النامية للاستيلاء على السلطة ، عندما يفقد ثقته فى « السـياسيين الفاسدين » . لهذا فاننا نجد أنه بينما يحتفظ الجيش بولاء ضخم لبن جوريون مثلا ، فان بن جوريون فقد نفوذه غير العـادى على الجيش عندما كون فى سنة ١٩٦٥ حزب «رافى» وانشق على الحزب المدنى الرئيسى فى الحكومة .

ولهـذا يثـور الآن سـؤال .. هـو : هل اسرائيـل دولـة « امبراطوريـة » . وبالتـالى : هـل الجيش فيهـا هـو جيش « امبراطورى » ؟

ان الدولة الامبراطورية تتميز أولا بما يلى :

● أولا : ثقافة سياسية وحضـارية غير فعـالة ويساندهـا الجيش . وهذا لم يحدث رغم انتصـار الجيش فى ثلاث حـروب متواليـة .

● ثانيا : وجود مستوى منخفض للمؤسسات السياسية . وفى اسرائيل استقرت المؤسسات السياسية المدنية بشكل حاسم .

● ثالثا : ضعف الاحزاب السياسية أو عدم فعاليتها . وهذا لم يحدث .

● رابعا : عدم وجود هدف مشترك وتضامن ايديولوجى . وفى اسرائيل لم يؤد التوسع فى الجيش الى تهديد التفوق المدنى .

● خامسا : النقص فى روح الاحتراف داخل الجيش لتغلب الاعتبارات السياسية . وفى اسرائيل لم يحدث هذا ولم تتحالف فئة الضباط مع أية فئة سياسية ..

وهكذا فان القدرة الاستيعابية للاقتصاد ، والاستغناء عن الضباط بسرعة ، ونجاح ادماج المحاربين القدامى ، واعتمادالجيش على نظام الاحتياطى ، وتماثل الأهداف العسكرية والقومية ، وتأصل روح الاحتراف فى « زاحال » .. كل ذلك يمنع الجيش من التدخل الفعال فى السياسة . وبالاضافة الى ذلك ، فان الاحساس بشرعية الهياكل السياسية المدنية .. يقدم ضمانا فعالا لسيطرة المدنيين ، مع عدم استبعاد وجود الجيش كقوة ضاغطة .

الميراج ضد الميج

تأليف: بن يوراما يوري دان

هذا الكتاب
وهذان المؤلفان

فى حرب ١٩٥٦ لم تبدأ اسرائيل فى الهجوم ضد مصر ، الا بعد ان ضمنت غطاء جويا لها من بريطانيا ، وفى حرب ١٩٦٧ لم تحارب الا بعد ان تأكدت من وجود تعليمات لدى الطيران المصرى بعدم الحرب . ومع ذلك .. فالنتيجة هى النتيجة . لقد احتسب التاريخ على الطيران المصرى هزيمتين حتى قبل أول طلقة . وكان السبب هو نفسه فى كل مرة : ان الطيران المصرى وضع فى موقف صعب من البداية . موقف الشخص الذى احاطت السلاسل بيديه وقدميه .. لكى يتمكن شخص ثان من ضربه على راحته .

ومن الهواء .. خلقت اسرائيل اسطورة روجتها فى كل أنحاء العالم . أسطورة تحاول دائما ان تقنعنا مثلا أن الطيار الاسرائيلى اكبر كفاية من الطيار المصرى ، وان التدريب الزائد فى جانب الطيار الاسرائيلى كان يقابله تدريب ناقص فى جانب الطيار المصرى . ان هذا المنطق ضرورى بالنسبة لاسرائيل .. لكى نقتنع نحن بالتالى بأن هزيمة ١٩٦٧ كانت أمرا لا مفر منه ، وقدرا لا يمكن تفاديه . ولكن الحقيقة التى ستظل اسرائيل تخفيها ، وهذا الكتاب الاسرائيلى يخفيها ، هى : ان الطيران المصرى هزم فى الحرب .. قبل ان تبدأ الحرب !

وهذا الكتاب الاسرائيلى .. هو واحد من الكتب القليلة التى ركزت على الحرب الجوية بين مصر واسرائيل ، مع الاستشهاد بأمثلة من حروب ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ و ١٩٦٧ وهو من الكتب التى انتشرت تماما فى العالم ، انه حتى الآن ممنوع من التداول فى مصر والدول العربية .. والكتاب اشترك فى تأليفه صحفيان اسرائيليان.

الاول (بن بورا) ، عمل مراسلا لصحيفة « يديعوت احرونوت » الاسرائيلية فى باريس . وهو يعيش فى اسرائيل منذ عام ١٩٤٥، وكان طالبا بالجامعة العبرية بالقدس ثم فى السوربون بباريس .

أما الثانى « يورى دان » .. فهو أيضا اسرائيلى عمل مراسلا حربيا لمدة سبع سنوات لصحيفة « معاريف » التى تصدر فى تل أبيب . وقد كان احد جنود المظلات الذين أسقطتهم اسرائيل خلف الخطوط المصرية فى حرب ١٩٥٦ . ومنذ سنة ١٩٦٣ وهو يعمل مراسلا لصحيفة بباريس .

* * *

فى الشهور التالية لانتصارنا فى ١٩٦٧ — بدأ الملحقون العسكريون الاجانب فى تل أبيب يبحثون عن اجابة بالنسبة لسؤالين أساسيين : السؤال الأول هو : لماذا قررت القيادة العسكرية الاسرائيلية أن تبدأ هجوم الطيران الاسرائيلى على مصر الساعة التاسعة الا الربع صباحا بتوقيت القاهرة ، (الثامنة الا الربع بتوقيت اسرائيل) ؟ لماذا لم يبدأ الهجوم قبل ذلك بساعة أو بعد ذلك بساعتين مثلا ؟

والسؤال الثانى ، الذى اهتم به اخصائيو الطيران هو : كيف استطاعت الطائرات الاسرائيلية أن تحقق عنصر المفاجأة بالنسبة للطيران المصرى ، وكيف استطاعت كل طائرة ان تقوم بعدد كبير من « الطلعات » فى يوم واحد ؟

أما بالنسبة للسؤال الأول — وهو تحديد ساعة الصفر بالنسبة لبدء الهجوم الجوى الاسرائيلى على المطارات المصرية يوم خمسة يونيو — فقد تم تحديده بناء على الأسباب الثلاثة التالية:

أولا : أن مصر كانت تتوقع هجوما مفاجئا عند أول ضوء فى النهار وأن دوريات الحراسة التى يقوم بها فى كل صباح تشكيلان من الطائرات الميج ٢١ — منذ أعلنت مصر التعبئة العامة — كانت تشير بوضوح الى الساعة التى كان المصريون يعتبرونها ساعة

القدر . وكان العنصر المفاجىء لهم من الناحية المنطقية .. هو اختيار ساعة متأخرة قليلا عن الساعة التى كانوا يتوقعونها .

وقد ارتكب المصريون هذه الغلطة نفسها سنة ١٩٤٨ ، عندما كانوا يرون أن الحرب يجب أن تبدأ مع أول ضوء من النهار .. وليس قبل ذلك أو بعد ذلك .

● ثانيا : كانت تقارير الارصاد الجوية الاسرائيلية .. تشير الى أن بعض الضباب ، الذى كان يغطى مدخل الدلتا ، قدلاينقشع الا حوالى الساعة الثامنة ، وكانت الرؤية اذن فى هذه الساعة ستكون افضل مما هى قبل ذلك .

● ثالثا : ان العادة جرت فى معظم القواعد الجوية المصرية على تقديم وجبة افطار ثانية فى الساعة التاسعة وثمانى دقائق بتوقيت مصر . وفى تلك اللحظة .. يتراخى الطيارون المصريون فى يقظتهم ، ثم يتجمعون معا فى « ميس » ويفطرون فيه .

اما بالنسبة للسؤال الثانى ـــ المتعلق بكيفية نجاح الطيران الاسرائيلى فى أداء مهمته ـــ فان هناك عناصر عديدة ، ومن بينها عناصر وفرتها القيادة السياسية ، وعناصر أخرى وفرتها القيادة العسكرية ، وعناصر وفرتها أجهزة المخابرات الاسرائيلية بالنسبة لدقة البيانات التى قدمتها عن الاستعدادات العسكرية المصرية .. مقابل الجهل المطلق الذى اظهرته المخابرات المصرية بالنسبة لمعلوماتها عن الاستعدادات الاسرائيلية .

ولو تركنا العناصر السياسية جانبا ، فاننا سنجد أن هناك مجموعة أسباب عسكرية ، كانت هى التى ساهمت بشكل مباشر فى انتصار الطيران الاسرائيلى فى معركته ضدالطيران المصرى خلال تلك الساعات المبكرة من خمسة يونيو سنة ١٩٦٧ . هذه الاسباب هى :

● أولا : أن برامج تدريب الطيارين الاسرائيلين التى كان يجرى تنفيذها قبل ذلك بسنوات . كانت تصر على استخدام جميع

الوسائل الفنية والتكنولوجية الحديثة فى ميدان العلوم الخاصة بالطيران والعلوم المرتبطة بها . وكان التدريب الفردى على المعارك الجوية . هو الأمر الذى كان يصدره قادة السلاح الجوى الاسرائيلى منذ نشأة هذا السلاح .

● ثانيا : ان السلاح الرئيسى ، الذى اعتمد عليه الطيران الاسرائيلى فى حرب يونيو ، كان طائرات (الميراج) الفرنسية الصنع . وفى الواقع أن الاغلبية الكبرى للطائرات الاسرائيلية فى تلك الحرب كانت فرنسية الصنع ولم تكن جنسية الطائرات هى العامل المهم .. ولكن التعديلات التى ادخلتها اسرائيل على تلك الطائرات لعبت هى الأخرى دورا هاما .

● ثالثا : ان المصريين لم يستخدموا طائرات الميج ٢١ التى كانت فى أيديهم استخداما كاملا .. لأن طريقة عمل وتنظيم سلاح الطيران المصرى — قبل الخامس من يونيو — كانت توحى بأن هناك تأكيدات قاطعة لدى هذا السلاح بأنه لن يقاتل ، ولن يبدأاىقتال .. وأن كل المطلوب هو اعطاء مظهر القتال . .وليس القتال .

● رابعا : الصيانة . ان الاهتمام الشديد بتنظيم وفعالية أجهزة الصيانة فى القواعد الجوية الاسرائيلية . كان شيئا أساسيا يركز عليه كل واحد من قواد سلاح الطيران قبل ذلك بسنوات طويلة . ان هذا الاهتمام أدى الىنجاحنا — كأسرائيليين — فى اختصار المدة التى تفصل بين طلعتين للطائرة الميراج ، الى سبع دقائق فقط .. بينما المدة التى حددها مصممو تلك الطائرة أصلا هى عشرون دقيقة . لهذا .. لم يكن من الصدفة أن الطائرات الميراج استطاعت خلال الحرب أن تقوم بأثنتى عشرة طلعة يوميا، ولم يتطلب تغيير محرك الطائرة سوى فترة زمنية تتراوح بين ساعة ونصف وساعتين ، وذلك بدلا من الفترة التى كانت مقررة من قبل . وهى ١٢ ساعة .

● خامسا : عنصر المفاجأة . ان نجاح سلاح الطيران الاسرائيلى فى مفاجأة طائرات العدو المصرى على الارض .. لعب دورا حاسما فى احراز النصر . لقد ساهم فى ذلك..دقة المعلومات

التى حصلت عليها المخابرات الاسرائيلية بالنسبة لتنظيم ومواقع وتجهيزات القواعد الجوية المصرية ، وكذلك بالنسبة للأخطاء القاتلة التى ارتكبها جهاز الرادار لدى العدو المصرى ، وبمعنى أدق .. كان أحد الأخطاء القاتلة التى ارتكبها المصريون .. هى وجود مناطق (محايدة) داخل الحدود المصرية لا توجد فيها أجهزة رادار مصرية .

● سادسا : تسليح الطائرة الميراج . ان سرعة الطائرةالميراج هى ضعف سرعة الصوت . ان هـذه السرعة لاتسمح لأى طيار فى العالم ان يحرك مدفعا ويستخدمه ضد طائرة للعدو ، تسير هى الأخرى بسرعة تفوق سرعة الصوت . ولذلك .. أصر الفرنسيون على أن السلاح الوحيد الذى لا يمكن أن يخطىء هدفه .. هـو الصواريخ الموجهة بالاشعة الضوئية تحت الحمراء . وأصبحعلى اسرائيل أن تجهز طائراتها الميراج بهذا السلاح . ولكن تسليح الميراج بالصواريخ الموجهة .. كان بذخا لا تتحمله اسرائيل ، نظرا لان ثمن الصاروخ الواحد يصل الى خمسين الف دولار . وكان البديل هو تجهيز كل طائرة ميراج بمدفعين من طـراز ثلاثـين ملليمترا ، وعدم استخدام الصواريخ الموجهة ، الا فى حـالات الضرورة القصوى .. ومع تخفيض سرعة الطائرة الى الدرجـة التى تسمح باستخدام المدافع . وقد أدى التدريب المستمرالسابق، الى تكيف الطيـارين الاسرائيليين مع التعديلات الجـديدة ، والى حصولهم على خبرة .. نقلها الامريكيون بعد ذلك الى طـائراتهم الفانتوم فى مواجهتها لطائرات الميج ٢١ فى فيتنام .

● سابعا : أما السبب السابع والأخير .. فى نجاح الطيران الاسرائيلى فى مهمته يوم خمسة يونيو ، فهو سر ظلت اسرائيـل تحتفظ به مدة طويلة ، مع انه كان أحد الاسـباب الرئيسـية فى الانتصار الجوى الاسرائيلى فى حرب ١٩٦٧ . وهذا السرالعسكرى له قصة بدأت قبل أن تبدأ الحرب بسنة كاملة ، وهى قصة لعبت فيها المخابرات الاسرائيلية الدور الرئيسى .

ففى شهر اغسطس سنة ١٩٦٦ ، اى قبل بداية حرب يونيـو بعشرة اشهر كاملة ، نقلت وكالات الانباء العالمية خبرا غريبا ..

يفيد بأن هناك طائرة ميج ٢١ يقودها طيار عراقى ، قد هبطت ذات صباح على أرض قاعدة جويةاسرائيلية فى مكان ماجنوبىاسرائيل. وكان هذا الطيار العراقى الهارب قد غادر قاعدة قريبة من بغداد، ثم طار فوق المجال الجوى الاردنى دون تدخل ، ونزل بطائرته فى اسرائيل سالما .. وهى عملية ظلت المخابرات الاسرائيلية تسعى اليها قبل ذلك بوقت طويل . ان الطائرة السوفيتية (ميج ٢١) تعتبر من افضل الطائرات المطاردة . وحتى ذلك الوقت .. لم يكن يعرف عنها سوى بعض الاوصاف السطحية التى سبق أن نشرتها المجلات المتخصصة فى شئون الطيران . لهذا .. فانها كانت صيدا ثمينا تسعى اليه أجهزة مخابرات الدول الغربية ، بالاضافة الى اسرائيل التى كانت تسعى فى ذلك الوقت الى معرفة الخصم الذى ستواجهه طائرات الميراج فى القتال .

لقد هبطت الطائرة الميج ٢١ فى اسرائيل ، وهى فى حالة سليمة تماما ، ويقدر بعض المراقبين المبلغ الذى دفعته اسرائيل للطيار العراقى بثلاثمائة الف دولار . وبمجرد أن حدث ذلك .. طلبت أربع دول غربية من اسرائيل — ومنها أمريكا وفرنسا — أن تسمح لخبراء الطيران بتلك الدول باختبار هذه الطائرة الميج . وكان الامريكيون خصوصا يطلبون ذلك .. لان الميج ٢١ هى خصمهم فى فيتنام . ولكن اسرائيل لم تكن تريد اغضاب موسكو .. وبالاضافة الى ذلك . فان اسرائيل كانت تريد الاستفادة بهذه الطائرة لحسابها هى أولا . ان العمل العاجل الذى قامت به اسرائيل ، هو تدريب الطيارين على الطائرة الميج ٢١ ، بعد أن أعطتها المخابرات اسم (ميج ٧) .. وقد كتب أحد الطيارين الاسرائيليين تقريرا عنها يقول فيه :

(لقد طرنا على متن هذه الطائرة الميج ٧ قبل وقوع حرب يونيو ١٩٦٧ لمدة تزيد على مائة ساعة طيران . انها طائرة قتال ممتازة فى الارتفاعات الشاهقة .. ولكن من أهم الاكتشافاتالفنية التى قمنا بها .. هو أن طريقة الاشعال فى الطائرة الميج تقوم على أساس الاشعال بالبنزين) .

ان هذا التقرير .. يدعو الى القول بأن طيارى الميراج الاسرائيليين قد قضوا الساعات الطويلة فى التدريب على توجيه

مدافعهم الموجهة الى مخزن وقود البنزين المزودة به الطائرةالميج، وهذا يفسر لنا النسبة المرتفعة لطائرات الميج المصرية التى انفجرت وهىتطير فى الجو فوق جزيرة سيناء قبل أن يستطيع قائدهـــا استخدام تشغيل المقعد المتحرك القاذف .

* * *

والواقع . أن اهمية سلاح الطيران بالنسبة للتنظيم العسكرى الاسرائيلى ، قد بدأت مع بداية الدولة نفسها فى سنة ١٩٤٨ . فمن مايو ١٩٤٨ حتى يناير ١٩٤٩ كان الطيران الاسرائيلى الناشىء هو الذى استطاع أن يوقف زحف المصريين فى حرب ١٩٤٨ بعــد ان وصلوا الى مسافة ٣٥ كيلو مترا من تل أبيب . من يومها .. واسرائيل تعطى الاهمية القصوى لتطوير وتنمية سلاح الطيران بها . وهذه الاهمية لم يستطع التعبير عنها فى الواقع الا الجنرال (تولكوفسكى) الذى عين فى ١٩٥٣ قائدا للسلاح الجوى . ان قدوم تولكوفسكى الى السلاح الجوى أحدث انقلابــا فى الآراء التقليدية . التى كانت سائدة بالنسبة للعقيدة وللاستراتيجية . وكان عليه ، ليس فقط أن يكافح ويناضل ضد عدم فهم السلطات المدنية له .. بل أيضا ضد عدم اهتمام هذه السلطات ، وعــدم اهتمام رئيس هيئة أركان حرب السلاح الجوى نفسه ، بكل ما يتعلق بشئون الطيران . ان (تولكوفسكى) — من خـــلال عمله السابق فى السلاح الجوى الملكى البريطانى . ومن اشـــتراكه فى معارك البريطانيين ضد الالمان فى الحرب الثانيةـــتعلم عدة مبادىء بسيطة تلخص فى النقط التالية :

● أولا : يجب تجهيز السلاح الجوى بطائرات حديثة دائما، نظرا لان الحرب الحديثة لايمكن أن تخوضها الجيوش دونمساعدة فعالة من جانب أسراب الطائرات — المطاردة والمقاتلة — التى تحمى الأرض من أى هجوم معاد ، وكذلك أسراب طائرات قاذفات القنابل المطاردة التى تقوم بنقل الحرب الى داخل أرض العدو .

● ان صغر مساحة اسرائيل جغرافيــا .. واحاطة الجيران العرب بها .. يفرض عليها أن تضمن لســـلاح طيرانها ميزتين أساسيتين : السرعة والفعالية .

● ان عنصر السرعة .. يتوقف على وجود الطائرات الحديثة جدا ، وعلى درجة تدريب الطواقم البشرية . أما عنصر الفعالية فيتوقف على الانسجام داخل سلاح الطيران ، وعلى تعدد استخدام الأجهزة .

ان المبادىء السابقة .. كان معناها البسيط فى التطبيق هو المبدأ التالى : (يجب اعطاء الاولوية القصوى لسلاح الطيران .. وذلك داخل اطار التطوير الحديث للجيش الاسرائيلى كله .. ويجب امداد هذا السلاح بأحدث المعدات لكى يكون سريعا فيحول دون أى هجوم مفاجىء .. أو يفاجىء العدو فى الوقت المناسب. لذا يجب أن تكون طائرات السلاح الجوى من (أسرة) واحدة .. وبحيث يمكن استخدام كل طائرة فى مهام عديدة) .

وكان هذا المبدأ .. يفرض على (تولكوفسكى) ان يدخل فى مناقشات عديدة مع الحكومة لاقناعها بشراء أحدث الطائرات . وخلال المناقشات .. كان يطيب له أن يكرر الشعار الذى تعلمه من عمله فى السلاح الجوى الملكى البريطانى ، وهو الشعار الذى يقول : (لا يوجد سيجار يمكنه أن يتمتع بميزتين : الجودة .. ورخص السعر) لهذا فان على اسرائيل اذا أرادت طائرات ممتازة .. أن تدفع غاليا . وهذا ما حدث فعلا عندما بدأت اسرائيل تحصل من فرنسا على طائرات (الميستير) قبل ١٩٥٦ . لقد وقعت الحرب بعد أن تعهدت بريطانيا لاسرائيل بتقديم غطاء جوى لها .. وفى مقابل ذلك حظرت على اسرائيل أن تجتاز طائراتها خط قناة السويس .

ومع ذلك .. فان حرب ١٩٥٦ كانت فرصة لكى يقوم (تولكوفسكى) بتطبيق نظرياته . لقد قرر مثلا .. أن تتم جميع رحلات الاستكشاف أو المساندة أو المطاردة أو القذف بالقنابل على أساس استخدام طائرتين فقط فى كل تشكيل ، بحيث ، تقوم احدى الطائرتين بحراسة الثانية عند بدء الاشتباك فى القتال ، أو تغطى انسحابها عند الضرورة . ان صيغة هذا (الزوج) الطائر تم تعميمها عند استخدام تشكيلات تضم أربع أو ست أو ثمانى أو ١٢ طائرة . كما تفعل الدول الاخرى .

وفى سـنة ١٩٥٨ . عين الجنرال (ايزير وايزمان) قائـدا للسلاح الجوى .. خلفا لتولكوفسكى . واذا كان الآخر قد أدخل مبدأ تكتيكيا جديدا ، فان وايزمان قد أكد تطبيق هذا المبدأ ، وهو الآخر قد خدم من قبل فى صفوف السلاح الجوى الملكى البريطانى خلال الحرب العالمية الثانية . لهذا .. فان وايزمان هو صاحب شعار « ان السلاح الجوى الاسرائيلى يجب أن يضم أفضل الشبان الاسرائيليين » ، وكذلك شعار آخر : « ان اسرائيل يجب حراستها من على ارتفاع أربعين الف قدم » .

وفى الأسابيع القليلة السابقة على حرب ١٩٦٧ ، كان وايزمان يصف الوزراء الاسرائيليين بانهم مستضعفون عندما لم يردوا على اغلاق ناصر لخليج العقبة فورا . لقد وقف « وايزمان » ونزع من على كتفه الشريط الذى يرمز الى رتبته العسكرية كلواء جوى ، والقاه على منضدة رئيس الوزراء قائلا له : « انكم — اذا لم تهاجموا فورا .. فانكم تتجهون نحو الفناء » . ان وايزمان كان يرى ان سلاح الطيران له مهمتان رئيسيتان : المهمة الاولى هى القضاء على قوة العدو الجوية . وعندما تتم هذه المهمة بنجاح.. يمكن أن تبدأ المهمة الثانية ، وهى تقديم المعونة الى القوات البرية.

اما بالنسبة للمهمة الاولى ، فان النجاحفيهايتوقف أولا وأساسا على عنصر المفاجأة . فبالنسبة لاسرائيل ومصر مثلا .. من يقوم بالهجوم قبل الآخر .. هو الذى سيضمن جميع فرص التفـوق الجوى ، وبالتالى سيضمن احراز النصر .

أما العامل الثانى بعد المفاجأة ، فهو ما يسميه الفنيون « قدرة الاستيعاب » ، أى قدرة البلد على تحمل الغارات الجوية . ان هذا معناه أن على اسرائيل أن تضمن وجود جهاز دفاعى مضـاد للطائرات شديد الفعالية .. جهاز يبدأ من المخبأ .. وينتهى بأحدث الاسلحة المضادة للطائرات .. بحيث نضمن فى النهاية وجود ستار دفاعى لا تستطيع طائرات العدو المصرى — القادمة من اربـع جهات — أن تخترقه .

والعامل الثالث — فى رأى وايزمان — هو عدد الطلعات التى تستطيع كل طائرة اسرائيلية أن تقوم بها فى وقت معين .. بالنسبة

لعدد الطلعات التى تستطيع طائرات العـــدو العربى أن تقـــوم بها فى الفترة نفسها الزمنية . ان هذا العدد يتـــوقف على نـــوع الطائرات الموجودة لدى اسرائيل،وعلىكميتها وسرعتها ومستوى صيانتها وكفاية طياريها ومواقع قواعدها .

ان هذه العوامل الثلاثة ، التى كان يراها وايزمان حاســـمة لتحقيق النصر .. هى التى ظل يؤكدها ويعلنها منذ سنة ١٩٦٢، اى قبل حرب ١٩٦٧ بخمس سنوات . انه لم يكن يؤمن بالرأى التقليدى الذى يرى أن النصر يتوقف على التفوق العـــددى فى الطائرات ، بل انه كان يعلن دائما : « ان نسبة القوى هى العامل الأخير الذى يتوقف عليه مصير المعركة . ونحن فى حاجة الى طراز من الطـــائرات يستطيع أن يخترق نظام الدفاع المصرى المضـــاد للطائرات ، وأن تقوم هذه الطائرات بغاراتها وتقذف قنابلها رغم الرادار .. وأن تتفادى الصواريخ الموجهة من الأرض للجو ، ومن الجو للجو . وبمعنى آخر ، نحن نحتـــاج فى اسرائيل الى طائرة سريعة تكون قادرة فى الوقت نفسه على نقل القنابل . ان الطائرة التى تحمل عشرة أطنان من القنابل .. تكون مفيدة فقط حينمـــا تســـاند القوات البرية ، ولكنها لا تكون مفيدة فى الهجوم الخاطف السريع على أراضى العدو » .

وعندما جاءت حرب الايام الستة فى ١٩٦٧ لتؤكد صحة آراء (وايزمان) .. كان هو قد رقى الى منصب رئيس عمليات هيئـــة أركان الحرب العامة فى الجيش ، بينما كان قائد الســـلاح الجوى قد أصبح الجنرال « موردخاى هود » .

ان « موردخاى هود » كان يقول للمقربين اليه قبل يونيو ١٩٦٧ :

« لن أندم قط على ذلك الاتفاق الشهير الذى تم عقده فى سبتمبر سنة ١٩٥٦ بين بن جوريون (رئيس وزراء اسرائيل) وسلـــوين لويد (وزير خارجية بريطانيا) فى « سيفر »بشأنالعمليات الجوية. لقد كان ذلك الاتفاق يضمن لنا الغطاء الجوى من جانب ســـلاح الطيران البريطانى ، كما أنه كان فى الوقت نفسه يحرم علينـــا اجتياز قناة السويس بطائراتنا . ومع ذلك كان فى استطاعتنا أنا

وزملائى — ونحن نقود طائرات الأوراجان والتشكيل الأول من طائرات الميستير — أن نقرر مصير سلاح الطيران المصرى ، لولا تلك العقبة التى وضـــعوها أمامنا بتحذيرهم هذا . وكنا نستطيع بسهولة نسبية .. أن نقوم بما لم ينجح السلاح الجوى الملكى البريطانى « المتغطرس » فى القيام به بصورة مرضية ، الا وهو القضاء نهائيا على سلاح الطيران المصرى وهو جاثم على الأرض .. وكانت مصر حينئذ ستحتاج الى سنوات طويلة لكى تقوم من كبوتها بعد مثل تلك الضربة التى كنا نستطيع أن نكيلها لها » .

والواقع أن « موردخاى هود » الذى كان هذا رايه بالبسبة للطيران المصرى سنة ١٩٥٦ . قد اصبح هو المسئول فى ســـنة ١٩٦٧ عن تنفيذه عندما قررت اسرائيل أن تبـــدأ هجومها ضــــد مصــــر .

فبمجرد أن اتخذ القرار بالحرب .. بدأ السلاح الجوى — مثل باقى أسلحة الجيش يستعد لساعة الصفر . ولأن السلاح الجوى كان عليه أن يقوم بالمهمة الاولى فى الحرب ، ولأن المفاجأة كانت اهم عنصر لنجاح تلك المهمة .. فقد تم ترتيب كل شىء يؤدى الى تحقيق النتيجة المطلوبة .

فبالاضافة الى الاستعدادت المتوقعة لبدء الحرب ، وبالاضـــافة الى الطلعات الاستكشافية المستمرة التى قامت بها الطائراتبدون انقطاع ليلا ، ونهارا ، منذ اتخاذ ناصر خطوته الشـــهيرة بسحب قوات الأمم المتحدة .. فان السلاح الجوى الاسرائيلى قام بخدعة قصد منها خداع العدو المصرى ، وتحويل نظره عن النوايا الحقيقية لاسرائيل فى حالة نشوب الحرب .

فبينما كان زوجان من طائرات ميراج الاسرائيلية تجوب بصفة مستمرة حدود غزة ، كما كانت تفعل منذ بداية حالة التوتر ، قام زوج ثالث من الطراز نفسه بالتحليق فوق شرم الشيخ ، وكان هدفا لضرب مركز من جانب البطاريات المصرية المضادة للطائرات التى تمركزت فى الطرف الجنوبى من سيناء . وقـــد استطـــاعت الطائرتان أن تلتقطا صورا فوتوغرافية تثبت ان لواء مصريا قـــد

وصل الى هذا المكان لتعزيز الدفاع عنه ، وعادت الطائرات الميراج تحلق فوق شرم الشيخ أيام ٢ و ٣ و ٤ يونيو ..مما جعل هيئة أركان الحرب المصرية تعتقد أن السلاح الجوى الاسرائيلى يستعد لمهاجمة سيناء من الخلف — من جهة البحر الاحمر .

وكانت هناك خدعة أخرى من شأنها تضليل العدو المصرى ، وهى التى قام بها الجنرال موشى دايان ببراعة فائقة حينما أعلن يوم ٣ يونيو فى مؤتمر صحفى قوله : « لقد مضى الوقت الآن وضاعت فرصة القيام برد عسكرى تلقائى .. كما لم يحن الوقت بعد لاستخلاص النتائج من العمل الدبلوماسى الذى تقوم به الحكومة » .

وفى اليوم نفسه — السبت ٣ يونيو — منح آلاف الجنود الاسرائليين يوما للراحة قضوه فى المدن الكبرى وفى القرى ، كما رقص عدد كبير من الطيارين مساء الجمعة ومساء السبت على أنغام الموسيقى فى تل أبيب . الا أن المواقع الامامية القريبة من غزة والواقعة على حدود سيناء ومحطات الرادار المضادة للطيران ، قد لاحظت عصبية غير عادية من الجانب المصرى . فقد تحرك لواء مصرى مدرع ليلة ٤ و ٥ يونيو فى اتجاه الحدود ، ثم ظهر سرب جديد من طائرات الميج على شاشات الرادار عند بزوغ أول اضواء النهار وهبطت تلك الطائرات فى العريش .

وعلى ذلك . فخطط الخداع الاسرائيلية .. نجحت تماما فى اقناع العدو المصرى بأنه لا يوجد هناك خطر هجوم وشيك الوقوع من جانب اسرائيل ، بالاضافة الى أن تحركات المصريين لم تكن تحركات حرب ، بقدر ما كانت تحركات لاعطاء مظهر الحرب .

وهكذا كان الموقف عندما أعلن الجنرال « موردخاى هود » فى تلك الليلة قائلا لرؤساء هيئة اركان الحرب : « الخطة كولومب جاهزة للتنفيذ » ساعتها أعطى « الجنرال رابين » رئيس هيئة أركان الحرب الاشارة المتفق عليها وهى « اذهبوا » فذهبوا .

وكانت الساعة وقتها هى السابعة و ٤٥ دقيقة (الثامنة و ٤٥ دقيقة بتوقيت القاهرة) .

..وهكذا نشبت الحرب .

الطريق إلى الحرب

تأليف: وولتر لاكير

١٦ — ممنوع من التداول

هذا الكتاب
وهذا المؤلف

الفكرة الرئيسية .. التى يعتمد عليها هذا الكتاب .. هى أن الأحداث التى سبقت حرب ١٩٦٧ أكثر أهمية من أحداث الحرب نفسها . ان العقلية السائدة ، والأفكار المنتشرة على جانبى خط القتال ، هى التى أدت فى النهاية الى الانتصار الضخم فى جانب ، والهزيمة الفادحة فى جانب آخر . بهذا المفهوم ، فان الكتاب يتركز اساسا،على الأحداث خلال الاسابيع الثلاثة السابقة للحرب،ولكنه يحـــلل أيضـــا الظروف التى حالت دون تحقيق التقدم الاجتماعي والاقتصادىفىالعالم العربى،مع تركيز على عرضالأوضاعالاقتصادية فى مصر قبل الحرب . ومع الأهميـــة التى يعطيها الكتاب لعنصر المفاجأة فى جانب اسرائيل ، والضعف القيادى فى جانب العرب .. الا أنه يعطى أهميـــة كبرى لمـــا يسميه (الضـــوضاء الدعائية الهيستيرية) العربية .. وخصوصا مصر .. باعتبارها — فى رأيه — سببا رئيسيا أدى الى الهزيمة . ان المؤلف — وولتر لاكير — كان رئيسا لتحرير مجلة (الشرق الأوسط) التى تصدر فى لندن وقد أصدر منقبل كتابين الأول بعنوان (الشيوعية والقومية فى الشرق الأوسط) .. والثانى بعنوان (الاتحاد السوفيتى والشرق الأوسط) .

وهذا الكتاب (الطريق الى الحرب — ١٩٦٧) .. هو واحد من الكتب التى كان محظورا حتى الآن .. تداولها فى مصر والبـــلاد العربية .

* * *

كانت حرب يونيو ١٩٦٧ — بين اسرائيل والدول العربية — واحدة من اقصر الحروب التى شهدها التاريخ وأقلها دمارا . ففى المجال الدولى لم يكن لها تأثير غير مباشر . ولا يزال الوقت

مبكرا للغاية لكى نقرر ما اذا كانت ستعتبر نقطة تحول فى تاريخ الشرق الاوسط . ولكن الشىء المؤكد .. هو أنها من أهم المواجهات فى عصرنا هذا . انها تضم كافة المقومات الضرورية : التحولات غير المتوقعة والاضطرابات والنصر والمأساة .

اننى أريد أن أقول — فى هذا الكتاب — أن الاسابيع الثلاثة السابقة على الحرب هى أكثر أهمية من الحرب نفسها . واريد أن أقول أيضا أن ما كشفت عنه الحرب هو أكثر خطورة . أن هناك قضيتين : قضية عربية .. وأخرى اسرائيلية . وأنا هنا أحاول أن أؤكد ذلك بوضوح فى كافة أجزاء هذا الكتاب ، ان العالم العربى يعانى آلام أزمة كبرى ، بعد أن كشفت النكسة العسكرية فى يونيو ١٩٦٧ عن مرض مستفحل للغاية ليس موجودا فى ساحة القتال فقط بل وفى أجهزة الأعلام أيضا .

لقد قام الاعلام العربى .. بصبغ الآمال العربية بصبغة ثورية الى حد عدم القدرة على تحقيق هذه الآمال .. وكان لابد أن يؤدى هــذا الى شعور عميق بخيبـــة الأمل ، بل الى الفوضى فى أغلب الأحيان . لقد كان رد الفعل العربى فيما بين سنتى ١٩٤٨ و ١٩٦٧ يتسم بعدم المنطقية ، بشكل يشبه فى بعض الحالات .. الثـــورة الثقافية فى الصين . ان موقف الصين من العالم الغربى ، شأنه شأن العالم الاسلامى ، كان على مر القرون يتميز بالتفوق والرضا من النفس ، حتى جاء القرن التاسع عشر وادركت الصين فجأة أن الغرب الحقير يفوقها فى القوة الى حد كبير وأنه يزداد ثراء وقوة على مر الأيام . لقد تغير الموقف الشرقى الى منافسة جادة ، وكان المعتقد أنه عن طريق الدراسة والمحـــاكاة ، سيكون من الممكن اكتشاف ، بل تطبيق السر الخادع لقوة الغرب . وبدلا من ذلك الموقف العربى — موقف الاعجاب والمحاكاة — قد حل محله موقف الاحتقار والرضا من النفس .

لقد كانت الثورة الثقافية فى الصين — شأنها شأن أزمة العالم العربى — هى نتيجة لاستمرار الفجوة بين الطموح وتحقيق الطموح، ومما أدى الى تفاقم الشعور باليأس فى العالم العربى .. هو أنه لا يضم ٧٠٠ مليون نسمة ، بل لا يملك قنبلة هيدروجينية ..

والاعتقاد الذى انتشر قبل ١٩٦٧ بأن النظريات السياسية والاقتصادية يمكنها أن تصنع ـ بنفسها ـ المعجزات .

لقد أدت هزيمة العرب العسكرية سنة ١٩٤٨ ـ الى سقوط جيل الملك عبد الله ونورى السعيد ، وقيام جيل آخر من القادة الأكثر وطنية وتطرفا ، بل الأكثر حيوية . ولكنه كان فى الوقت نفسه أكثر مسئولية وأكثر طموحا ، بل اكثر كذبا وهيستيرية فى أغلب الأحيان . لقد انتشر بين القادة العرب ـ فى السنوات السابقة على هزيمة ١٩٦٧ ـ شعور بالاحتقار لاسرائيل ، رددوه لأنفسهم ولشعوبهم .. مما أدى الى وقوعهم فى النهاية فى (المطب) نفسه الذى حفروه هم . ولو أخذنا مثالا واحدا ، فاننى ـ كيهودى ـ سوف أختار مجلة « القوات المسلحة » لسان حال الجيش المصرى عندما كتبت فى عدد ١٦ نوفمبر سنة ١٩٦٤ تقول :

« ان اليهودى .. بروحه وشخصيته .. لا يملك صفات الرجل الذى يحمل السلاح . انه بطبيعته غير مستعد للتضحية بحياته فى سبيل أى شىء ، حتى اذا كان هذا الشىء هو ابنه أو زوجته . فاذا كان هناك اليوم رجل فى اسرائيل يحمل السلاح ، فانه يفعل ذلك ، لانه يعلم علم اليقين ، أن هناك رجلا آخر سيسبقه ويقف أمامه ، وليس خلفه ، للدفاع عنه عندما يحين الوقت » .

واذا كانت هذه هى اللهجة التى تستخدمها مجلة عسكرية مصرية مع جمهورها العسكرى ، فانه على الجبهة المدنية أيضا .. كانت الاذاعة المصرية تؤدى الدور نفسه ـ حتى فى لحظات الازمة والتعبئة والتحدى . ففى اذاعة صوت العرب مثلا يوم ١٦ مايو سنة ١٩٦٧ ـ نجد هذه العبارات :

« يا عرب .. هذه تفاصيل كاملة ودقيقة لقوة اسرائيل العسكرية تم الحصول عليها من مصادر تعلم تماما الحقيقة الكاملة عن اسرائيل . ان اسرائيل لديها عدد من دبابات شيرمان القديمة التى تم اصلاحها لكى تلائم ماكينات الديزل والمدافع الفرنسية عيار ١٠٥ ملليمترات .. وتستطيع اسرائيل وقت الحرب .. أن تعبىء خلال ثمان واربعين ساعة ٢٥٠ الف جندى للقيام بواجبات الحراسة و

الداخل ، ولكنهم لن يستطيعوا الاشتراك فى المعارك التى تتدخل فيها الجيوش النظامية » .

ان هذه النظرة السيكولوجية العربية قبل ١٩٦٧ كانت مزودجة ، وكانت متناقضة فى ازدواجيتها . فبينما كان الشعور باحتقار اسرائيل ــ كعدو ــ متأصلا .. فانهم كانوا ينظرون الى اليهودى باعتباره متمتعا بنفوذ واسع النطاق ، فهو يدير الأمور خفية فى العالم الغربى بفضل ما يتميز به من دهاء بالغ واتصالات واسعة النطاق وموارد هائلة .. لقد كان اليهودى ــ فى نظرهم ــ وراء كنيدى ، بل وراء عملية اغتياله أيضا ، وعموما .. فان له يدا فى جميع الفضائح ومظاهر الفساد فى العالم .

واذا كان هذا يصدق على العرب بصفة عامة ، فانه يصدق على مصر بالذات . وبعد حرب ١٩٦٧ ــ أدرك المصريون أن دعايتهم وتصورهم لليهود كان خطأ تكتيكيا فادحا ، اعلاميا ونفسيا ، ولكن الوقت كان قد فات والكارثة كانت قد وقعت فعلا ، دون أن يأخذ العرب درسا على الاطلاق من هزيمة ١٩٥٦ .

اننا لو أردنا ان ندرس أسباب حرب ١٩٦٧ ، أسبابها كهزيمة فادحة بالنسبة للمصريين .. وأسبابها كانتصار ضخم بالنسبة للاسرائيليين .. فان علينا فى الواقع أن ندرس السنوات بين ١٩٥٦ و ١٩٦٧ . أن دراسة أسلوب تفكير وتصرف وعمل الطرفين خلال تلك الـ ١١ سنة الفاصلة .. هو الذى جعل بعد ذلك الطريق مفتوحا الى كل من الهزيمة الفادحة والانتصار الضخم . لقد كانت الأخطاء التى ارتكبها العرب فى تلك الفترة .. هى مزايا فى جانب الاسرائيليين ، كما كانت الدروس التى استفادها الاسرائيليون .. هى بدورها أوجه نقص فى العرب عندما حانت اللحظة المناسبة للتحدى فى سنة ١٩٦٧ .

لقد دخلت اسرائيل حرب ١٩٥٦ باتفاق سابق مع بريطانيا وفرنسا . واذا كانت المظلة الجوية البريطانية الفرنسية فى تلك الحرب قد جعلت مهمة اسرائيل أكثر سهولة .. الا أن العلاقة بين الدول الثلاث قد أدت ــ من الناحية السياسية ــ الى تشويه العملية

بأكملها ، الأمر الذى أضر بالمصالح الاسرائيلية .. فمن الناحية العسكرية كان النصر العسكرى لاسرائيل مؤثرا . ولكن ، لما كان هـذا النصر قد تحقق بالتواطؤ مع فرنسـا وانجلتر ، فقد كان باستطاعة ناصر أن يقول ــ بطريقة مقبولة ظاهريا ــ ان مصر كانت تستطيع أن تهزم اسرائيل لولا التدخل الانجلو فرنسى . وعلى ذلك .. فان الدرس العسكرى لم يكن قاطعا على نحو ما كان الاسرائيليون يأملون . واذا كان الاسرائيليون قد خرجوا من حرب ١٩٥٦ وهم يعلمون أنهم انتصروا عسكريا وهزموا سياسيا ، فان مصر خرجت وهى تعلم ــ انها انتصرت سياسيا .. وتتصور أنها انتصرت كذلك عسكريا .

اننا ــ كيهود ــ نعلم أن اسرائيل لم تجن حتى عام ١٩٥٦ سوى فترة راحة . غير أن اسرائيل استطاعت أيضا أن تخرج منها بدروس مستفادة سرعان ما بدأت فى تطبيقها . وبالاضافة الى العمل السياسى والعسكرى ، فقد كانت هناك أيضا حالة من الرخاء الاقتصادى ، وكثرت السيارات الجديدة التى تزحم المواصلات ، وأصبح مألوفا للكثير من الاسرائيليين القيام برحلة الى الخارج كل سنتين أو ثلاث سنوات ، وزادت معدلات النمو الاقتصادى وزادت الصناعة ــ فى عام ١٩٦٢ مثلا بنسبة ١٣ ٪ عنها فى العام الذى سبقه . وحتى فى الزراعة ــ حيث التقدم بطىء للغاية ــ أمكن النهوض بها بنسبة ٨٪ ، وارتفع انتاج البيض بدرجة كبيرة ، بحيث أصبحت اسرائيل تصدر كميات كبيرة منه الى أوربا ، بالاضافة الى الفواكه والخضروات .

ولكن الصورة ، فى الواقع ، لم تكن مشرقة تماما . لقد ارتفعت مستويات المعيشة بدرجة أسرع من الانتاجية ، وكانت البلاد تعيش نموا يتجاوز مواردها ، ولم يكن التقدم الاقتصادى متناسقا .. فقد كان هناك سوء تقدير خطير فى بعض الميادين ، وكان عدد المتعطلين يتراوح بين ٥٠ و ١٠٠ ألف ، وهى نسبة عالية للغاية من اجمالى الأيدى العاملة .

وبالاضـافة الى ذلك ، فقد احدثت المشـكلات السـياسية والاجتماعية المزيد من الاهتمام . ففى مجال السياسة الاسرائيلية..

كان الميل نحو الانقسام والتفكك يتقدم بمعدل يدعو الى الانزعاج . وقد أصبح المثل القديم الذى يقول « ان وجود ثلاثة يهود ـــ معناه وجود أربعة أحزاب سياسية ـــ قريبا جدا من الحقيقة . لقد حدث انشقاق فى صفوف حزب الماباى .. وكذلك حزب حيروت ، بل الحزب الشيوعى أيضا .

وهناك أيضا استياء وضجر متزايد بين الجيل الصغير ، نحو الجيل الأكبر من القادة ـــ الجيل العتيق من اليهود الذين جاءوا من أوربا الشرقية . ومما أكد هذه الفجوة هو أن سياسيى المدرسة القديمة لم يبادروا فى سرعة بأن يفسحوا مجالا للجيل الجديد . لقد انزعجوا فقط من افتقار هذا الجيل للمثل والمبادىء التى كانت فى أغلب الأحيان تصل الى حد السخرية السافرة .

ومن الممكن ان نستطرد فى ذكـــر نواحى القصور والفشل ، ولكننا ـــ كيهود ـــ يجب أن نعلم .. ان ما حققته اسرائيل وما فشلت فى تحقيقه ، يجب أن يقاس على ضوء ماحققته الدول الأخرى . فاسرائيل ـــ بسكانها البالغ عددهم مليونين ونصف مليون ، كان اجمالى انتاجها القومى فى سنة ١٩٦٧/٦٦ يتساوى مع اجمالى الانتاج القومى لمصر التى يبلغ تعدادها ٣٠ مليونا .

وفى مقابل ذلك ، فلو أخذنا مصر فى فترة ما بين الحربين (١٩٥٦ و ١٩٦٧) فسوف نجد صورة أخرى .. لقد خاضت مصر ثورتها الاجتماعية ، واختفت الطبقات الحاكمة من الباشوات وأتباعهم ، وحلت محلهم الطبقة الجديدة من صغار الضباط والتكنوقراطيين . وقد أصبح من العادى أن يحصل معظم الضباط على وظائف مدنية . وأصبح « صوت العرب » من العناصر السياسية الكبيرة فى كافة أرجاء الشرق الأوسط .

ومما لا جدال فيه .. ان الطبقة الجديدة كانت صادقة فى رغبتها فى تحقيق الانتعاش القومى والاصلاح الاجتماعى ، وكان بعض أعضاء هذه الطبقة من الرجال القادرين .. على حين كان البعض الآخر من الفاشلين . ولكن بصرف النظر عن الانجازات الضرورية، فقد فقدت الطبقة الجديدة تدريجيا .. مثاليتها والاحساس المشترك

فيما بينها . لقد بدأت تؤيد الأمر الواقع مادامت امتيازاتها التى تتمتع بها فى ظل النظام الجديد لم يمسسها أى ضرر ، وساعد على ذلك .. أن البوليس السرى أصبح يشكل دولة داخل الدولة ، وهو جهاز لا يستطيع بطبيعته أن ينحرف فى مجتمع مفتـوح ، ولذلك فلابد له دائما من مجتمع مغلق بحيث أصبح رئيس الدولة نفسه هو مثلا الذى يقدم الكثير من الصحف ، وهو وحده الذى يعلم حقيقة ما يجرى .

ولكن مع ذلك .. فان الخبراء الاقتصاديين فى مصر ، لم يكونوا راضين تماما عن الأوضاع الحقيقية فيما وراء الأرقام والتصريحات الخلابة عن الانتصارات الجديدة فى الجبهة الاقتصادية .

ان هذه الأشياء لم تتضح الا بمضى السنين ، ولم تظهر أضرارها الا بعد أن وقعت فعلا . وعموما .. فقد كان عام ١٩٦٠ هو أوج الناصرية .

ولكن فى العـام التالى مباشرة ــ ١٩٦١ ــ بدأ المد ينحسر . ففى شهر سبتمبر انفصلت سـوريا عن مصر ، وفى العالم التالى اشتعلت الحرب الأهلية فى اليمن ، وتدخل ناصر بستين الف جندى فى حرب ضروس . وبدأ العالم الثالث فى التفكك .. فقد توفى نهرو واختفى كل من بن بيللا ونكروما وسوكارنو ، وبدأت تنمـو معارضة متزايدة للناصرية .. حتى داخل العالم العربى .

وفى الوقت نفسه ــ وبرغم العلاقات الوثيقة بين مصر والاتحاد السوفيتى ــ فقد كانت لا تزال هناك علاقات طبيعية بين مصر وأمريكا ، رغم انها لم تكن علاقات ودية . وقد جاءت نقطة التحول فى عام ١٩٦٤ . ولم يكن هناك سبب معين واضح لهذا التدهور الذى لم يحدث فجأة . لقد كانت حرب اليمن احد هذه الأسباب . وبالرغم من أن أمريكا كانت واحدة من بين الدول الأولى التى اعترفت بالنظام الموالى للناصرية هذا ، فقد أيدت أيضا السعوديين المؤيدين للملكيين فى اليمن . وقد وقعت عـدة حوادث صـغيرة أوضحت أن المصريين قرروا اثارة الامريكيين على قدر الامكان . فقد أحرقت الجماهير المكتبة الأمريكية فى القاهرة . ولم تسارع فرقة

المطافىء ــ التى تقع على مقربة من مكان الحادث عبر الطريق ــ الى التدخل . وأسقطت طائرة مدنية أمريكية .. وكانت السلطات المصرية بطيئة حتى فى تقديم الاعتذارات التى تتميز بعدم الاكتراث. وبالاضافة الى ذلك .. كان هناك تردد متزايد فى أمريكا لتقديم ــ أو الاستمرار فى تقديم ــ مساعدة اقتصادية الى مصر . وقد أدى هذا الى اثارة غضب القاهرة بدرجة كبيرة .

أما بالنسبة للعالم العربى فى فتــرة ما بين الحربين (١٩٥٦ و ١٩٦٧) فقد كان هناك غليان لم يسبق له مثيل . فاذا بدأنا بسوريا .. فاننا سنجدها على الدوام أكبر البلدان تطرفا . وتعتبر الانفعالات السياسية فى سوريا أكثر حدة منها فى البلدان العربية الأخرى وأكثر تعصبا . ذلك أن السوريين ــ على عكس المصريين ــ لايشتهرون بروح الفكاهة . ان سوريا بلد يتسم بالتعاسة . لقد عاشت عدة انقلابات عسكرية خلال تاريخها القصير أكثر من أى بلد عربى آخر . والاحتكاك بين الجماعات الدينية والعنصرية لا يزال له أكبر الأثر على الحياة السورية .

وعموما .. فان العالم العربى ــ بل العالم كله ــ كان يشهد تصعيدا فى حدة المشاكل القائمة ، بحيث أنه عندما وصلنا الى سنة ١٩٦٧ وكان ربيع تلك السنة ينذر بأنه قد يصبح أكثر خطورة من أى عام سابق . لقد صعدت أمريكا حربها فى فيتنام .. وأصبح هناك خوف من أن يكون صيف ١٩٦٧ أكثر سخونة من الصيف السابق . وكان للاتحاد السوفيتى هو الآخر مشاغله الخاصة . لقد تتابعت تلك التطورات العالمية فى بداية تلك السنة ، بحيث أصبح من الصعب ــ ان لم يكن من المستحيل ــ تحقيق التقدم بالنسبة لأية قضــية على الاطلاق .

وفى مايو ١٩٦٧ ــ كانت كافة العناصر التى تحتم اندلاع الحرب فى الشرق الأوسط قد اصبحت موجودة ومؤثرة ، وأصبح هناك مزيد من التوتر لم يسبق له مثيل بين سوريا واسرائيل انضمت اليه مصر ، وسرعان ما بدأت الأحداث المعروفة من طلب مصر سحب قوات الطوارىء الدولية ، الى اغلاق مضايق تيران .

ولقد نشبت الحــرب فى شهر يونيو .. نتيجــة لسلسلة من الحوادث بدأت قبل ذلك الموعد بثلاثة أسابيع ، انها حالة تنطوى

على الكثير من الشواهد التى تنم عن التصعيد .. ذلك ان حادثة تقود الى اخرى ذات نتائج مؤكدة .. كما أن التقديرات بدت أكبر مما كانت عليه فى الماضى ، فضلا عن ان الارتجال والمصادفة قد لعبا دورا كبيرا ، كما أن التصريحات سرعان ما بدأت تتسابق لتصعيد الموقف من كلا الجانبين .

ولكن المشكلة على الجانب العربى .. كانت الضوضاء الهستيرية التى تصبح ضارة من النقطة التى يبدأ فيها أصحابها فى تصديقها، لأنها تدل على حالة نفسية سرعان ما أدت الى نتائج مادية فى ساحة القتال .

واذا كان اسلوب الاذاعات وأجهزة الاعلام العربية ــ وخصوصا المصرية ــ فى تلك الأسابيع الثلاثة ، اذا كان قد بدا ناجحا وقتها .. فانه نجح لان المستمعين أرادوا أن يسمعوا دعاية من هذا القبيل، وهى الدعاية التى خاطبت مشاعرهم أكثر من الاسلوب الغربى ؛ (أو حتى السوفيتى) غير العاطفى . ويتعين اجراء دراسة خاصة حول مسئولية اذاعة القاهرة فى الكارثة التى حلت بمصر عام١٩٦٧ . لقد كان هذا النوع من الدعاية هو مصدر قوة ظاهرية ، ومصدر ضعف حقيقى على السواء . وقد أمكن ادراك ذلك ــ ولكن بعد أن وقعت الهزيمة العسكرية .. فان مجلة (المصور) المصرية قالت بعد الهزيمة مثلا .. (لقد كنا نقول أشياء لم نكن نعنيها على الدوام ، ومن ثم عادينا كذلك أصدقاءنا) .. ومما لا شك فيه أن هذا صحيح ، الا أن عمل استقصاء حول آثار هذه الدعاية لا يتعين ان يكون محدودا فى اطار الأثر الذى أحدثته فى الخارج . لقد وقع تأثيرها أساسا على العرب ، ومن ثم كان أصحاب الدعاية هم أولا واخيرا ضحاياها . لقد أدت تلك الدعاية الى اثارة توقعاتهم الى النقطة التى يجب عندها أن تتحقق الوعود . لقد أدت مثل تلك الدعاية الى تقوية الميل الداخلى لكثير من العرب نحو خداع أنفسهم .

ان العرب يتمتعون بكثير من الصفات الجذابة (التى يفتقر اليهود الى بعضها) فهم يتمتعون بمقدرة تكاد تكون غير محدودة

على أن يؤمنوا بما يريدون أن يؤمنوا به . ان هذه السمة من سمات الشخصية العربية لا يمكن التأثير عليها بقوة . انهـا توضح كل ما يتعلق بنشوب الحرب وما خلقت من آثار . ذلك ان الدعاية التى كانت تنبعث من القاهرة ودمشق وبغداد ، كالسيل المنهمر حول ما يتميز به العرب من ثقافة وتقدم اقتصادى وقوة عسكرية .. قد قبلت بحماس لانها تتفق والحاجة العاطفية لشعب أبى .. تلك الحاجة التى قويت بدرجة كبيرة فى كثير من المجـالات فى القرون الأخيرة ، ولكنها لم تستطع أن تتمشى ومكانتها فى العالم الحديث ، وانما كانت تشعر باستياء تجاه هذا العالم . ومن هنا جاءت الحاجة الى خلق عالم خيالى .. حيث يمكن حل كافة المشكلات الهائلة التى يتعرض لها العرب . وفى ظل هذا العالم الخيالى يمكن بناء المشروعات الصناعية فى وقت قصير للغاية ، كما يمكن كسب المعارك دون اية خسائر ، والقضاء على الأعداء .. ففى هذا العالم الخيالى لا توجد مقاومة ولا توجد عقبات .. وقد أدت هذه الدعاية الى خلق التخيلات بين العرب حول قوتهم ودعمت ميلهم — الذى كان قويا على الدوام — الى تجاهل الحقائق غير المرضية . وفضلا عن ذلك .. فان هذه الدعاية لم تؤثر على الجماهير فقط ، وانما أثرت فى المدى الطويل على القادة أنفسهم ، وانعكس ذلك بالطبع على أرائهم ، وعلى ما يصدرونه من أحكام .

ومثلما كان للدعاية العربية فى ١٩٦٧ أثرها على العرب انفسهم، فان المشكلة كلها ، حتى نشوب الحرب فعلا ، كان لها اثر عميق على الرأى العام فى جميع بلاد أوربا وأمريكا .. ولم يحدث منذ الحرب الأهلية الأسبانية ان كانت المشـاعر منقسمة بمثل ما حـدث فى الاسابيع الثلاثة السابقة على خمسة يونيو ١٩٦٧ .. ذلك ان هذا النزاع أصبح لفترة من الزمن مسألة داخلية خطيرة فى فرنسـا وايطاليا ، بل كانت هناك مشاهد عاصفة داخل البرلمـان الهندى.

ان وضع تحليل دقيق للرأى العام — ابان الأزمة — فى عدد من دول العالم لا يمكن أن يتم الا فى صورة كتاب قائم بذاته ، بل ربما سلسلة من الكتب ، ولكن الاتجاهات العامة ظهرت وقتها بوضوح حتى من خلال عمليات البحث السطحية .

لقد تلقى ناصر والسوريون تأييدا كبيرا ، بل متحمسا فى أغلب الأحيان من جانب العالم العربى وشمال افريقيا والعالم الاسلامى .. أما خارج نطاق هذه الدائرة ، فكانوا ينعمون بالبركات الرسمية من الكتلة السوفيتية والصين وبعض دول آسيا وافريقيا .. أما اسرائيل فقد كان هناك عدد كبير من المتعاطفين معهـــا فى أوروبا والأمريكتين ، بالاضافة الى عدد أقل فى أجزاء من آسيا وافريقيا .

ان هذا السرد لتطورات الأزمـــة ينتهى صـــباح الخامس من يونيو ١٩٦٧ .. وان ازيز طائرات الميستير والميراج التى أخذت ترتفع من المطـــارات الاسرائيلية ، يمكن أن يزود أحـــد المخرجين السينمائيين بنهاية دراماتيكية .. فى حين أن هذه النهاية غير مرضية من وجهة نظر المؤرخ للاحداث ..

ولكن ، من الواضح انها النهـــاية القاطعة لهذه الدراســـة ، اذ أن ذلك اليوم قد شهد سلسلة جديدة من الحـــوادث لم تظهر نظريتها فى الأفق بعد .. فقـــد حجبت الحرب والنصر الاسرائيلى السريع الفترة التـــاريخية التى ســـبقت النزاع ، فتـــرة المخاوف والشكوك والتردد .. ولكن من الأشياء التى سرعان ما أصبحت فى طى النسيان ، ذلك الارتباك والقـــرار المشئوم الخاص بفترة التأهب للقتال .

لقد أدت الحرب الى تغيير نظرة الجميع الى الأزمة التى سبقت الحرب .. وكذلك فانها القت أضواء ضخمة على سياسة الحكومة الاسرائيلية ، الى درجة أن التردد أصبح يبدو وكأنه أمر مقصود وحتى الاخطاء اخذت شكل المناورات الروتينية .. وفى الواقع انه ـــ برغم كل تصور ـــ فان نتيجة الحرب كما نعرف جميعا الآن ، لم تكن قط موضع جدل . ويحتمل الا تكون النتيجة قد تغيرت كثيرا لو ان الحرب قد نشبت فى الخامس والعشرين من مايو أو فى الخامس عشر من يونيو .

العـــرب وإســرائيــل

تـأليف: تشـارلز دوجلاس هيـوم



هذا الكتاب
وهذا المؤلف

يقوم هذا الكتاب على نظرية اساسية ، هى أن المشكلة بين اسرائيل والعرب هى أساسا مشكلة سياسية ، ولا يمكن حلها عسكريا . وما دام العرب — منذ ١٩٤٨ حتى الآن — لم ينفذوا فعلا اية حلول عسكرية ضد اسرائيل ، فمن المفهوم أن المؤلف يقصد بمنطقه هذا .. ان يدحض الاساس الذى يعتمد عليه التفكير الاسرائيلى . ان المؤلف يقول فى الكتاب بصراحة : ان اعتماد التفكير الاسرائيلى على استخدام الحلول العسكرية فى كل مرة ، هو أمر لا يحل فى النهاية اى شىء ولا يغير أى وجه من أساسيات المشكلة.

واذا كانت هذه تعتبر نقطة ايجابية فى تفكير المؤلف ، فان هناك نقاطا أخرى كثيرة يختلف فيها المؤلف مع تفكيرنا تماما .

ان المؤلف هو « تشارلز دوجلاس هيوم » وهو انجليزى قام بتغطية اخبار حرب ١٩٦٧ صحفيا باعتباره مراسلا حربيا لصحيفة « التايمز » البريطانية . لقد وصل الى اسرائيل قبل نشوب الحرب بأسابيع قليلة ، واستمر هناك الى انتهاء الحرب .

وفى تحليل المؤلف لاسباب حرب ١٩٦٧ ، فانه يقول ان شيئا ما لم يكن ليوقف اسرائيل عن الهجوم .. اللهم الا أن تعلن أمريكا وبريطانيا انهما سوف تساندان العرب ، وهو الأمر الذى يرقى الى مرتبة الاستحالة من الناحية السياسية .

ومع وجود خلافات كثيرة مع النتائج التى انتهى اليها المؤلف فى فصول الكتاب الا أن المؤلف فى كتابه هذا .. يمثل نموذجا للاسلوب

البريطانى فى تحليل مشكلة فلسطين ومشكلة الوجود الاسرائيلى فى الشرق الأوسط .

* * *

منذ قيام دولة اسرائيل فى مايو ١٩٤٨ نشبت حروب ثلاث بينها وبين جيرانها العرب ، ومع انتهاء كل حرب . كان انتصار اسرائيل العسكرى أكثر مضاء من سابقه ، وهزيمة العرب اشد اذلالا من سابقتها ، ومع ذلك .. فليس هناك ما يدل على ان جيل المنازعات هذا قد ولى وانتهى .

ولقد ترتب على كل حرب موقف متغير . فالحرب الأولى تمخضت عن قيام اسرائيل ، والثانية دعمت مركزها ، أما الثالثة (١٩٦٧) فقد حققت لها امبراطورية ، غير أنه ليس هناك ما يدل على وجود نهاية لكل هذا ، ان الشك فى النوايا الطيبة من كلا الجانبين .. والشعور بتغير ميزان القوى . كلها اتجاهات مألوفة فى الفورة الأولى لفترة ما بعد الحرب ، ثم لا تلبث تلك الاتجاهات أن تذوب وتتفتت تدريجيا على صخرة المستحيلات السياسية فى الموقف العربى .

ان المشكلة بين اسرائيل والعرب هى مشكلة سياسية .. بلا حل عسكرى . لقد واتت الشرق الأوسط فرص أكثر مما واتت غالبية المناطق الاخرى فى العالم لكى يكتشف بصفة قاطعة .. انه لا يمكن حل المنازعات بمجرد استخدام السلاح .

واذا كان النزاع بين العرب واسرائيل هو أكثر من مجرد صدام بين جيوش متصارعة — أو حتى بين مجتمعات متصارعة تدعمها قوات عسكرية — فماذا عساه أن يكون اذن ؟

لعل من الضرورى ، استبعاد الاعتقاد الحالى بأن هذا النزاع مظهر آخر من مظاهر العداء للسامية من ذلك النوع الذى قد يجده المرء فى نوادى الجولف البريطانية أو الامريكية . انه ليس بالتحديد نتاجا لنفور عنصرى بين العرب واليهود ، فتاريخ الجماعات اليهودية فى العالم العربى ليس على نصف بشاعة تاريخها فى المجتمعات المسيحية أو الشيوعية فى اوربا . ومن

الانصاف أن نقـــول بأن الجاليات اليهـــودية انتعشت حضاريا وتجاريا فى جو تسوده درجة كبيرة من الأمن فى العالم العربى ، خلال العشرين قرنا الأخيرة وهو ما لم يتوافر لها فى أوربا . ومهما قيل بشأن حل مشكلة اندماج اليهود فى المجتمعات الأوربية ، فليس لهذا أية علاقة بمشكلة فلسطين ، لان اختيار الصهيونية لفلسطين اعتمد على ان الشرق الأوسط يســـتطيع أن يمتص عنصرا جديدا تماما دون حدوث مضاعفات شديدة .

لقد أصبحت اسرائيل تملك الآن كلا من القوة والقدرة على أن تبقى وسط منطقة معادية لها ، ولكن ليس لديها القوة ولا القدرة على تغيير هذا العداء دون أن تغير هى الأخرى نفسها . والنقطة التى اريد أن أوضـــحها . هى أن اسرائيل التى كانت العنصر اليهودى فى المســألة الفلسطينية ، قد تخطت مرحلة التبعية وأصبحت العنصر الأقوى فى مستقبل فلسطين .

انها اذن مشكلة جغرافية بأكثر مما هى مشكلة عنصرية . ذلك أن النزاع فى الشرق الأوسط أصبح قائمـــا الآن بين دول ذات سيادة ، وليس بين ممثلين لاجناس مختلفة ، لهذا السبب .. فان حل المشكلة العربية الاسرائيلية لا يكمن فى حل مشكلة اليهود عالميا ، وانما يكمن أكثر فى تحقيق توازن اقليمى محلى بين دول الشرق الأوسط واسرائيل واحدة منها .

ولقد تحقق توازن اقليمى بين القوى فى المنطقة . ومع انه حدثت تغييرات وربمـــا تحدث تغييرات أخـــرى ، فان النقطة الجوهرية هى أن التوازن يعكس تركيب القـــوى المحلية ، ولا يتأثر بدرجة خطيرة بأية قوى خارجية .. ولا يمكن لاى حل الآن أن يتضمن الرجوع الى الموقف الذى كان سائدا حينما كان شعب آخر مســـئولا عن المنطقـــة — اى قبل عام ١٩٤٨ — والا كان معنى ذلك المطالبة باعادة انتـــداب بريطانيـــا .. أو مطالبة الاتراك بالعودة أو حتى مطالبـــة الرومان بأن يفعلوا ذلك . ان المرء لايستطيع أن يوسع نطاق بحثه لمشكلة ما .. اكثر من الاطار الذى تدور خلاله الأطراف الراهنة للمشكلة .. ان سلطتنا فى المنطقة انتهت بانتهاء مسئوليتنا فيها ، ومعها تلاشت قدرتنا .

والقضية فى الواقع ، ليست قضية الوجود الاسرائيلى فى حد ذاته كسبب للنزاع . ولكن هذا الوجود يساعد على خلق ظروف يجدها العرب غير محتملة . فلو أن اسرائيل قامت كدولة عربية، لما كان هنـــاك نزاع .. اللهم الا بين اسرائيل والأردن حـــول استعادة تلك المناطق من فلسطين التى ضمتها الأردن بعد حرب ١٩٤٨ .

لقد انتهت حرب ١٩٤٨ بتسويات مؤقتة للحدود وباتفاقيات للهدنة ، مما جعل هذه الحدود تصبح بعد ذلك مصدرا للنزاع المستمر ــ والواقع أن مشكلة الحدود كانت مجرد تعبير عن نزاع سياسى أعمق وأوسع بين الطرفين ، ولأن خطوط الهدنة كانت حقا غير منطقية وفى بعض الأحوال غير عملية بالمرة ، فانها سهلت للعرب التعبير عن استيائهم السياسى العام . لقد كانت حوادث الحدود فيما بين سنتى ١٩٤٨ و ١٩٦٧ هى دائما العملية التى يعبر بها العرب عن استيائهم ، كما أنها أيضا كانت تعبيرا غير مباشر عن عدم قدرتهم على القيام بأى ضغط فعال على اسرائيل ــ وهو تعبير ان دل على شىء فانما يدل على خيبة أمل .

ومن ناحية أخرى .. كانت اسرائيل من حين لآخر ــ تكيف استراتيجيتها وفق اسلوب عسكرى منعزل تماما عن العوامل السياسية الأخرى ، يدفعهـــا فى ذلك شعور بالثقة فى تفوقهـــا العسكرى . وتجدر الاشارة هنا الى فقرة كتبها الجنرال « موشى دايان » رئيس أركان حرب الجيش الاسرائيلى سابقا ووزير الدفاع الآن ، تناول فيها سياسة الردع الاسرائيلية ، لانه يكشف فى هذه الفقرة عن عدم المرونة ازاء مثل هذا الوضع . واذا كانت الاستراتيجية تدل على شىء ، فانما تدل على الافتقار الأساسى الى العمق فى الفكر العســـكرى . ان ضرب فيتنام الشـــمالية بالقنابل الامريكية يقوم أساسا على مبدأ رفع ثمن العدوان فى مصدر العدوان . وهذا بالضبط موقف اسرائيل العسكرى ، دون أن يدل ذلك على أى أمل قائم فى ايجاد حل لمشكلة أمن الحدود .
يقول دايان فى كتابه « حملة الســـويس » مفسرا ســـياسة الردع :

« كان الهدف هو أن نبين للعرب انه بينما قد تعجز اسرائيل عن حماية حياة كل سائق جرار يحرث بالقرب من الحدود ، أو

ان تمنع بث الالغام بالقــرب من طريق قــرية .. فان الدولة المسئولة عن المخربين لن تفلت من العقاب .. وعندما تقوم قوة اسرائيلية بعمليات داخل الأرض العربية دون أن تتمكن الجيوش المحلية من ان تتحداها تحديا جديا ، فان الفشل العسكرى للدول العربية يفتضح علنا أمام شعوبها . وهكذا ، فانه بدلا من أن يرتفع شأن الأنظمة العــربية . فان النتيجة النهائية لاعمـــال الفدائيين هى اهتــزاز ثقة الشعوب بتلك الأنظمـــة وبقواتها المسلحة » .

ولقد احسنت بريطانيا للصهيونية احسانا كبيرا ، ومع ذلك فربما تكون قد اساءت للعرب أشد الاساءة .. وربما ألقى هذا على بريطانيا مسئولية أكبر لبذل مساعيها الحميدة ، وان تفهم أن جانبا ضخما من متاعب هذا النزاع يقع عبؤه عليها . بيد انه لم يكن العرب من الضعف بحيث تستطيع اسرائيل أن تحطمهم . كما انهم لم يكونوا من القوة بحيث يدمرون اسرائيل . ومن ناحية أخرى ، فبينما كانت اسرائيل من القوة بما يجعلها ترد فى كل غارة انتقامية ردا قاسيا ، فانها لم تستطيع أن ترد على نحــو يجعل العرب لا يعودون الى تكرار ذلك مرة أخرى .

لقد نشأ الخطر فى هذا الموقف .. لان كلا الجانبين كان مقتنعا بأنه على حق . ولم يكن أيهما قويا ماديا بما يكفى لدعم هذا الحق على نحو يحسم النزاع ..

ولقد كانت حرب ١٩٥٦ نفسها هى فى نوعها اجراء انتقاميا كبــيرا قامت به اسرائيل ، تشــمل كافة الدوافع النفســية والسياسية وكذلك الاقتصادية .. التى لم تكن موضع الاهتمام فى السنة السابقة على الحرب .

وقد ادت حرب السويس سنة ١٩٥٦ الى بعض التغييرات السياسية الكبرى فى المنطقة ، كما جلبت الســلام على حدود اسرائيل . ورغم أن الجامعة العربية أعلنت عن مشروعات لمزيد من المقاطعة للبضائع الاسرائيلية .. فان العرب كانوا الجانب الأضعف ، وكانوا منقسمين على انفسهم ، ولجأوا الى حملات

الدعاية ضد بعضهم البعض أكثر مما كانت هذه الحملات ضد اسرائيل .

ولقد كانت السنوات التالية بين حرب ١٩٥٦ وحرب ١٩٦٧ هادئة نسبيا بالنسبة لحوادث الحدود بين اسرائيل والدول العربية، ولكن الموقف الأساسى ظل كما هو . أن رد الفعل التلقائى لاسرائيل استمر معتمدا على تصور أن كل حركة سياسية تمر بغير رد ، وكل مناورة بدون صد من جانب اسرائيل .. فان هذا يشكل خطرا ماحقا على مستقبل أمنها . بهذا الأسلوب تجمدت المشكلات السياسية فى المنطقة ، لان أى تغيير محتمل لم يكن يفسر من جانب اسرائيل الا من زاوية عسكرية بحتة..ويبدو أن خيال الاسرائيليين الخصب قد تكيف مع سنوات من المناوشات على الحدود بحيث لم يعد يتقبل سوى مفهوم واحد هو : ان المشكلة فى جوهرها مشكلة عسكرية وليست مشكلة سياسية ، وانه لا يمكن تسويتها الا عسكريا .

لقد كان هذا هو الأساس نفسه الذى قامت عليه حرب يونيو ١٩٦٧ انها لم تكن من نوع الحروب التى تنشب فجأة ، لان كل حركة للاحداث كانت تسير سيرا سريعا منذ أوائل سنة ١٩٦٦ — ان هذا لا يعنى دخول أى عنصر جديد على أساسيات المشكلة .. وانما يعنى أن الخطوط القائمة زادت عمقا ، وان النقاش احتدم واكتسب مرارة أكثر ، وأن الأمزجة انحرفت أكثر ، وأن المهاترات تبودلت أكثر .. فاذا بالاحداث تدور دورتها بين فعل ورد فعل ، حتى لم يعد هناك مجال للمناورة .

لقد دارت الأحداث فى مايو ١٩٦٧ دورتها المعروفة من طلب مصر سحب قوات الأمم المتحدة ، الى قيام اسرائيل ومصر بالتعبئة، الى اغلاق خليج العقبة ، الى الحرب . وبصرف النظر عن الأحداث نفسها ، فانه مما يثير الدهشة فى أزمة ١٩٦٧ هو أن القيادة المصرية لم تظهر كثيرا من الحكمة فى طريقة معالجتها للأمور . صحيح أنه كان من المحتمل أن يكون ميزان الشرعية فى جانب مصر . الا ان هناك علامات استفهام تكتنف الحكمة من متابعة تلك السياسة حتى لو قلنا أن القيادة المصرية كانت تمارس حقوقها . ان الدهشة من تصرف القيادة المصرية أبان الأزمة تزيد خصوصا لو افترضنا انها

كانت تعرف قوة اسرائيل ورد الفعل المحتمل من جانبها ازاء تسلسل الأحداث . وخلال فترة الاسبوعين السابقين على نشوب الحرب فى يونيو ١٩٦٧ ، فان تصرفات القيادة المصرية أظهرت من سوء التقدير أكثر مما أظهرت من عدم الشرعية .

ان الحروب تسفر عن تسويات غير طبيعية فى الشئون الدولية . وهى غالبا ما تشتعل عرضا او نتيجة لسوء التقدير أكثر مما تشتعل طبقا لخطة موضوعة . ومن ناحية أخرى ، فان الدول المتحاربة يكون لديها فى العادة فكرة ما عن السبب الذى من أجله تبدأ الحرب — فاما انها تريد أن تكتسب شيئا من وراء ذلك ، وأما أنها تريد أن تمنع الجانب الآخر من أن يحرز شيئا . وفى كلتــا الحــالتين فان النتيجة قد تكون شيئا مختلفا جدا عما كان متوقعا أصلا من أى من الجانبين .

وعلى ذلك .. فلابد أن يسأل المرء نفسه : ماذا كان الاسرائيليون يتوقعون أن يكسبوا من حرب ١٩٦٧ ، أو ماذا كانوا يعتقدون انهم يمنعون العرب من احرازه ؟ وهل كانت اسرائيل تعتقد أن ثمة هدفا نهائيا وراء ما يمكن كسبه ، واذا كان الأمر كذلك .. فما هو هذا الهدف ؟

ان اسرائيل تقول — من جانبها — انه لم يكن أمامها من بديل فى سنة ١٩٦٧ غير الحرب . اننى اعتقد أن هذا غير صحيح . وحتى نصل الى هذه النتيجة لا بد أن نحلل التهديدات الحقيقية وأسوأ النتائج المحتملة فى حالة عدم حدوث رد فعل فورى ازاء هــذه التهديدات على النحو الذى ردت به اسرائيل .

ان التهديدات التى تعرضت لهــا اسرائيــل فى ١٩٦٧ ذات أوجه ثلاثة : فأولا — هناك التهــديد العسكرى ، الناجم عن نيــة العرب المعلنــة مرارا وتكرارا عن غزو اسرائيل . وثانيا — هناك التهديد الاقتصادى . وهو الناشىء أيضا عن نية العرب المعلنة عن تدمير اسرائيل اقتصاديا أو شل اقتصادها . وثالثا — هناك التهديد السيكولوجى الذى اذا لم توقفه اسرائيل فان العرب قد يصدقون خطتهم المبالغ فيها .

تلك كانت التهديدات . فهل اشتدت فى عام ١٩٦٧ على نحو يستحيل معه تحاشى وقوع الحرب ؟

ان ازدياد خطر ما ، لا يجعل من حق أحد الاطراف المعنية بالضرورة أن يفترض أنه لم يعد متبقيا سوى اتخاذ خطوة وقائية مباشرة ضد احتمال تزايد الخطر لمدى ابعد . لقد كان هناك خطر متزايد من نشوب الحرب خلال المواجهة فى كوبا بين روسياوامريكا، وكان هناك خطر متزايد خلال أزمة برلين . واحيانا هناك خطر يتزايد بدرجة كبيرة من احتمال نشوب الحرب بين اليونان وتركيا حول قبرص ، ومواقف أخرى كثيرة تبدو الوسائل الدبلوماسية فيها وقد اقتربت من الفشل التام ، بأكثر مما كان عليه الموقف بين العرب واسرائيل عام ١٩٦٧ .

اننى أعتقد بصفة عامة .. ان قرار اسرائيل بدخول الحرب فى ١٩٦٧ لم يكن قائما على أساس ضخامة أو عدم ضخامة الخطر الذى تعرضت له فى تلك الفترة . اننى أعتقد أن القرار اعتمد على ثقة مطلقة من جانب اسرائيل بأنها ستخرج من الحرب بوضع افضل من ذلك الوضع الذى وجدت نفسها فيه فى مايو ١٩٦٧ . لقد اعتمد هذا على حساب معقول وموثوق به — بل وتأكد — من أنها ستنتصر فى الحرب .

اننا نعلم . .انه ما من حكومة مسئولة تدخل فى حرب ما لم تكن على ثقة معقولة من النصر ، أو ما لم تكن تواجه الموقفالبديل وهو الهزيمة الكاملة دون اطلاق رصاصة واحدة . وطبيعى ان تقول اسرائيل انها كانت تواجه هذا الاحتمال نفسه فى مايو ١٩٦٧ ولكن الاسرائيليين درجوا على عدم التزحزح عن الاعتقاد بأنهم فى وضع يبدو فيه بقاؤهم القومى معرضا لخطر أعظم مما هوبالفعل.. لقد سبب لهم ذلك موقفا يجدون فيه فى كل مرة ان لا بديل عن اثنين : أما الهزيمة التامة أو النصر التام ، وذلك حتى ولو كان الموقف أقل كثيرا مما يبدو .

لقد كانت المعادلة العسكرية بين اسرائيل وجيرانها ، تصورها دائما كدولة صغيرة مكونة من مليون ونصف مليون من البشر ..

تحيط بهم حلقة معادية تضم أربعين مليونا من العرب كلهم تصميم على تدميرها ، أى بنسبة ٢٠ ضد واحد ، لصالح العرب وضـــد اسرائيل . وقد يبدو هذا على الورق شيئا مثيرا للانفعال ، الا أن التقدير العسكرى للقوى النسبية للدول المختلفة لا يمكن أن يوضع على أساس عدد السكان أو حتى على أساس عـــدد الرجـــال المجندين فى القوات المسلحة فحسب .

ان جهاز الحرب فى صورته الشاملة ، أصعب كثيرا عند تقديره من مجرد الاعتماد على عدد السكان الاجمالى لدولة من الدول . ان تقدير مدى كفاءة الجهاز الحربى للدولة ينبغى أن يتضمن القـــدرة الصناعية للدولة . مثلما يتضمن معها القوات المسلحة ومقدرتها على اســـتخدام تلك المعـــدات ، وكذلك يعتمـــد على مـــدى كفاءة هيئة أركان الحرب فى شئون الادارة ، من حيث قدرتهـــا على الحفاظ على القوات المسلحة فى حالة من الانضباط وحســـن الاستعداد والتموين من أجل المعركة .

وعامل آخر لا يمكن تجاهله ، وهو طبيعة الأرض التى يحتمل ان تجرى عليها أية معركة ولعل أهم شىء أن يكون هناك هدف سياسى واضح لا غموض فيه أمام القوات المسلحة نفسها . فرغم التوسع فىفنون الحرب ، الا أن الجيش الذى يكون على درجة طيبة من التعليم والتثقيف يصبح ندا لخصوم أكثر عددا وقوة لو كانوا يفتقرون الى الحافز الضرورى .

وعلى الورق .. نجد انه على الرغم من عدد السكان ، فان آلة الحرب التى تملكها اسرائيل ليست بأى حال بنسبة ٢٠ الى واحد ضد اسرائيل ، اذا ما قورنت بما لدى العرب . ذلك ان اسرائيل تستطيع — فى مدى أيام قليلة بمـــا لديها من نظام احتياطى بالغ الدقة — ان تضع فى الميدان جيشا حديثا مدربا قوامه ٢٥٠ الف جنـــدى .

وفضلا عن انعدام اى قلة عددية ، فان اسرائيل كانت لديها ميزات جغرافية وتكتيكية أخرى . فقد كانت لديها خطوط المواصلات

الداخلية والقدرة على تحريك القوات بسرعة من جبهة الى أخرى ، والقيادة المركزية التى لا تتعرض ــ كما هو الحال بالنسبة للعرب ــ لحالة من التخبط والحيرة فى الطوارىء ، ازاء الأوامر المتعارضه والتصادم المحتمل فى التوجيهات السياسية من مختلف الحكومات المعنية . كما ان المصاعب الجغرافية التى تواجه شن هجوم برى شديد مدعم على اسرائيل هى مصاعب ضخمة ، لانه كان ينبغى على خطوط المواصلات المصرية أن تمتد وراء الجبهة عبر صحراء سيناء.

والى هنا .. فاننى لم أشر بعد الى قوة السلاح الجوى ، فالتفوق المطلق فى الجو كان دائما شيئا تحافظ اسرائيل عليه فى معاركها مع جيرانها العرب .

لقد حاولت حتى الآن .. أن أوضح أن فكرة تعرض اسرائيل فى أى وقت من الأوقات لخطر (القائها فى البحر) هى مجرد اسطورة، حتى بمنطق الأحداث السابقة على حرب ١٩٦٧ . ولو اتخذنا فى الاعتبار قدرة العرب على الادعاء الباطل ــ على الأقل فى دعاياتهم ــ فان من المهم مقاومة اغراء تقدير نواياهم المعلنة على علاتها . ان اسرائيل تستطيع أن تتمسك بوجود الرغبة الرمزية من جانب العرب فى ازالة اليهود فى فلسطين ، والعرب انفسهم يساعدون اسرائيل فى هذا الصدد عن طريق رفع الشعارات الدعائية التى يعلمون انهم عاجزون عن تحقيقها .. ولكن الفحص الدقيق للموقف يثبت أن اسرائيل لم تتعرض ابدا لخطر جاد على وجودها ، وان الطريق سوف يظل طويلا للوصول الى هزيمة اسرائيل وازالتها ماديا كدولة حديثة .

وفى هذا .. كانت الاستراتيجية المعلنة للمصريين ، هى أن ينازلوا اسرائيل عن طريق استثارتها لتخطو الخطوة الأولى وتضرب، فى الوقت الذى يكونون مستعدين فيه لتلقى الضربة : ثم يكرون هم وينزلون بها ضربة قاصمة ، وكما تبين فيما بعد .. فان عيب هذه السياسة هو أن القوات المسلحة المصرية على وجه الخصوص ، لم تكن فى وضع تستطيع معه تحمل الضربة الاسرائيلية ! لقد فشلت بشكل محزن فى (الاقلال الى الحد الادنى من آثارها). وكانت هذه الآثار مدمرة الى حد أنها لم تترك للعرب فرصة ثانية .

وعلى كل ، فان هذه السياسة التى اعلنها المصريون قبل حرب ١٩٦٧ كانت سليمة من الناحية النظرية .. بشرط أن تكون هناك النية ، ثم القدرة على تنفيذها .. ولكن يبدو أن المخـــابرات الاسرائيلية التى استطاعت أن تتغلغل تماما داخل دوائر الحكومات العربية ، قد تحققت من ان القوات المصرية لم تكن حقـــا على استعداد يكفى لتغطية السياسة المعلنة فى الصحف . ويحتمل أن هذه الدراية قد تسلطت على القيادة الاسرائيلية ورجحت قـــرار الضرب ، على المخاطرة بتحمل هزيمة نفسية تسمح بتطور الموقف اكثر اذا افسح له المجال .

الى هنا ، فاننى حاولت ان أوضح أن الخطر العسكرى الفعلى على اسرائيل لم يكن وشيكا فى ١٩٦٧ ، سواء من ناحية تدمير اسرائيل أو من ناحية وقوع هجوم جوى على مدنها . لقـــد كانت اسرائيل قادرة على تخطى الفخ فى ١٩٦٧ ، لأن المصريين لم يكونوا مستعدين لنصبه ، لذلك .. فاننى أعتقد أن العامل الحاسم وراء قرار اسرائيل بدخول الحرب كان بغير شك عاملا نفسيا . أما أية اعتبارات أخرى تدعيها اسرائيل كأسباب للحرب .. فانها لم تكن تشكل اية خطورة فى الموقف .

لقد جلبت الحرب الاسرائيلية مكاسب أقليمية عظيمة . ولقـــد بينت اسرائيل فى نهاية الأمر أن لديها القوة الكافية لشل العداوة العربية المحيطة بهـــا . وانا أعتقد ــ لذلك ــ أنه من غير الممكن ــ وخصوصا بعد انتصار ١٩٦٧ ــ أن توافق اسرائيل على أى تسوية فى المنطقة تتضمن حلا وسطا لارضاء العرب. أن العرب والاسرائيليين يفكرون بمنهجين مختلفين تماما ، ولكن العرب لا يستطيعون شيئا، فقوة اسرائيل يصعب تحديها . وما دامت اسرائيل ستحتفظ بقدرتها على الرد ــ وهو أمر سوف تضمنه لها دائما الولايات المتحـــدة الأمريكية ــ وثانيا باحتفاظها بالحدود الحالية .. فانها لن تقدم أية تنازلات أساسية لحل المشكلة سياسيا .

اننى اعتقد ان الاحتمال الوحيـــد لتسوية عادلة للمشكلة بين العرب واسرائيل ، يوجد فى الفرصة التى توافرت باستيلاء اسرائيل على الضفة الغربية لنهر الأردن . فلأول مرة منذ عام ١٩٤٨ أصبحت فلسطين كيانا واحدا من جديد . وأنا شخصيا أرحب بفشل اية

تسوية قد تفصل مرة أخرى جزئى فلسطين ، لأننى لا أظن أن هذه التسوية ستدوم . ولذلك فاننى آمل الا تتم الموافقة على أية اتفاقية تركز فقط على مسألة ضمان أمن اسرائيل العسكرى أو الاعتراف بها من جانب الدول العربية . والفرصة المتاحة مرة أخرى هى أن نعالج مستقبل فلسطين كاملا ، لأننا من قبل كنـــا نقبل التقسيم المصطنع بين الأردن من ناحية ، واسرائيل من ناحية أخرى ، الأمر الذى جعل للمشكلة اتجاهين لا يمكن التوفيق بينهما .

والواضح أن الحل المثـــالى .. هو اقـــامة دولة ذات جنسية مزدوجة فى اسرائيل حيث تحتفظ الجماعة اليهودية بديناميكيتهـــا دون أن يطغى عليها العرب ولا حتى الأغلبية العربية . وحيث يمكن اعادة توطين اللاجئين ومعالجة المشكلات الاقتصادية للمنطقةبمافيها مشكلة مصادر المياه كمشكلة واحدة فى مجموعها .

ويبدو أن ليس هنـــاك من الأسباب ما يحمل على الاعتقـــاد بأن العناصر المؤثرة فى اسرائيل ستنتهى اذا أصبح هذا البلد جزءا من دولة فى الشرق الأوسط ، أو دولة ذات جنسية ثنائية أو حتى دولة عربية تضم أقلية يهودية . فبعد فترة جيل او جيلين ، فان التطورات العنصرية تنبىء بـــأن اليهود الشرقيين والعرب معـــا سيفوقون اليهود القادمين من أوروبا عددا .

وأنا لا أرى فى الأفق القريب صـــورة اتفاقية ذات قيمة يمكن بواسطتها منع حدوث أزمة أخرى . كل ما استطيعه هو أن آمل الا تكون هناك أزمة أخرى .. ويبدو أن احتمال بقاء التوتر طوال الحقبة القادمة ، هو الثمن الباهظ الذى يتم دفعه لاحتمال أن يجد العرب فى نهاية الحقبة أن اسرائيل قد تخلت عن طابعها الصهيونى باستيعابها الاجبارى لمثل هذا العدد الكبير من السكان العرب .

جولدا مائير

تأليف: ماري سيركين



هــذا الكتــاب ..
وهــذه المؤلفــة

.. حتى لو كان التاريخ يعيد نفسه فعلا ، فلا يمكن أن يتم ذلك الى هذه الدرجة . ان هذا الكتاب يشرح بالتفصيل فى أحد فصوله، قصة المفاوضات السرية بين جولدامائير والملك عبد الله ، والتى اجراها الملك الأردنى من خلف ظهر الدول العربية لتحقيق أطماعه الخاصة على حساب العمل العربى المشترك . ومن المثير للسخرية فى هذا الكتاب .. أن بريطانيا هى التى ضغطت على ملك الأردن لكيلا يستمر فى مشروعه المشترك مع الصهيونيين،لأنها ــ باعتبارها حامية له ــ لا تريد أن « تحرقه » أمام العرب . وبعد ٢٤ عامــا تكررت الأحداث نفسها ، بين حفيــد الملك عبد الله هــذه المرة (حسين) ونائب جولدا مائير (ايجال آلون) .

ان هذا الكتاب له اهمية كبرى من هذه الزاوية . وله ايضــا اهمية اضافية من حيث أنه يكشف عن أسلوب تفكير وعمل وتطور واحدة من زعامات الصهونية الحالية فى اسرائيل . وأخيرا .. فان الكتاب يشرح لنا كيف تقــدم اسرائيل زعاماتها الى الرأى العام الأمريكى .. بمنطق أمريكى .

ومؤلفة هذا الكتاب ، هى (مارى سيركين) يهودية صهيونية ، تحمل جنسية مزدوجة : أمريكية واسرائيلية . انها صديقة وزميلة قديمة لجولدا مائير ، وكانت هى المسئولة عن تشغيل أول محطة اذاعة سرية متنقلة اقامتهــا المنظمة الصهيونية فى فلسطين قبيل حرب ١٩٤٨ بفترة وجيزة ، حيث تولت الاشراف على الارســال

باللغة الانجلزية . وقد صدر الكتاب بعنوان « جولدا مائير » واعيد طبعه فى امريكا اكثر من مرة .

***

كانت الحرب على الأبواب !

أنها الحرب .. التى ستقرر ما اذا كان ممكنا قيام دولة يهودية فى فلسطين أم لا . وهى الحرب التى أصبح من المحتم أن تنشب بمجرد أن ينتهى انتداب بريطانيا على فلسطين رسميا فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ .

وفى هذه الظروف .. اتفق الزعماء الصهيونيون فى فلسطين على قرار واحد : اجراء مفاوضات مع الملك عبد الله ملك الأردن .. لفتح ثغرة فى التحالف العربي المنتظر . قرار ثان : أن مهمة المفاوضات الجديدة — والسرية جدا — ستقوم بها جولدا مائير ، رئيسة الادارة السياسية فى اتحاد العمال اليهود بفلسطين ، وهو الجهاز الرئيسى للمنظمة الصهيونية فى فلسطين .

كان السبيل الوحيد ، الذى لا يزال يتعين على اليهود اكتشافه ، هو ما اذا كان بالامكان اقناع « عبد الله » ملك الأردن بعدم الانضمام للمغيرين . وقد كانت هناك معاملات ودية بين الملك عبد الله واليهود فى مناسبات سابقة .. وقد أعرب الملك علنا عن تأييده لجهود اليهود العمرانية فى فلسطين مرات عديدة ، كما أنه دعا الى التوصل الى تسوية بين العرب واليهود بالوسائل السلمية .

وحينما بدا فى شهر نوفمبر عام ١٩٤٧ أن الأمم المتحدة على وشك الموافقة على قرار التقسيم ، عقدت « جولدا مائير » اجتماعا سريا مع الملك عبد الله فى منزل « بنحاس روتنبرج » الواقع على مقربة من محطة الكهرباء فى « نحاريم » بالأردن ، وكانت المحادثات بينهما ودية . لقد أكد عبد الله انه لن يشترك فى اى هجوم يشنه العرب على اليهود . واوضح أنه اذا وافقت الأمم المتحدة على قرار تقسيم فلسطين ، فانه سيضم الجزء العربى الى مملكته ، ووعد بتبادل مشاعر الصداقة مع اليهود .. وتحدث باستهانة عن

قوة الدول العربية المجاورة ، وذكر أن مفتى فلسطين هو العدو المشترك .. وأكد لجولدا مائير أنه سيقبل قرار التقسيم بكل سرور. وانتهت المقابلة باتفاقهما على عقد اجتماع ثان بعد أن توافق الأمم المتحدة على قرار تقسيم فلسطين .

وعلى الرغم من هذه التأكيدات .. فقد كانت هناك نقطتان أثارتا قلق « جولدا » .. لقد سألها الملك عبد الله عن موقف اليهود من اقتراح يقضى بأن تتضمن مملكته دولة يهودية ، وعندما تلقى على الفور ردا سلبيا أسقط الموضوع ، ثم أعرب بعد ذلك عن أمله فى الا تكون الدول العربية من الصغر بحيث تسبب له الاحراج .

ولم يتم اجتماع ثان بين الزعيمين — كما كان مقررا — نظرا لاضطراب الأحوال ، ولكن الاتصال ظل قائما مع الملك عبد الله . لقد تم تبادل المعلومات بينهما حول مدينة القدس التى عارض الجانبان فكرة تدويلها . وحينما انتشرت الشائعات بأن عبد الله على وشك الانضمام للدول العربية ، بعثت اليه جولدا مائير برسالة تسأله فيها عما اذا كان اتفاقهما لا يزال سارى المفعول أم لا؟ ونقل رسول من الملك عبد الله ردا مطمئنا الى « جولدا » لقد طلب منها عبد الله أن تتذكر ثلاثة أشياء :

١ — انه رجل بدوى يحافظ على كلمته .

٢ — انه ملك .

٣ — أن الوعد الذى يقدمه لامرأة لا يمكن انتهاكه .

وعلى الرغم من هذا الثالوث الرومانسى ، فسرعان ما حنث البدوى بوعده .. وانضم عبد الله للدول العربية . وعلى الرغم من انه لم يعد باقيا سوى بصيص ضئيل من الأمل ، فقد تقرر أن تحاول جولدا مائير اجراء مقابلة ثانية مع الملك .

وقبل ان تقوم « جولدا مائير » بمحاولتها الثانية للاتصال بالملك عبد الله بفترة قصيرة ، وصل مندوب منه للبحث فيما اذا كان اليهود على استعداد للتنازل له عن جزء من المنطقة ، التى

اصبحت تابعة لهم وفقا لقرار التقسيم الذى أصدرته الأمم المتحدة، لقد استند الملك الى أن مثل هــذا التنازل سيزيد من هيبته فى العالم العربى ، لأنه سيحصل على مناطق أكثر من تلك التى خصصتها الأمم المتحدة للعرب أساسا . ووقتها قيل للرسول أن هذا الاقتراح غير مقبول ، ولن يتخلى اليهود عن أى منطقة من دولتهم . وقيل له أيضا : أن الحدود التى قررتهــا الأمم المتحــدة لن تصبح سارية المفعول الا اذا استتب السلام ، ولسوف يقــاتل اليهود فى حالة وقوع حرب للحصول على اى منطقة تصل اليهــا أيديهم .

وعلى الرغم من هــذا الحديث المتبــادل .. الذى لا يبعث على التفاؤل ، فقد ساد الاعتقاد بأنه من الأفضل بذل محاولة اخيرة للحيلولة دون نشــوب عداوات مع الأردن .

وهكذا عقــد الاجتمــاع الثــانى بين « جولدا مائير » والملك عبد الله فى الأسبوع الأول من شهر مايو عام ١٩٤٨ .

لقد رفض عبد الله فى هذه المرة .. أن يذهب الى « نحاريم » فقد كان هناك خطر من ان يذهب الى الحدود اليهودية ، اذ كان من الخطورة البالغة بالنسبة له أن يقترب من الحدود اليهودية ، لأن أنبــاء الاجتماع الســابق تسربت ، لهــذا كان لابد من اتخاذ اجراءات أمن غير عــادية .

واقترح الملك أن ترتدى « جــولدا » ثيــاب امرأة عربيــة ، وتذهب الى عمان . وهكذا طارت « جولدا » من القــدس الى تل أبيب لعقد اجتماع مع بن جوريون تقرر خلاله الاتصــال بالملك عبد الله .. ولم يكن يعرف بخبر هذا الاتصال سوى ثلاثة أشخاص فى البلاد . واستقر الرأى على أن يصحب « جولدا » رفيق واحد ، هو « عزرا دائين » ، المستشرق اليهودى الــذى ولــد فى يافا .. والخبير فى الشئون العربية .. لكى يقوم بدور المترجم لهــا .

لقد تم الاتفــاق على الاجتمــاع مع عبد الله يوم ١٠ مايو ، وغادرت « جولدا » و « دائين » تل أبيب قاصدين حيفا ، حيث

حصلت جولدا على ثياب امرأة عربيـــة وخمـــار وغير ذلك من المستلزمات .. وتدربت على التحرك بصورة مقنعة فى هذه الثياب العربية الفضفاضة ، واتجها من حيفا الى نحاريم ، ولم تكن جولدا قد ارتدت الثياب العربية بعد ، وغيرا السيارة التى كانا يستقلانها عدة مرات حتى يظل مقدمهما فى طى الكتمان .. !

وكان الملك قد أرسل سيارة الى « نحاريم » لنقل المبعـــوثين اليهوديين الى عمان . وحينما حل المساء .. ارتدت جولدا ثيابها العربية وخمـــارها وبدأت الرحلة الى عمان . وكانت المجموعة المســـافرة تأمل فى تجنب الفيلق العربى (الجيش الاردنى) الذى كان حراســـه مرابطين على الحـــدود بالفعل . ولكن اذا حدث واوقفهم الحراس فان «دانين» — مرافق جولدا — لم يكن ليجد صعوبة فى المرور لامكانه التصرف كرجل عربى ، نظرا لتحكمه فى اللغة العربية .. ولمعرفته الوثيقة بعادات العرب .. ومع هذا فقد كانت « جولدا » أطول وأثقل وزنا من المرأة العربية العادية .

وعلى الرغم من أنه كان بوسعهما الانكماش فى مكانهمـــا فى خضوع وهدوء أثناء الظلام .. الا أنه كان يتعين — اذا ما أوقفهما الحراس — أن يحرصا على عدم توجيه أية أسئلة اليهما ، كما أنهما وضعا ثقتهما فى تقاليد العرب التى كانت تحـــرم لمس امرأة عـــربية .

وفى اثناء الرحلة التى استغرقت عدة ســـاعات .. توقفت السيارة عشر مرات للتحقق من شخصية ركابها بدون أن تقع أية حادثة . ولم يذهب الســـائق بجولدا الى « قصر الملك » ولـــكنه اوصلها الى منزل احد اصدقاء عبد الله الأغنياء الذى كان يثق فيه تماما . ووصل الملك قبل مضى وقت طويل . وبدا عليه الود .. ولكنه كان مكتئبا وعصبيا .

لقد اعادت جولدا على اســـماع الملك خـــلال الســـاعة التى استغرقها الاجتماع ، الوعد الذى قطعه على نفسه فىشهر نوفمبر . ولم يبذل الملك عبد الله أية محاولة لانكار تعهده ، ولكنه أضاف أن

الموقف قد تغير . وقال انه كان يعتقد حينذاك أنه حر التصرف .. ولكن الظروف لم تسمح له بمثل هذه الحرية .

كانت لهجة الملك تدل على أنه يشير الى التوجيهات البريطانية . ومع هذا كان الأمل لا يزال يراوده ، بأنه يمكن تجنب الحرب رغم تأخر الوقت .. بشرط الا يعلن اليهود انشاءدولتهم، وان تتوقف الهجرة الى فلسطين لعدة سنوات قادمة . واوضح الملك .. أنه سوف يستولى على فلسطين بدون تقسيم ، ويضمها الى الاردن بعد عام واحد بحيث يسمح للطائفة اليهودية أن يكون لها ممثلون فى برلمان بلاده .

ووعد الملك بأن يعامل اليهود معاملة طيبة ، تتمشى مع آرائه الليبرالية ، وانهى حديثه بالتصريح بأنه يرغب بحق فى اقرار السلام ويأسف للدمار الحتمى الذى ستتعرض له منجزات اليهود العظيمة فى مجال الزراعة والصناعة اذا ما اندلع لهيب الحرب ، واعرب عن فهمه للسبب الذى يحدوهم للعجلة فى انشاء دولتهم .

وأجابته « جولدا » بدماثة .. بأنه من العسير وصف شعب ظل ينتظر مدة الفى عام بالعجلة . وربما كان اليهود فى غاية الصبر . وأشارت « جولدا » الى أن علاقات اليهود بجلالته كانت ودية دائما ، وانها تدعمت بمعارضتهما للمفتى .. عدوهما المشترك . وقالت جولدا ان اليهود حققوا انتصارات خلال الخمسة اشهر الماضية ، بينما قوة المفتى فى اضمحلال ، كما أن اليهود صدوا المغيرين على أعقابهم . وصرحت « جولدا » بأنه من الممكن التوصل الى تفاهم اذا ما تمسك عبد الله باقتراحه الأصلى .. الذى يقضى بضم المنطقة المخصصة للعرب ، حيث أصبح اليهود اكثر قوة من بضعة أشهر ولن يترددوا فى القتال اذا فرضت عليهم الحرب فى أى مكان وبأقصى قدراتهم .

وأجاب الملك عبد الله على هذا القول بانه يدرك أن اليهود سيضطرون الى رد أى هجوم يتعرضون له ، ولاشك فى انه يريد حقا وباخلاص تنفيذ اقتراحه الاصلى ، ولكن عدة أشياء حدثت منذ

ذلك الحين ، فقد الهبت حادثة « دير ياسين » مشـــاعر العرب ، وبالاضافة الى ذلك .. « فانني كنت بمفردي حينذاك . ولـــكنى الآن واحد من خمسة . ليس أمامى خيار آخر ولا يمكن أن أتصرف على نحو مختلف » .

وتوسل الملك الى « جولدا » مرة ثانية .. بأن تدعو حكومتهاالى اعادة النظر فى الأمر . وأعلن انه اذا وصله رد مقبول فى ١٥ مايو فانه ســـوف يجرى مشاورات مع المعتدلين العرب للمحافظة على الســـلام .

وعندما طالبته « جولدا » و « دائين » ببراعة .. أن يتذكر أن اليهود هم أصدقاؤه الوحيدون ، أومأ برأسه وأجاب قائلا : « اننى أعلم ذلك جيدا ، وليس لدى شك فى معرفتى بكم وفى ايمـــانى بنواياكم الطيبة ، وأعتقد بكل جوارحى أن الله أعادكم .. أنا أعلم كل هذا وأؤمن به باخلاص ، ولكن الظروف صعبة ولا يجرؤ المرء على اتخاذ خطوات متهورة . ولذلك أناشـــدكم مرة أخـــرى التزام الصـــبر » .

وأجابت « جولدا » على حديثه هذا بقولها : « ليست لدينا أية رغبة فى تضليل جلالتك .. ونحن نرغب فى أن نوضح لك تماما أنه لا يمكننا حتى مجرد دراسة اقتراحك . ولن يؤيد هذه الخطة أى من مؤسساتنا أو حتى عشرة من اليهود الذين يتمتعون بأى نفوذ، وبوسعنا أن نرد عليك فى الحال .. بأن جلالتك اذا أدرت ظهرك لاتفاقنا الأصلى وأردت الحرب بديلا .. فستكون هناك حرب.وعلى الرغم من الصعوبات التى تعترض طريقنا ، الا أننا نؤمن بانتصارنا وربما تقابلنا ثانية بعد الحرب ، حينما تكون هناك دولة يهودية » .

وتحول عبد الله الي « دائين » مرافق « جولدا » .. وتحدث معه بلهجة أبوية ، وطلب منه ــ بوصفهمستشرقا ــ أن يؤيدموقفه، وقدم اليه « دائين » أيضا بعض النصح ، وذكر عبد الله بأنه ليس لديه أصدقاء حقيقيون فى العالم العربى ، وبأنه يعتمد على دبابات الفيلق العربى مثلما كان الفرنسيون يعتمدون على خـــط ماجينو، ولكن اليهود سيحطمون هذه الدبابات .

وقد جرؤ « دائين » على أن يقترح على الملك بأنه ربمـــا يكون الوقت قد حان لانهاء العادة القـــديمة الجميلة التى تقضى بالسماح لرعاياه بتقبيل يده أو أطراف ثيابه ، وذلك لأن سكان المدن يختلفون عن رجال القبائل من البدو ، ويجب على الملك أن يكون أكثر يقظة فيما يختص بحماية نفسه من الاغتيال .

وانتهت المقابلة والملك لا يكف عن الاعراب عن أسفه للدمـــاء التى ستراق ، وقد تركت المقابلة انطباعـــا لدى « جـــولدا » و « دائين » بأن عبد الله لم يكن سعيدا أو يشعر بالثقة ، وبأنه لم يكن يريد القتال ، ولكنه كان متورطا للغاية فى روابط مع العرب والبريطانيين بحيث أصبح من العسير عليه تخليص نفسه .

وبعد أن غادر الملك المنزل أعد الصـــديق العربى الغـــداء ، وصحبت زوجته « جولدا » لمشاهدة مكتبتها . ثم آن الأوان لبدء رحلة العودة المحفوفة بالاخطـــار .

وفى طريق عودتهما كان بمقدورهما رؤية معسكر « المفرق » حيث كانت القوات العراقية محتشدة فيه بالفعل . وقد أثارت كثرة عدد نقط المراقبة ، التى كان عليهما اجتيازها ، خوف السائق العربى الذى قرر أنه من الخطورة بمكان .. قيادة العربة الى « نحاريم » ، وقد ترك ركابه فى التلال على مبعدة ميلين من الحدود . وكانت الساعة الثالثة صباحا ، كان الوصول الى « نحاريم » يستغرق نصف ساعة بشرط ألا يضلا طريقهما ولم تكن « جولدا » و « دائين » مسلحين، بل ان جولدا اعترفت بعد ذلك بأن الخوف قد ساورها ، ولم يكن هناك أمل يرجى فى بقائهما على قيد الحياة اذا اعترض الحراس طريقهما ، ذلك لأنه ليس من عادة السيدات العربيات الفاضـــلات السير الهوينا عبر التلال فى منتصف الليل ! ومن حسن الحظ .. أن قابلهما أحد جنود « الهاجاناه » من نحاريم كان يبحث عنهما . وكان الظلام دامسا بحيث تعذر على جولدا التعرف عليه ، ولكنه زارها بعد ذلك بعام وقدم لها نفسه على اعتبار أنه الرجل الذى قادهما عبر التـــلال .

* * *

ان جولدا مائير ، التى قامت بهذا الـدور الاسـاسى ، قبل سـنوات طويلة من وصولها الى منصب رئيسة وزراء اسرائيل ـ كانت تقوم فى الواقع بمهمة سرية لا يعرفها الامريكيون حتى الان.

ولا يمكن للامريكيين أن يتخلوا عن اهتمامهم الشديد بمسز مائير كواحدة منهم ، اذ أنها تمثل فى نظرهم لونا جـددا وجذابـا من قصص النجاح الامريكية . فقد نشـأت مسز مائير فى ولاية « ميلووكى » ، وعملت كأمينة مكتبة ومدرسة . وللروس أيضـا ذكرياتهم ، اذ تمكنت هذه المراة .. التى تكره وضع الأصباغ على وجهها أو طلاء شفتيها كأى امراة سوفيتية من الطراز القديم وهى تمشط شعرها من منتصف رأسها وتلفه خلف عنقها ـ تمكنت من اثارة اهتمامهم عام ١٩٤٨ حينما ذهبت الى موسكو كأول وزيـر مفوض لاسرائيل فى الاتحاد السوفيتى .

ان « جولدامائير » هى الوحيدة بين الزعماءالاسرائيليين البارزين من جيل الرواد التى جاءت من أمريكا ، بينما هى ولدت أصلا فى مدينة «كييف» السوفييتية الواقعة جنوب غرب روسيا فى ٣ مايو سنة ١٨٩٨ . وكان معظم يهود روسيا يعيشون داخل نطاق«مناطق الاستيطان » ، وهى الاحياء الروسية التى كان مسموحا لليهـود بالعيش فيها فى عهد القياصرة . لقد كان أبوها ـ واسمه«موشى مابوفيتش » يعمل نجارا وصانعا للأثاث الفاخر ، ولم يبق على قيد الحياة من أبنائه الثمانية سوى ثلاثة هم : « شـانا » كبراهم ، و « جولدا » وشقيقة تصغرهما تدعى « زيبورا » .

وقد ترك « موشى » روسيا بمفرده فى عام ١٩٠٣ ، وهو يزمع أن يرسل لزوجته وأطفاله ـ حينما يستتب له الامر ـ كى يلحقوا به . وقد حدث هذا أخيرا فى سنة ١٩٠٦ ، حينما وصلت من الأب التذاكر اللازمة لكى يلحقوا به فى الولايات المتحدة ، التى قرر أخيرا أن يستقر فيها ، بعد أن ترك « نيويـورك » واستقر فى مـدينة « ميلووكى » الامريكية .

وعندما انتهت « جولدا » من دراستها الابتدائيـة ، وارادت الالتحاق بالمدرسة الثانوية لكى تعمل مدرسة بعد ذلك ، رفضت

أمها .. فقررت « جولدا » الهرب . وفعلا هربت سرا وسافـرت لتقيم مع أختها « شانا » التى تقيم مع زوجها فى مدينـة « دنفر » الامريكية .. حيث التحقت هناك بالمدرسة الثانوية . وبعد هربها بمدة بسيطة ، وصلها خطاب من صديقة لها قالت فيه « انـك تسأليننى عن رأى من يعرفونك فى ميلووكى فى حادثة هـربك . والحقيقة التى لا أريد بها أن تؤذى مشاعرك هى أن الجميع يعتقدون انك فررت مع شاب ايطالى » .

وحينما أوشك العام الأول « لجولدا » فى (دنفر) على الانتهاء ، كانت جولدا قد ضاقت ذرعا بسبب قيام شقيقتها بفرض وصايتها عليها . وفى احدى الامسيات ، وبعد شجار حاد بين الشقيقتين، قالت جولدا « حسنا سوف أغادر المنـزل » .. وانصرفت حيث استأجرت غرفة مع احدى العائلات اليهودية فى دنفر ، بينما تركت الدراسة لتعمل . وأخيرا عادت الى « ميلـووكى » لاستئنـاف دراستها هناك بعد أن تأجلت لفترة طويلة ، بحيث تخرجت بعد عامين فى المدرسة الثانوية والتحقت بدار المعلمين الابتدائية .

وحتى ذلك الحين .. لم تكن فكرة الصهيونية قد شدت انتباه جولدا ، بالفعل . ولكنها بعد قليل بدأت تشترك فى الحمـلة التى بدأت لاثارة يهود أمريكا وحملهم على التبرع بأموال كثيرة لليهـود الذين سلبوا ما يمتلكون فى الدول الواقعة فيما وراء البحار .

وفى سنة ١٩١٥ انضمت جولدا رسميا الى « بوعالى صهيون » أى عمال صهيون .. ذلك الحزب الصغير الواسع النفوذ الذى يضم فى معظمه العمال الصهيونيين الذين يتحدثون باللغة « البديشية » ومن بين سماتها المميزة .. أنها لم تنضم تنظيميا الى هذا الحزب الا بعد أن التزمت بعضويته بصفة شخصية . وقد اختارت الانضمام الى العمال الصهيونيين بدلا من الانضمام الى منظمة « ماداسا ٦ » التى انشـأتها سيدة أمريكية أكبر منها سـنا تدعى « هنريبيتـا زولد » لأن برنامج حزب عمال صهيـون كان يدعو الى انشـاء كومنولث هادف فى فلسطين .

وفى هذا الوقت .. وصلها خطاب من « موريس بايرسون » وهو أحد المهاجرين الروس الشبان ، الذى تعرفت به جولدا فى دنفر واحبته هناك . ان انضمام جولدا الى حزب عمال صهيون أدى الى تعقيد حياتها الشخصية فى هذا المجال ، نظرا لأن موريس الذى ارتبطت به لم يكن صهيونيا . وقد أوضح لها ذلك فى الخطاب الذى ارسله اليها من « دنفر » حينما كتب يقول « لست أعرف ما اذا كنت سعيدا حقا او انى أشعر بالاسى لانضمامك للحزب الصهيونى . ولأنك تبدين وطنية متحمسة . .ان فكرة خلق دولة يهودية فى فلسطين أو فى منطقة أخرى تبدو سخيفة فى نظرى . وقد وصلتنى منذبضعة أيام دعوةلحضور أحد الاجتماعات المخصصة لهذا الغرض ، ولكنى لم أحضر لأنى لا أبالى بوجه خاص بما اذا كان اليهود سيتعرضون للمتاعب فى روسيا أو فى الأرض المقدسة ».

وحينما تبعها موريس بعد قليل الى ميلووكى ، اوضحت له جولدا انها لن تتزوجه الا اذا صحبها الى فلسطين . لقد قررت جولدا الذهاب الى فلسطين لكى تصبح عضوا فى الكيبوتز — أو المستعمرة التعاونية — التى كانت تقوم باستصلاح مستنقعات « عيمك » أو وادى « أزور الدن » . وكانت قد اتخذت هذا القرار قبل صدور وعد بلفور بعامين . وفى وقت كانت فكرة انشاء وطن يهودى فى منطقة فلسطين القاحلة التى كان الأتراك يسيطرون عليها ، تبدو خيالية تماما .

وكانت المناقشة تدور وقتئذ حول ما اذا كان يتعين أن يتعلم اليهود اللغة « العبرية » أو اللغة « البديشية » . لقد استقر الرأى فى فلسطين منذ البداية على اللغة العبرية ، ومع هذا .. كان الصهيونيون العمال ينادون فى الولايات المتحدة بتعلم اللغةالبديشية على أساس أنها اللغة الفعلية للطبقة اليهودية العاملة . وعليه ، فانها أفضل من اللغة المقدسة الميتة ، وهكذا ظلت لغة « جولدا » البديشية أكثر غزارة وطواعية فى الاستخدام من اللغة العبرية التى تعلمتها بعد آن فى فلسطين .

وفى هذا الوقت .. قابلت « جولدا » الرجل الذى كان من المفروض أن يمارس تأثيرا عميقا فى تطورها السياسى ، والذى سوف

تعمل معه كشريك وثيق الصلة فى الكفاح المشترك . وقد وصل « بن جوريون » الذى كان يبلغ من العمر ثلاثين عاما حينذاك الى أمريكا فى عام ١٩١٥ برفقة صديقه « اسحق بن زفى » بعد أن أبعدتهما الحكومة التركية عن فلسطين بتهمة تدبير مؤامرة صهيونية . ولم يحظ بن جوريون بقدر كبير من الاهتمام خلال رحلته الأولى لأمريكا .بل انه حتى حركة الصهيونيين الامريكيين وجدت فى هذا اليهودى القادم من فلسطين ، وفى آرائه المتطرفة التى تنادى « بالعودة الى الوطن » سخفا غريبا وغير مهذب . وكان تلاميذه الوحيدون هم أعضاء حزب عمال صهيون الذين ينتمون فى معظمهم الى الطبقة العاملة .

وفى هذه الفترة .. تركت « جولدا » دار المعلمين الابتدائية بملووكى وعملت كأمينة مكتبة وبدأت تكرس وقتها كله ، خارج عملها ، للحركة الصهيونية العمالية ، وكان المرتب الذى تحصل عليه من الحزب أقل كثيرا حتى من المرتب المتواضع لمدرسة ولأمينة مكتبة . ولكنها تمكنت من أن تدبر شئون معيشتها بالخمسة عشر دولارا التى كانت تحصل عليها اسبوعيا من الحزب.

وكانت هناك مشكلة أخرى يتعين على جولدا حسمها فى الوقت نفسه تقريبا ، فاذا كان «موريس» لا يزال مصرا على رفضه الذهاب الى فلسطين بعد الحرب،فلابد من قطع علاقتهما . وعلى الرغم من عدم اقتناع « موريس » .. الا أنه استسلم لرغبة جولدا ، ووافق على السفر الى فلسطين . ولم يكن هناك أى مبرر آخر للتسويف فى عقد الزواج الذى طالما الح لاتمامه . وتزوج الاثنان فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٩١٧ .

وقبل هذا التاريخ بأسابيع قليلة .. كان قد صدر وعد بلفور . وقد أدى صدور وعد بلفور فى سنة ١٩١٧ الى تحويل الصهيونية من مجرد حلم غامض الى واقع سياسى . وكانت بريطانيا العظمى قد وافقت فى النهاية ــ قبل صدور الوعد بعدة اشهر ــ على تشكيل وحدة عسكرية يهودية خاصة ــ هى الفيلق اليهودى ــ للقتال من أجل تحرير فلسطين مع الكتائب الملكية البريطانية . وبعد دخول أمريكا الحرب سمحت الحكومة الامريكية بالتجنيد فى

الفيلق اليهودى ، الذى نطوع فيه عدد كبير من الصهيونيين العماليين . وعندما شارفت الحرب على الانتهاء ، قررت جولدا تكريس نفسها كلية لمعالجة مشكلة دخول فلسطين . وهكذا ابحرت هى وأختها الى فلسطين فى ٢٣ مايو سنة ١٩٢١ — بالباخرة حتى الاسكندرية ، وبالقطار من الاسكندرية حتى تل أبيب .

* * *

فى السنوات الأولى لجولدا فى فلسطين .. كان لابد عليها أن تعمل وفقا للبرنامج الكامل للصهيونى العمالى ، وهو برنامج يتطلب انجازه الانضمام الى عضوية مستعمرة تعاونية زراعية، وبمعنى آخر الى عضوية الكيبوتز ، وكان الصندوق القومى اليهودى قد قام فى ١٩٢١ بشراء أجزاء كبيرة من الأرض فى وادى عزريل المعروف باسم « عيميك » ، وكان الاقليم مليئا بالمستنقعات وتنتشر فيه حمى الملاريا وهى البول الاسود ، وكان يتعين تجفيف هذه الأراضى . وهكذا اختارت جولدا أن تقيم فى كيبوتز « بيرحافيا »

وحينما وصلت جولدا الى بيرحافيا مع زوجها موريس ، كانت واحدة من ثمانى نساء بين أفراد الكيبوتز البالغ عددهم اثنين وعشرين رجلا . وسرعان ما برزت جولدا فى الكيبوتز . وفى غضون ستة اشهر . أرسلت لتتلقى دراسة خاصة فى علم تربية الدجاج . وبعد عودتها أصبح البيض الذى تضعه الدواجن تحت اشراف جولدا مخصصا للبيع ، واستثمار ثمنه فى تحسين حال الكيبوتز .

فى خلال سنة ، أصبحت « جولدا » مندوبة الكيبوتز فى مجلس الهستدروت الذى شكل حديثا ، وهو نقابة العمال اليهود فى فلسطين . ولم يكن الهستدروت — الاتحاد العام للعمال اليهود فى فلسطين — نقابة عمالية عادية تهتم أساسا بالأحوال المعيشية لأعضائها . وقبل اقامة الدولة فى فلسطين ، كان الهستدروت بمثابة كومنولث عمالى . ومنذ البداية .. والهستدروت يعتبر نفسه وكالة عملية للتوطين تنحصر مهمته فى جذب المهاجرين الطلائعيين ومساعدتهم على استيطان فلسطين . ولم يكن هناك اى غرض ضرورى لتنمية البلاد يخرج عن اختصاصه . وحينما كان أصحاب المشروعات الخاصة يخشون من الاقدام على تنفيذ مشروعات تنطوى على مخاطرة أو تعتبر غير مثمرة ، كان الهستدروت يقدم

راس المال اللازم واليد العاملة المطلوبة من خلال مؤسساته الائتمانية وشركات البناء التابعة له . وكانت شركة البناء التعاونية وتسمى « سوليل بونيه » تقوم بشق الطرق فى الصحراء ، وهى عملية لم يكن أى مقاول خاص على استعداد للقيام بها ، ولم يكن أعضاء الهستدروت وأسرهم لا يمثلون فقط أكثر من ٣٠ الى ٤٠ فى المائة من نسبة السكان اليهود ، ولكنهم كانوا أيضا انشط العناصر فى البلاد .

هكذا اصبح الهستدروت بمثابة أداة لتحقيق حلم الصهيونية فى فلسطين . وكان معنى عضوية المرء فى اللجنة التنفيذيةللهستدروت فى عام ١٩٣٤ أنه فى مقدمة الكفاح الصهيونى اقتصاديا كان أو سياسيا ، خلال الأعوام المصيرية التالية .

ان هذا هو ما حدث فعلا بالنسبة لجولدا ، التى بدأت عملها فى الهستدروت بتنظيم الادارة السياحية التابعة له ومهمتها الترحيب بالزوار المرموقين ، الى أن أنتخبت لعضوية سكرتيرية اللجنة التنفيذية للهستدروت .. وبحلول عام ١٩٣٦ أصبحت مسئولة عن كافة برامج المعونة المتبادلة للهستدروت ، كما أصبحت رئيسة مجلس ادارة « كريات حوليم » ـــ أو صندوق العمال المرضى . وبعد فترة قصيرة .. أصبحت مديرة للادارة السياسية فى الهستدروت وتم ارسالها فى عام ١٩٣٧ الى الولايات المتحدةللدعوة الى جميع التبرعات لبناء ميناء خاص لليهود فى تل أبيب .

سافرت جولدا الى أمريكا وسط موجة من الاضطرابات الدامية اندلعت فى فلسطين سنة ١٩٣٦ بين اليهود والعرب . وعادت لتصبح وسط المناقشات المتعددة بين اليهود الصهيونيين انفسهم. لقد أدى الكتاب الابيض الذى أصدرته بريطانيا سنة ١٩٣٩ الى وضع حد للآمال التى كانت تتطلع نحو انشاء وطن قومى لليهود . لقد أسفرت المناقشات بين الصهيونية عن اتجاهين أساسيين ، الأول يتزعمه « حاييم وايزمان » السياسى الصهيونى الذى لا يريد اتباع العنف ضد بريطانيا ، والثانى يتزعمه « بن جوريون » . ولقد قال بن جوريون : « ينبغى أن يتصرف اليهود كما لو كنا دولة فى فلسطين الى أن يتم انشاء الدولة اليهودية » . لقد انضمت

جولدا الى بن جوريون . وحينما نشبت الحرب العالمية الثانية كان الشعار الذى رفعه بن جوريون وآمنت هى به هو « سوف نحارب الكتاب الأبيض كما لو كانت الحرب غير قائمة ، وسوف نحارب العدو المشترك (العرب) كما لو كان الكتاب الأبيض لا وجود له » .

هكذا ظلت السياسة الصهيونية فى فلسطين ابان الحرب . وحينما انتهت الحرب العالمية الثانية .. بدأ الصهيونيون يركزون على خلق المتاعب لبريطانيا فى حدود هدف نهائى ، هو ارغامها على الانسحاب من فلسطين باعتبارها سلطة الانتداب . وفى ١٤ فبراير سنة ١٩٤٧ أعلنت بريطانيا أنها ستعرض المشكلة برمتها على الأمم المتحدة . وعندما أثير مشروع تقسيم فلسطين بين اليهود والعرب انقسم اليهود الى تيارين ، تيار مؤيد لمشروع التقسيم وتيار معارض ، وخلال فترة قصيرة أصبح لابد من أن ينتصر الجناح المتطرف . وهنا أصبح على الزعماء السياسيين والعسكريين للطائفة اليهودية أن يقوموا بتشكيل جهاز لمواجهة أعباء الحرب الحديثة . وقام عدد كبير من المبعوثين بالسفر الى نيويورك لمحاولة جمع الأموال المطلوبة من اليهود الامريكيين . وعاد المسئول عن خزانة الوكالة اليهودية من أمريكا يجر أذيال الخيبة ، وأوضح للزعماء الصهيونيين أنه من الأمور غير الواقعية أن يتوقع يهود فلسطين أن يدفع اليهود الامريكيون مبلغا يتراوح بين خمسة وسبعة ملايين دولار .

لقد كان هذا التقرير مؤسفا ، فاذا تعذر شراء الأسلحة والحصول على الأموال للحفاظ على قوة الجيش ، اذن فقد ضاعت الحرب وضاعت الدولة اليهودية . لقد استقر الامر أخيرا على أن تسافر « جولدا مائير » الى أمريكا حيث بدأت تركز أحاديثها لليهود هناك قائلة : « ينبغى أن يطلب من يهود العالم أن ينظروا الينا بصفتنا نمثل خط الجبهة ، وأن يفعلوا فى سبيلنا ما فعلته الولايات المتحدة فى سبيل انجلترا حينما كانت الأخيرة تمثل خط الجبهة فى الحرب العالمية .. ان الملايين التى سنحصل عليها فى غضون ثلاثة أو أربعة اشهر لن تكون لها أهمية ، فالمشكلة تنحصر فيما نستطيع الحصول عليه فورا . وحينما أقول أيها

الاصدقاء فورا ، فليس معنى هذا فى مدى شهر و اثنين من الآن .. وليس بوسعكم الا أن تقرروا شـيئا واحـدا وهو ما اذا كنا سننتصر فى هذا القتال أو أن المفتى هو الذى سيخرج منتصرا ».

لقد طلبت « جولدا » من يهود أمريكا مبلغا يتراوح بين ٢٥ و ٣٠ مليون دولار فورا ، وهو مبلغ يبلغ خمسة أضعاف المبلـغ الاجمالى الذى حدد من قبل .

من باريس .. بعث اليها أحد مبعوثى الهاجاناه بأن بوسـعه شراء دبابات اذا ما حصل على عشرة ملايين دولار فورا . وابلغته جولدا تليفونيا : « أشتر » . وارسل لها مبعوث آخر فى أوربا ــ كان يحاول شراء ذخيرة ــ يقول انه سيعود الى فلسطين،وكان يحتاج أيضا الى عشرة ملايين دولار ، ولم تكن هناك فائدة من انتظار حدوث المستحيل . وأبلغته جولدا برقيا : « ابق فى مكانك » ، ووصله المبلغ المطلوب .

استطاعت جولدا أن تجمع خلال مدة الشـهرين ونصف الشهر التى قضتها فى أمريكا مبلغ ٥٠ مليـون دولار . وحينما عـادت الى فلسطين قال لها بن جوريون : « حينما يدون التاريخ فى يوم من الأيام .. سيقال ان امرأة يهودية استطاعت الحصـول على الأموال التى جعلت قيام الدولة أمرا ممكنا »(*)

الجزء الثالث

وأخيراً ..
كلمات ليست أخيرة

بقلم : محمود عوض

كن اخى .. والا سأقتلك .

هكذا يقول « مناحم بيجن » زعيم حزب حيروت الاسرائيلى فى كتاب له بعنوان « الثورة » .

اما بن جوريون — زعيم حزب رافى — فيقول فى كتاب « اسرائيل : سنوات التحدى » : ان اسرائيل لا يمكن أن تعيش الا بالقوة والسلاح .

وفى رواية « الخروج » التى الفها الكاتب الصهيونى « ليون اوريس » .. يقول أحد أبطال القصة : « انه لشىء بشع حقا .. ان أطفالنا يعبدون المحاربين . اننا نبنى وجودنا على السلاح » .

وفى مقال نشرته صحيفة « نير » الاسرائيلية ، قال الكاتب ناتان هوفش : « ان رجال الدين اليهود قد أداروا ظهورهم لكل تحذيرات الأنبياء والحكماء ضد القوة .. واصبحوا أكثر الناس حماسا واعجابا بالجيش وبالروح العسكرية ، وبالأساليب المسلحة العنيفة . انهم بهذا يعطون للجيش الاسرائيلى شهادة الاثبات بأنه ينفذ تعاليم الدين اليهودى » .

و ...

كانت هذه اجابات مختلفة ، تقدمها السياسة والأدب والدين فى اسرائيل لسؤال واحد : من هو ألاله الجديد فى اسرائيل ؟ .

ان اسرائيل تحاول خلق جيل جديد يسميه بن جوريون « الصخرة » ويفتخر بن جوريون بأن هذا الجيل قد أدى الى أن « اصبح الشعب اليهودى هو تجمع المحاربين » .

ولكى يصبح الجيل اليهودى الجديد هو « الصخرة » .. ولكى تصبح اسرائيل هى « تجمع المحاربين » .. كان لابد من وجــود غذاء يومي واحد للجيل الجديد فى اسرائيل . هذا الغذاء هو الروح العسكرية العنصرية . هذه الروح هى الشرط الأول .. اللازم لتحقيق الهدف الصهيونى الأساسى : من النيل الى الفرات .

ومرة ثالثة .. كان لابــد ان ينعــكس كل ذلك على طريقــة تنظيم المجتمع الاسرائيلى ، ثم على التنظيم العسكرى فى اسرائيل.

لقد رأينا كيف يعمل هذا التنظيم فى الصفحات السابقة ، ورأينا النتيجة التى حققها خــلال حرب ١٩٦٧ فى الــكتاب الاسرائيلى الأول السابق لهذه الصفحات ــ ولكن تبقى بعد ذلك التحفظــات التى أود أن أسجلها مقدما قبل أن أناقش التفــكير العســكرى الاسرائيلى :

أولا ــ بصرف النظر عن التفاصيل العسكرية الفنيــة ، التى لا تدخل فى مهمتنا وتهم العسكريين أساسا ، فان الذى يهمنــا هنا أولا بعد أن قرأنا الكتب السابقة ... هو أن نتعرف على مدى الجدية التى يعطيها العدو لاهدافه العسكرية التوسعية فى المنطقة العربية . جدية لا يعتمد فيها على اعتبارات عسكرية مؤقتة .. بل تعتمــد على تأصــيل وتعميق الــروح العسكرية حتى بــين الأطفــال .

ثانيا ــ انه من المســائل الملفتة للنظر .. ان جميع المؤلفــين الغربيين الذين كتبوا عن التكوين العسكرى الاسرائيلى .. يقررون انه موجه أساسا للحرب الهجومية بالدرجة الأولى . وهذا يؤكد الطبيعة العدوانية للسياسة العسكرية الاسرائيلية .. ثم يؤكد أن الحسابات العسكرية الاسرائيلية تختل اختلالا شديدا ــ بل قد تنقلب رأسا على عقب ــ لو أنها خاضت حربا دفــاعية ، أو حربا طويلة زمنيا .

ثالثا ــ أيضا مما يلفت النظر .. ان العــدو الاسرائيلى حين يحاربنا .. فهو يعبىء كل موارده لخدمة المجهود الحربى .

رابعا — أنه مع كل ذلك .. وبالرغم من هذه التعبئة العسكرية المطلقة ، فان اسرائيل لم تقم بمواجهة الجيش المصرى فى أىحرب واسعة النطاق ، بدون حسابات سابقة تضمن تحركا دوليا لمصلحتها . فقد أصبح معروفا مثلا ان بن « جوريون » رفض فى سنة ١٩٥٦ أن يتحرك الا بعد ان حصل على ضمان من بريطانيا وفرنسا بأنهما ستكفلان له مظلة جوية وحزاما بحريا — وفوق هذا كله — تدميرا كاملا لجميع المطارات المصرية فى الساعات الأولى للقتال . وبعد أن حصل على هذا الضمان — بعده فقط — وقع الاتفاقية السرية مع ممثلى بريطانيا وفرنسا .

ثم — بعد هذه التحفظات السريعة — نعود الى العسكرية الاسرائيلية :

ان التفكير العسكرى الاسرائيلى يقوم أساسا — فى جانبه المدنى — على خلق روح عنصرية لدى الطفل الاسرائيلى منذ سن مبكرة . وهى روح عسكرية عنصرية يتم تنميتها لكى تخدم الأهداف التوسعية الواردة دائما فى جدول الاعمال الاسرائيلى .

ومادام التوسع الاسرائيلى الى ما تسميه اسرائيل (الأرض التاريخية) .. هو مسألة محل اتفاق بين مختلف الاجنحة الحزبية هناك .. فان تنمية الروح العسكرية العدوانية تصبح ضرورة مبدئية لتحقيق هذا الغرض .

وجميع الذين كتبوا عن التنظيم العسكرى الاسرائيلى — بما فيهم الاسرائيليون أنفسهم — متفقون على ان التدريب العسكرى فىاسرائيل يعتمد أساسا على الهجوم ، والهجوم هنا صيغة اسرائيلية للعدوان والعدوان جوهر التفكير العسكرى فىاسرائيل. ولقد كان قيام اسرائيل بالمبادرة بالهجوم — وهى دائما تبادر — واحدا من الأسباب الرئيسية التى كفلت عنصر المفاجأة فى حرب ١٩٦٧ .

ولكن المفاجأة لم تكن هى السبب الوحيد لانتصار اسرائيل وهزيمتنا ، كما ان الهزيمة كلها لا يمكن تفسيرها بناء على ميزات

موجودة فى الجانب الاسرائيلى .. ومخصومة من الجانب العربى بالعكس . ربما كانت الاسباب الرئيسية للهزيمة هى قدرةاسرائيل على استغلال أخطاء وقعنا فيها نحن .. ولهذا مهدنا بها الطريق أمام عبقرية وهمية أضفاها العقل الاسرائيلى على نفسه .

ان معرفتنا بعدونا تقتضى منا اثارة عدة اسئلة فى وقت واحد. مثلا : هل كان انتصارنا مستحيلا ؟ هل كانت هزيمتنا حتمية ؟ هل كانت الاسباب الرئيسية للهزيمة ، أسبابا سياسة أم أسبابا عسكرية ؟ هل .. هل .. ثم : كيف نفسر الهزيمة ذاتها ؟ .

ان مثل هذه الأسئلة لا تبدو نظرية على الاطلاق . ففى تفسير الهزيمة العسكرية مثلا .. هناك موقفان : موقف يفسر الهزيمة بأنها ترجع الى أخطاء فردية . بمعنى قصور فى ادراك أو تصورات عدد من الأفراد أو عدم قيامهم بواجبهم . وموقف يفسر الهزيمة بأنها ترجع لأسباب تتعلق بالكفاءة العسكرية للمقاتل العربى — وبالذات المقاتل المصرى .

والفارق بين التفسيرين هو فارق بين ما يقوله الصديق .. وما يقوله العدو .

فعندما نقول مثلا .. ان واحدا فى المائة من عمال مصنع معين يتغيبون عن عملهم ، فمعنى ذلك أن التغيب هو ظاهرة فردية نبحث عن أسبابها فى الحالة الشخصية لكل فرد . أما اذا قلنا أن ٩٩٪ من عمال المصنع يتغيبون ، فاننا نحكم مقدما بأن التغيب فى هذا المصنع أصبح ظاهرة تمس كل عماله مباشرة . فاذا أصبح ظاهرة عامة غير فردية .. فان علاجها لا يمكن أن يتم بتغيير أو تعديل أو حلول سريعة فى مدى قصير .

ومن الطبيعى أن نجد مصلحة العدو قائمة فى نشر التفسير الثانى .التفسير الذى يحول الهزيمة الى ظاهرة عامة لا يجدى معها العلاج قصير المدى . وهو على اى حال تفسير حرصت القوى الاستعمارية على زرعه فينا طوال التاريخ الحديث فى منطقة الشرق الاوسط .

وبالمقياس نفسه . .فاننا نجد أيضا أن هناك موقفين فى تبرير هزيمتنا الضخمة أمام اسرائيل . الموقف الأول يقول انها هـزيمة حضارية . فعلى رمال سيناء لم يكن هناك جيش يواجه جيشا .. وانما كانت حضارة تواجه حضارة ، وغربا يواجه شرقا . فاذا كنا نريد أن ننتصر على اسرائيل ، فيجب أن تكون هذه هى نقطة البداية : التفوق الحضارى .

والموقف الثانى يبرر الهزيمة بأنها هزيمة جيل بأكمله ، او على الأقل هزيمة نظام سياسى هنا على يد نظام سياسى هناك . فاذا كنا نريد أن ننتصر على اسرائيل .. فيجب أن تكون هذه هى نقطة البداية : نظام يدافع عن نفسه .. وجيل يبرر وجوده .

اما نقطة الاتفاق بين الموقفين فانها تكمن فى ادانة أشياء كثيرة كانت موجودة فى مصر صباح الخامس من يونيو . ولكن بعد ذلك — فان الفجوة بين الموقفين واسعة وعميقة . فجوة تحتـاج الى قرون لسدها .. طبقا لأصحاب المـوقف الاول ، وتحتـاج الى سنوات فقط ، طبقا لأصحاب الموقف الثانى .

* * *

وبالطبع ليس هـذا مجال الحـديث تفصيليـا عن اسـباب هزيمتنا فى سنة ١٩٦٧ . ولكن — بصفة عامة — نحن نخطىء كثيرا لو تصورنا أن أمامنا قائمة جاهزة ومنطقية من الاسباب التى كانت تبرر هزيمتنا الضخمة أمام اسرائيل فى ١٩٦٧ . لم تـكن هنـاك مبررات كافية . لا مبررات للهزيمة ولا مبررات لضخامة الهزيمة.

ان السياسة ليست سوى حساب لنسب القوة . ان الذى يهزم فى ميدانها اما أن يكون قد أخطأ الحساب ، أو انه ترك هذه القوى تنطق ضد مصلحته .

وما حدث فى ١٩٦٧ هو اننا أرتكبنا الخطأين معا : أخطأنـا فى الحساب سياسيا ، وكذلك تركنا علاقات القوى العالمية تنطق ضدنا.

ولكن الحسابات الخارجية لم تكن هى العامل الوحيد ضدنـا فى صباح الخامس من يونيو ..

لقـد كانت هناك عوامل داخلية كثيرة .. تقيد عضـلاتنا فى الداخل ، حتى قبل ان نتجه الى ميدان القتـال . ان النقطـة الحاسمة هنـا ليست هى : متى وأين بدأت هـذه العوامل؟ ان التاريخ هو نسيج غير متكامل ، وقرار اختيار النقطة التى بدأت عندها أسباب هزيمتنا سوف يكون دائما قرارا تعسفيا . ان من الممكن ان تكون الهزيمة قد بدأت عندما هددنا بالحرب ، دون أن نقصد الحرب . ويمكن أيضا أن تكون الهزيمة قد بدأت قبل ذلك بسنوات طويلة ، عندما نسينا اسرائيل كعـدو رئيسى وخلقنـا لأنفسنا أعداء وهميين بين صفوفنا . ويمكن ثالثا أن تكون الهزيمة قد بدأت : عندما أعفينا كل شيء هام فى حياتنا من النقد والمراجعة أو عندما أعطينا لبعض الأفراد شيكات على بياض ، يحصـلون بمقتضاها على سلطات مطلقة .. انتهت الى كارثة مطلقة . كذلك يمكن أن تكون الهزيمة قد بدأت فى اللحظة التى أصبح الارتجال فيها قاعدة ــ وليس استثناء ــ فى سياستنا . يمكن .. ويمكن .. ويمكن ..

ولكن الذى لاشك فيه .. أن الهزيمة قد بدأت فى اللحظة التى أهملنا فيها معرفة العدو ، ووضعناها فى نقطة متأخرة من جدول الأولويات فى مجتمعنا .. !!

ان الانتصار الاسرائيلى الحاسم فى الساعات الأولى من صباح ٥ يونيو ، أعتمد ، مثلا ، على معرفة دقيقة بمواقع مطاراتنا وانواع طائراتنا وتشكيل قواتنا . انها بالطبع معلومات لم يجمعها العدو ، ولم نهمل نحن فيها ، قبل الحرب بخمس دقائق .. !

وعندما نشبت الحرب فجأة .. اكتشفنا نحن ــ فجأة أيضا ــ أنه بينما كان العدو يركز مجهوده مثلا على معرفة تصميم طائرات الميج كانت مراكز القوى عندنا تفخر بأنها تعرف آخر نكته يرددها الناس فى مجالسهم الخاصة ، وتعرف أين سهر عبد الصمد .. ومتى نامت نجوى خارج سريرها .. وماذا قالت ليلى فى التليفون أمس .

نعـم ـ كانت التفاصـيل الصـغيرة فى حيـاتك وحيـاتى وحياتها وحياتنا هى من وجهة نظر الأمن .. أكثر أهمية من التفاصيل المطلوبة عن العـدو .

أن هذا معناه أن الأجهزة عنـدنا كانت تخـدم الأفراد .. ولا تخدم الأمة . كانت تسعى لتحقيق النزوات .. بدل أن تسعى لخوض الحرب . وعندما لم يتم تدارك هذا الخطأ الفادح فى الوقت المناسب .. فان الخطأ تضخم ، الى أن اكتشفنا فى صباح الخامس من يونيو انه لم يصبح خطأ . أصبح مرضا .

* * *

ميدان آخر أخطأنا فيه قبل ميدان القتال ـ ميدان الاعلام . ان من كان يقرأ صحفنا ، أو يستمع الى اذاعتنـا ، فى الفترة السـابقة على ٥ يونيو ، كان يحس بالطمأنينة المطلقة ، والفخر المتزايد . أن الطمأنينة مطلوبة ـ طبعا ـ والفخر ضرورى .. حقا .. ولكن بشرط الا تكون طمأنينة وهمية أو فخرا كاذبا . لقد كنا نحسب كل شىء ـ على ورق الصحف ـ بدقة متناهية .وطالما فعلنـا ذلك على الورق .. فاننـا كنا نتنفس الصـعداء و .. نستريح .

نعم . كانت الشعارات المبهرة .. بديلا عن التطبيق المبهر ، وكانت الأقوال الضخمة .. بديلا عن الأعمال الضخمة .

لقد خلقنا لأنفسنا ـ عن طريق أجهزة الأعلام عندنا ـ دنيـا مثالية ، نحن فيها أقوى الناس ، وصوتنا فيها أعلى الأصوات ، وحساباتنا أدق الحسابات . دنيا نكسب فيها الحروب بقرار .. وندخل فيها المعارك بهزة راس .. ونحل فيها المشاكل فى غمضة عين .

لقد كانت لاذاعتنا دنيـاها الخاصة بها ، وحقائقها الخاصـة بهـا .. وهى دنيا وحقائق لا علاقة لها بالواقع .

لقد قلنـــا لأنفسنا ان الحـــرب نزهة ، والمعركة هى مجـــرد ست دقائق نصل فيها الى تل أبيب وبعـــدها ينتهى كل شىء . وعندما بدأت الحرب ، وعندما لم ينته كل شىء فى ٦ دقائق ، فان خيبة الأمل بدأت فى عقولنا من الدقيقة السابعة . ان الذين دفعوا ثمن هذه الدعاية الكاذبة هم نحن ، وليس عدونا . لقد أصبحنا نحن الضحايا . ضحايا أوهام ومبالغات اخترعناها ، وبعد ذلك رددناها . وفى النهاية صدقناها .

لقـــد نظرنا الى الواقع فلم يعجبنا ، وحينئذ لجأنا الى خلق واقع آخر يعجبنـــا .. واقع وهمى نقرأ عنه فى صحفنا فقط ، ونسمع عنه فى اذاعتنا فقط ! .

واذا كنا قد ارتكبنا أخطاء كثيرة بهذا الوضوح ــ واستغلتهـــا اسرائيل الى الحد الأقصى ــ فان هنـــاك أخطاء أخرى أساسية أرتكبناها ، وان كانت أقل وضوحا مع أنها أكثر خطورة .

* من هذه الأخطاء .. اننا قلنا لأنفسنا مثلا أن تفوقنا العددى سيحسم فى النهاية المسألة كلهـــا . وطالمـــا أن عدونا ٣ ملايين ، ونحن مائة مليون ، اذن فلا بد بالحساب ــ أن المائة ســـتهزم الثلاثة . أن هذا ليس منطقا صالحا دائما ، فمائة عصا لا تهزم بندقية واحدة ــ ولكن المنطق كان يغيب عنا خصوصا عندما نصـــل الى مناقشة المسائل الحاسمة فى حياتنا .

ومثلما اعتقدنا من قبل أن الـــكلمات الضـــخمة هى بديل عن الأعمال الضخمة ، كذلك هنا ، اعتقدنا أن الأعداد الضخمة هى بديل عن الاستعدادات الضخمة .

* وقلنا لأنفسنا أيضا : ان الزمن هو بطبيعته ــ معنا ضـــد اسرائيل . لقد اعتمدت الاستراتيجية العربيـــة طويلا على وجود افتراض قوى يقول ان الوقت هو ــ فى المدى الطويل ــ معنا ضد اسرائيل . وقد نبشنا فى التاريخ عن أمثلة تؤيد هذا الافتراض ، فقلنا ان الصليبيين استعمروا فلسطين ٨٠ سنة ، ثم خرجوا .

نعم . الصـــليبيون خرجوا . ولـــكنهم لم يخرجوا بحــكم الاقدمية الزمنية ، ولا بمضى المـــدة .. ولم يخرجوا ، لان منطق التـــاريخ هو الذى اخرجهم ! لقـــد اخـــرجتهم القوة والقـــوة وحدها .. بصرف النظر عن الزمن . وعندما خرجوا — بعد ٨٠ ســـنة — لم يكن معنى هـــذا انه كان من الضرورى أن يظلوا فى فلسطين ٨٠ سنة .. ولكن معناه ببساطة اننا لم نملك القـــوة اللازمة لاخراجهم الا بعد ٨٠ سنة . ولو توافرت لنا تلك القـــوة قبل ذلك .. لأصبحت مدة بقائهم ٥٠ سنة ، أو ١٠ ســـنوات ، أو حتى ١٠ أشهر .

اننا اذن .. لم نكن نلجأ الى التاريخ لكى نفهم معناه ، ولـــكن لكى نستنجد به فى دعم منطق مختل نردده لأنفسنا . منطق يرى ان الزمن هو بطبيعتنا ومن تلقاء نفسه كفيل بحل المشكلة بيننا وبين اسرائيل . لقد نسينا أن الزمن بطبيعته هو عنصر محايد . ان الزمن لا يمكن أن يكون معنا تلقائيا .. أو ضدنا تلقائيا . ان عملنا نحن .. هو الذى يجعل الزمن معنا أو ضدنا .

ولكى يدخل الزمن عنصرا فى حســـابات القـــوى بيننا وبين عدونا ، فلابد أن تكون باقى العنـــاصر ثابتـــة أو — على الأقل — متساوية . لابد ان نتساوى نحن والعـــدو فى الأخـــذ بمنجزات الحضـــارة .. فى بنـــــاء الدولة العصرية .. فى الاعتمـــاد على المؤسسات وليس الأفراد .. الخ .

واذا كان هذا هو المفهوم الصحيح لأهمية الزمن ، واهميـــة الوقت ، فليس معنى هذا أن علينا — بغير حساب — أن ندخل فى حرب مع اسرائيل الآن .. أو بعد ٥ دقائق . وليس معنى هذا أيضا أن ننظر الى عقارب الساعة فى ايدينا بخوف وفزع وقلق . ان الامم لا تعيش حياتهـــا وهى تحمـــل فى يدها كرونومتر ، أو مقياسا للوقت . ولكن معنى هذا ببساطة هو : أن عملنا وحـــده — مقارنا بعمل عدونا — هو الذى يستطيع أن يجعل الزمن سلاحا معنا أو سلاحا ضدنا .

* وقلنا لأنفسنا زمنا طويلا ان محاربة العدو تحتاج — أولا — الى الوحدة الوطنية . مضبوط . ولكن الخطأ بدأ حينما قصدنا بالوحدة الوطنية : الصمت . الصمت على العيوب ، على الأخطاء ، بل على الخطايا . من منا مثلا لم يكن يعرف بوجود مراكز القوى قبل ٥ يونيو ؟ من منا لم يكن يعلم بفساد أجهزة المخابرات ؟ من منا لم يكن يرى ما يفعله أهل الثقة ضد الخبرة ؟ من .. من .. من .. ؟ !

كلنا كنا نرى ، وكلنا كنا نعلم ، واذا لم نكن نعلم على وجه الدقة ، فقد كنا نحس . ربما لم يعرف بعضنا أن هناك تعفنا .. ولكن معظمنا كان يشم الرائحة . ومع ذلك لم يرتفع صوت واحد . انه لم يرتفع لاننا — قبل ٥ يونيو بوقت طويل — كنا قد قضينا على أى فرد ، أو أى مؤسسة ، يمكن أن تقول « لا » . لا .. لأهل الثقة ، لا .. للمحسوبية ، لا .. لفساد المخابرات لا .. للاخطاء السياسية . لقد تصرفنا دائما على أساس أن قمة السلطة هى قمة الحكمة ، وان الحكمة لها مفتاح سحرى واحد يملكه شخص واحد فى كل جهاز ، وجهاز واحد فى كل المجتمع . لقد أدى هذا الى اشاعة احساس عام بأنه ليس بالامكان أبدع مما كان . وفى النهاية .. كان أخطر ما فى الأمر — من وجهة النظر السيكلوجية — هو التزايد السريع للافكار المسبقة الجاهزة ، غير القابلة للمناقشة .. والتى أصبحت فألا سيئا للمستقبل . لقد وضعنا الناس أمام بديلين لا ثالث لهما : اما أن تقول نعم لكل شىء — صواب أوخطأ — واما أن تقول لا لكل شىء — صحيح أو خطأ — واما أن تقول لا لكل شىء صحيح أو عفن . ان الخلل فى هذه النقطة تركز على مفهوم خاطىء زرعناه فى أنفسنا وتقبلناه لفترة طويلة ، مفهوم يقول ان الوقوف فى الصف معناه الصمت عن الأخطاء . معناه أن نقول جميعا الكلمات نفسها ونردد الشعارات نفسها ونصفق للجمل نفسها !! لقد نسينا أن التنوع هو نفسه قوة ، ونسينا أنه قد يكون من المستحيل أن نصحح كل خطأ .. ولكن لا خطأ يمكن تصحيحه الى أن نواجهه . نسينا أن قطعة القماش قد تتعدد فيها الألوان والخيوط .. ولكنها تبقى فى النهاية قطعة قماش واحدة متماسكة .

ان اسرائيل لو قدر لها الاختيار — لاختارت مصر الصامتة على أخطائها ، قبل أن تختار مصر المهزومة فى ميدان القتال . ان مصر المهزومة فى الميدان لن تبقى مهزومة دائما ، ولكن مصر الصامتة على أخطائها — المتعفنة من الداخل — لن تنتصر أبدا !!.

* * *

وأخطأنا ايضا حينما تركنا الجيش يتحول الىقوة بوليس أخرى ، لحراسة نظم الحكم . لقد كان من مظاهر ذلك أن نظم الحكم السياسية فى مجتمعنا العربى استدارت أولا الى الجيش لكى تعطى فيه الأولوية لاعتبارات الولاء الشخصى ، قبل أن تكون للكفاءة العسكرية المحترفة ، وفى معظم الأحيان كان يتم التضحية بالكفاءة لمصلحة الولاء .

وحينما نخرج الى المجتمع الكبير نجد نفس المبدأ قائما : الولاء قبل الكفاءة . . الولاء للنظام السياسى قبل الولاء للوطن . وطالما الأمر كذلك ، فأن الولاء للنظام السياسى كان يستقر أخيرا عند الولاء لأشخاص ، بدلا من أن ينتهى عند الولاء لمبادىء .

ولقد كان هذا يفرض بدوره نوع الأشخاص الذين يتم اختيارهم للمراكز القيادية فى المجتمع كله . أشخاص يملكون النفاق قبل القدرة ، والطاعة قبل المناقشة ، والتصفيق قبل المعارضة . والموافقة قبل المراجعة .

وطالما ان هؤلاء هم الذين يتمتعون بالثقة ، فأنهم كانوا يمثلون قوة طاردة مركزية لأية كفاءة لديها علم تملكه ، أو تخصصا تتيحه ، أو دراسة تقدمها ، أو موهبة تعرضها ، أو رأى تقوله .

ولم يكن غريبا أن هذه القيادات نفسها هى التى أسرعت لحظة الكارثة فى استحضار شهادات مرضية من التاريخ ، فى محاولة لاعفائها من الحساب والمسئولية ، و .. أعفيت من المسئولية .

ولكن ، حتى قبل هذا بوقت طويل .. كانت هذه النتيجة تدخل فى النطاق الذى يمكن التنبؤ به .

ففى اى نظام سياسى . يصبح بعض الناس اخصائيين فى السياسة .. وهؤلاء هم الذين يتحملون مسئوليات خاصة فى اتخاذ القرارات العامة . وتحديد هؤلاء الأشخاص ونوعهم وكفاءتهم هو من الأمور الهامة والجذابة فى اى بحث سياسى . لأن هذا هو الذى يحدد فى النهاية ما هو المعيار وراء اختيار كل شخص ، واين تنتهى سلطته ، واين تبدأ مسئوليته ، وما هى بالضبط الأشياء التى يحاسب عليها .

ورغم المنطق البسيط الذى تعتمد عليه هذه النقطة ، الا اننا لو بحثنا فى أمورنا السياسية قبل النكسة ، فسوف نجد أنفسنا فورا فى متاهة لا نهاية لها . سوف نجد أن السلطة السياسية فى مجتمعاتنا لم تكن ابدا سلعة موحدة تشترى دائما من نفس العنوان ، وبكميات محددة ، وحسب سعر مستقر ، لكى تستعمل فى أى موقف سياسى . أبدا . الذين يتعرضون للحساب لا يتمتعون بالسلطة ، والذين يتمتعون بالسلطة لا يتعرضون للحساب . انهم — أصحاب السلطة — هم غالبا أشخاص غامضون فى عناوين غير معروفة ، ومن الممكن أن يكونوا ابطالا فى الساعة الثامنة ، وخونة فى الثامنة والربع .. والأسباب أيضا غير معروفة . لهذا كانت اخطر القرارات تصدر وتلغى .. واعظم الخطط تبدأ وتنهار .. واكبر الشعارات تولد وتموت .. بغير أن نعرف لماذا ولدت .. ولا لماذا ماتت .

نعم .. نعم .. لم يكن معروفا ابدا : أين ينتهى قيصر .. وأين يبدأ الشعب .

● ان خطورة مثل هذا المناخ هو فى انعكاساته اليومية على المواطن العادى . مواطن كان يجد دائما أن الأحداث أكبر منه .. وأن من الأفضل له ألا يحاول فهمها . مواطن يحرص على الطاعة قبل النقد ، والعدالة قبل الكفاءة ، والأقدمية قبل الابتكار ، والأمن قبل الاختلاف ، والتصفيق قبل الفهم .

لقد كانت النظم السياسية تدفع المواطن دفعا يوميا الى ان يكون شريكا سلبيا فى الأحداث ، والى ان يرى أمامه أعظم القرارات

تستمد حيثياتها من المصادفات العابرة ، واخطر القضايا تبرز أمامه فجأة من لا شيء . . وتنتهى فجأة الى لا شيء .

ان تعامل المواطن مع سلطته ، هو أولى الساحات التى يتدرب فيها على القتال . ولقد كانت السلطة فى مجتمعنا العربى تعطى المواطن الدرس بعد الدرس على أن الخضوع من أول دقيقة ، والاستسلام من أول صدام ، والهزيمة من أول معركة .. هى شيء لا مفر منه .

وكانت أخطر نتائج مثل هذا المناخ هى — فى المدى الطويل — اقسى على مستقبلنا من اى معركة . فلقد كان المواطن يحمل هذه الدروس اليومية المستفادة معه الى منزله ، الى أسرته ، الى الجيل الجديد الذى سيكون عليه مستقبلا أن يحمل مسئولية هذا الوطن . ان الأسرة هى — عادة — أقوى الهياكل الاجتماعية صمودا للتغيير . ولكن ، عند ما يحدث التغيير ، فانه يقع فى مكان آخر أولا ، ثم يتسرب الى العلاقة بين الآباء والأبناء فيما بعد . وعند ما يبدأ الفساد .. فانه يبدأ أولا خارج الأسرة . ولكن ، بمجرد أن يصل الى الاسرة فانه يصبح مرضا خبيثا يحتاج الى عملية جراحية فى المجتمع كله ، لكى يتم استئصاله .

هكذا وصلنا ، فى سنة ١٩٦٧ ، الى نتيجة لم تكن فى الحسبان : ان مشكلتنا لم تعد هى الفساد .. وانما هى التعود عليه !

● ان دراسة التفكير السياسى فى اى مجتمع معناه بالضرورة دراسة الثقافة السياسية : كيف يفكر الناس ؟ ما هو شعورهم بالنسبة للعالم السياسى ؟ ما هى معتقداتهم ؟ ما الذى يؤمنون به ؟ ما الذى يرونه هاما .. والذى يرونه أقل اهمية ؟

ومع أن كل انسان هو — فى هذا الاطار — مشبع بأفكار كثيرة ومتنوعة .. الا أننا لا نحتاج دائما الى فحص كل شجرة فى الغابة على حدة . انما يكفينا أن نفحص الأفكار الأساسية التى تشبعت بها الأغلبية .. لكى نصل فى النهاية الى صورة تقريبية .

والصورة أمامنا — حتى ١٩٦٧ — لم تكن تتضمن غير لونين اثنين فقط : الأبيض والأسود . فالمواطن العادى كان يتم تدريبه على أن العالم ينقسم الى نوعين : ملائكة وشياطين ، أصدقاء وأعداء ، دول معنا دائما .. ودول ضدنا الى ما لا نهاية . انه يقرأ دائما وجهة نظر واحدة ، ويستمع دائما الى رأى واحد . ان هذا الرأى هو وحده الصواب ، وأى شىء آخر هو الخطأ . ان عليه أن يؤمن بأن كل ما يراه هو الحق .. وكل ما لا يراه هو الباطل . ان النظام السياسى هو دائما ممثل للخير .. طالما هو قائم ومستمر . وفجأة يصبح ممثلا للشر .. طالما هو قد سقط . ان كل قرار يتخذ بالنيابة عنه — عن المواطن — هو قرآن مقدس .. وكل قرار يرفض — بالنيابة عنه أيضا — هو كفر مقدس ! ان اسرائيل ليست خطرا على الاطلاق ، فهى مجتمع مشحون بالجبن وسوف ينهار غدا .

وحينما نشبت الحرب فى سنة ١٩٦٧ ، كان المواطن يعلم لأول مرة أن اسرائيل هى الخطر الأكبر ضدنا ، وضد مستقبلنا . ان اسرائيل لها جيش يغزو أراضينا ، وجنودها يسيرون على دقات طبول حقيقية ، ومدافعها تحدث جروحا قاتلة ، كما أن فيها بيوتا ومدارس ومحطات للاذاعة واشارات مرور ودبابات وعملة وسجون وشرطة طائرات . ان البلاغة الكلامية والمبارزات الخطابية معها لم تهزمها أمامنا فى ميدان القتال ، وان المسألة أكثر جدية من ذلك . أكثر جدا . لم تكن مبارزة خطابية هذه المرة ، ولكنها مبارزة بالمدافع والدبابات والطائرات . فى هذه المرة ليست اسرائيل هى التى تبحث عن ضمان دولى لوجودها ، وانما نحن — نحن العرب — هم الذين أصبحوا يحتاجون الى ضمان لوجودنا ، بعد ان سجل علينا التاريخ — منذ سنة ١٩٤٨ — تراجعا مستمرا امامها ، وغزوا مستمرا لأراضينا نتعرض له منها .

● ومن المخجل ان جزءا كبيرا من منطقتنا المريض استمر بيننا .. حتى بعد كارثة ١٩٦٧ . ان البناء الضخم انهار بأسرع مما نتصور ، والكارثة اصبحت أكبر مما نتوقع ، والهزيمة أكبر فداحة مما نقدر ، وعلى الفور خرجت من بيننا أصوات تحاول

ارغامنا على ابتلاع هذه الهزيمة ، بل ـــ وهذا هو المخجل فى الموضوع كله ـــ تصويرها كما لو كانت انتصارا !

كان هذا المنطق بسيط وضخم ، مثل كل الاكاذيب الكبرى فى التـــاريخ . منطق يقول : ان اسرائيل حينما هاجمتنا فى يونيو ١٩٦٧ ، فانها لم تكن تريد بذلك ان تغـــزو أرضنا ، وانما كانت تريد أساسا أن تسقط نظمنا السياسية . وطالما أن هـــذه النظم لم تسقط .. اذن فاسرائيل لم تحقق أهدافها . وطالمـــا نحن لم نسمح لاسرائيل أن تحقق أهدافها ـــ بشكلها هذا ـــ اذن .. نحن انتصرنا !

ياســـلام ؟ !

كم من الوقاحة ، فضلا عن الجهل ، يحملها مثل هذا المنطق ! لقد نسينا أن اسرائيل هى فى صراع ضدنا جميعا : حكاما ومحكومين .. يمينا ويسارا .. مسلمين ومسيحيين . نسينا أننا لو لم نكن مصريين ، لو لم نكن عربا ، لو كنا اسكيمو .. أو هنود حمر .. أو شيوعيين .. او راسماليين مثلا .. فان اسرائيل كانت ستظل لها معركتها الخاصة معنا ايضا .. نفس المعركة ، ونفس الأهداف. وحتى لو خرجت من بيننا حكومة لتتصالح مع اسرائيل غدا ، فلن يكون هـــذا مطلقا نهـــاية للأهداف الاسرائيلية ، وانما الأهداف ستستمر ، والصدام سيستمر .. طالمـــا المصالح تتعارض . مصالحنا ضد مصالح اسرائيل ، وارضنا ضد توسعات اسرائيل .

● ومنطق مريض آخر خرج ايضا بعد النكسة ، هذه المرة اكثر بساطة ، ومن ثم اكثر اغراء هذا هو : نعم .. نعم .. لقد واجهنا نكســـة كبرى .. وعلينا الآن أن نصححها . لمـــاذا اذن نضيع وقتنا فى معرفة اسباب النكسة ؟ ان أمامنا المستقبل ، فلا داعى لفتح جراح المـــاضى . المستقبل اكثر أهمية . وحينما نصحح آثار العدوان ، فسوف يكون لدينا متسع من الوقت لكى نعرف ونناقش فى حينها : ماذا جرى .. ولمـــاذا جرى !

ومثل كل حق يراد به باطل ، فان هذا المنطق أصبح نوعا جديدا من المخدرات نتعاطاها باسم التركيز على المستقبل . لقد نسينا أن الانهزامى ليس هو فقط الذى يتبنى وجهة نظر العدو ، وانما هو أساسا الذى يمنعنا من معرفة نقط ضعفنا فى مواجهة العدو . وحتى فى حياتنا اليومية ، فان أى طبيب يعلم أن تشخيص المرض – بدقة وصراحة – هو نصف العلاج . وما لم نعرف مبدئيا اين يوجد المرض ، فلا فائدة ترجى مطلقا من أى علاج . وما لم يتم علنا ادانة كل النماذج والأسباب ونقط الضعف التى أدت الى الكارثة .. فلا يوجد أى بديل لتفادى كارثة جديدة . لقد هزمنا فى سنة ١٩٤٨ فقلنا : كان السبب هو فساد نظام الحكم ، ثم : سكوت . وهزمنا فى سنة ١٩٥٦ ، فقلنا : كان السبب هو تآمر دولى ثم : سكوت . وفى هذه المرة قلنا أشياء أخرى غامضة ومطاطة ، ثم : سكوت ! قلنا أن قوى سحرية غامضة وقفت ضدنا – أحيانا نسميها الله .. وأحيانا نسميها أمريكا . وقوى أخرى غامضة سوف تقف معنا : أحيانا نسميها الله .. وأحيانا نسميها الاتحاد السوفيتى . ثم : سكوت ، فالمستقبل اكثر اهمية من الماضى .

بالتأكيد : المستقبل اكثر اهمية من الماضى . ولكن ، بغير دراسة وتمحيص وتشريح – حتى – لهذا الماضى .. فان المستقبل لن يكون أبدا شيئا مختلفا ، ولا هو معجزة سحرية تهبط علينا من السماء . ان المستقبل هو شىء جاد للغاية ، وهو لن يكون كذلك الا اذا خرجنا من الماضى بدروس محددة ودقيقة و .. جادة للغاية .

اننا لو تأملنا الدروس الأساسية لحرب ١٩٦٧ ، فانها لن تخرج غالبا عن دروس حرب ١٩٤٨ . ولكن ، لأننا كنا دائما نكره هؤلاء الذين يقذفون بالحقائق فى وجوهنا . ولأن أفكارنا كانت تعبر عن الأمانى بأكثر مما تعبر عن الواقع ، ولأن خداع النفس كان أكثر اهمية – واكثر راحة أيضا – من مواجهة النفس ، فاننا كنا نفاجأ فى كل مرة بأن كارثة جديدة قد وقعت ، وأن أسباب هذه الكارثة قد لازمتنا طويلا ، وكانت معنا دائما .. دون أن نلتفت اليها ، وفى أحسن الفروض ، دون أن نستوعبها أو نتجاوزها .

لقد دخلنا حرب ١٩٥٦ بمنطق حرب ١٩٤٨ ، ثم دخلنا حرب ١٩٦٧ بتفكير سنة ١٩٥٦ .

لقد كان العالم كله يعرف حقيقة المكاسب التى خرجت بها اسرائيل من حرب ١٩٥٦ . العالم كله يعرف .. ما عدانا نحن . نعم .. نحن الطرف الاول ... كنا الطرف الاخير .. وحينما عرفنا ، فاننا عرفنا بعدها باحدى عشر سنة ، وبطريقة عابرة غير مؤكدة . أن السبب فى ذلك هو اننا تصورنا أن الامر يجب أن يتم عرضه للناس باعتباره انتصارا مطلقا لنا ، وهزيمة مطلقة لعدونا . وبينما العالم كله كان يرى انسحابنا العسكرى فى سنة ١٩٥٦ باعتباره انسحابا ، كنا نحن نراه باعتباره انتصارا . ونتيجة لهذا الخلل فى التفكير ، فلقد استقر فى أذهاننا أن الانسحاب هو عمل عبقرى فذ . وعند أول استدارة للأحداث ضدنا فى حرب ١٩٦٧ — صدر قرار بالانسحاب .. وكأن الانسحاب قد أصبح تقليدا يجب أن نحافظ عليه .

ولقد بلغ الاستهتار بأمن الوطن مداه ، حينما اكتشفنا فجأة اننا نحارب اسرائيل من الذاكرة ! فمنذ سنة ١٩٥٦ — وطوال احدى عشر سنة كاملة — حتى سنة ١٩٦٧ ، بلغت حساسية القيادة العليا — أو استهتارها بتعبير أدق — الى حد أن منعت أى استطلاع جوى أو ارضي داخل اسرائيل . ونتيجة لذلك ، فلم تخترق طائرة مصرية واحدة المجال الجوى الاسرائيلى طوال تلك الفترة ، كأننا — لحظة الحسم — سوف نمارس ضد اسرائيل حربا غيابية . !

● كل هذه كانت أخطاء قاتلة ، فى حق وطننا بالدرجة الأولى ، اخطاء عاشت معنا ، ولكن الاقتراب منها كان ممنوعا .. حتى لا تتشوه الصورة الوردية التى صنعناها لأنفسنا . ان الأمثلة هنا كثيرة ، ولكن الأهم منها أنها تعبر عن أسلوب مريض فى التفكير عشنا به ، وعاش معنا ، طويلا . أسلوب لا يريد مواجهة المشاكل والأخطاء ، ولكنه — بدلا من ذلك — يتظاهر بأنها غير موجودة . نعم .. كنا نثبت بذلك أنه ليس هناك أعمى أسوأ من ذلك الذى يرفض أن يرى .

لقد كانت النظرة السائدة هى أن من الأفضل دائما أن نخفى مشاكلنا فى « البدروم » .. حتى لا يرى العالم نقط ضعفنا . كان هذا أسهل ، ولكنه أيضا كان أسوأ . فالعالم رأى كل شىء ، ونحن فقط الذين لم نر أى شىء . وعندما تحركت الأحداث فى مايو سنة ١٩٦٧ – كانت اسرائيل تقول على لسان قادة جيشها : « اذا أردنا أن نكسب الحرب . فلا بد أن نكسب المعركة الأولى » .. بينما كنا نحن نقول ونعلن : « اذا أردنا أن نكسب الحرب .. فلا بد أن نخسر المعركة الأولى » .

ان هذا يعيدنا من جديد الى مناقشة سؤال رئيسى .. ما هو هدف اسرائيل من الحرب ؟ حرب وقعت فى الماضى .. أو حرب ستقع فى المستقبل . ؟

***

ان الخبراء العسكريين يعلمون ، خصوصا بعد الحرب العالمية الاولى ، ان هناك درسا أساسيا هو : « ان هدف الحرب الحقيقى هو روح العدو .. وليس أجساد جنوده » .

فالمفهوم النهائى للنصر .. هو خلق حالة استعداد للاستسلام لدى العدو .. وتصبح العمليات العسكرية هنا مجرد وسيلة للوصول الى هذه النتيجة .

وما دامت اسرائيل لم تحقق هذا الهدف ، وما دمنا نحن منتبهين لهذا الهدف .. فان الكلمة الأخيرة لم يقلها أحد بعد .

ان الذين يتابعون العقل الاسرائيلى وهو يفكر (ونحن فعلنا شيئا من ذلك لو حللنا الكتب الاسرائيلية التى عرضها هذا الكتاب) فاننا سنكتشف أن حرب يونيو ١٩٦٧ لم تكن اختراعا .. وانما كانت مجرد تطبيق لفن الحرب الذى عبر عنه « سان تسى » سنة ٥٠٠ قبل الميلاد حينما قال :

« ان الحيلة هى أساس فن الحرب . لذلك .. ينبغى التظاهر بالعجز عندما تزداد القدرة على الهجوم ، والتظاهر بعدم

العمل عند الرغبة فى استخدام الجيوش ، واقنـاع العـدو بأننا بعيدون عنه عندما نكون على مقربة منـه ، وبأننـا قريبون ونحن بعيدون عنـه . اسـتخدموا الفخ لجـذب العـدو ، وتظاهروا بالفوضى .. ثم حاربوه » .

ولعـل شـيئا من هـذا كان يدور فى رأس « بن جوريون » عندما قال أكثر من مرة « يجب أن نتكلم عن السلام كما لو كنـا لن نحارب .. ونتكلم عن الحرب كما لو كنا لا نريد السـلام » . ولعله أيضا ـ بن جوريون ـ كان أكثر وضوحا عندما قال فى أعقاب حرب ١٩٤٨ : « نحن لم ننتصر لاننا أتينا بعجائب ، بل لأن الجيوش العربية لم تكن فى حالة جيـدة » . وبعد ١٩٦٧ قال « ايجـال آلون » نائب رئيس وزراء اسرائيل : « ان الانتصـار الاسرائيلى يرجع الفضل فيه أولا الى الاخطاء الضخمة التى ارتكبها العرب » .

ان أى فحص لاستراتيجية اسرائيل العسكرية ضدنا ، سوف يقودنا الى النتيجة التى لا مفر منها : ان اسرائيل لم تهزمنا بفضل اختراع مدهش ، ولا بفضل قوة سحرية غامضة . ان ما فعلته اسرائيل هو ما يجب أن يفعله أى محارب فى أى موقف عسكرى حاسم .

لقد كان العرب ـ منذ سنة ١٩٤٨ ـ يلتزمون موقف الدفاع فى مواجهة عدو يطبق دائما استراتيجية هجومية . استراتيجية تعتمد أساسا على أن يحتفظ لنفسه دائما بحرية العمل والمبادأة ، التى هى أحد المبادىء الستة للحرب . وحتى حينما كانت اسرائيل تهاجمنا ، فاننا كنا نرد على الهجوم بدفاع مباشر ، وهو حل سىء يتساوى مع الثور الذى ينقض على الغلالة الحمراء ، بينما كان يجب عليه أن ينقض على مصارع الثيران نفسه .

ان ما فعلته اسرائيل فى حروبها ضدنا لم يكن اختراعا ، ولكنه شىء موجود فى أى كتاب عن مبادىء الحرب يتم تدريسه للطالب فى أى كلية عسكرية . لقد كانت اسرائيل تهاجمنا دائما ، مستخدمة فى ذلك استراتيجية الهجوم غير المبـاشر . استراتيجية تعتمـد ـ بتعبير الجنرال بوفر مدير معهد الدراسـات الاستراتيجيـة

الفرنسية – على « .. عدم امساك الثور من قرنيه » .. أى عدم مواجهة العدو فى اختبار قوة مباشر ، وعدم التعرض له الا بعد اثارة قلقه ومفاجأته وكسر توازنه عن طريق مدخل غير متوقع ووسائل ملتوية . بعبارة أخرى تعتمد استراتيجية الهجوم غير المباشر على مفاجأة الخصم من اتجاه غير متوقع .

وبهذا الشكل – يقول الجنرال بوفر – فان « .. هدف المعركة يرمى الى نشر الفوضى فى القوات المتماسكة المتناسقة والتى تتكون من حائط من المقاتلين . ونشر الفوضى ينجم عن عمليات تطويق أو قطع أو خرق . وعند ما يتم تصدع حائط العدو فان الدفاع ينهار . والخطر من ذلك هو انه يولد بالنسبة لكل جندى صدمة سيكولوجية تؤدى الى تبخر الرابط المعنوى الذى يجمع بين المقاتلين ، ويتحول الجيش المتصدع الى جمهرة من الأشخاص .. »

ليست استراتيجية الهجوم غير المباشر اختراعا اذن . ومع أن اسرائيل كانت تستخدمها معنا فى كل مرة ، ومع أنها لم تكن تلجأ الى الدفاع الثابت أبدا ، الا أننا كنا نصاب فى كل مرة بدهشة بالغة ونواجه سؤالا مروعا : كيف حدث هذا ؟ !

لقد كانت استراتيجية الهجوم غير المباشر هى دائما احد الأعمدة الأساسية التى يعتمد عليها كل قائد عسكرى فى التاريخ .

لقد استخدمها الاسكندر الأكبر فى زحفه على فارس وفلسطين ومصر .

واستخدمها هانيبال ضد الجيش الرومانى ، فى غزوه لايطاليا عبر جبال الألب .

واستخدمها فابيوس ضد هانيبال نفسه .

واستخدمها خالد بن الوليد فى معركة اليرموك .

واستخدمها نابليون ضد الجيش النمساوى فى ايطاليا .

واستخدمها هتلر فى غزوه لفرنسا .

واستخدمها الحلفاء فى نزولهم بشمال افريقيا .

ثم — أخيرا — استخدمها الجيش الاسرائيلى فى حرب يونيو سنة ١٩٦٧ .

وقبل حرب ١٩٦٧ بست سنوات كاملة ، فان « ايجال آلون » — النائب الحالى لرئيسة وزراء اسرائيل — نشر مقالا فى لندن بعنوان « اسرائيل يجب أن تضرب أولا » .. وقال فيه : « انه بالنسبة لاسرائيل .. فان من الأفضل — فى حالة الضرورة — أن تقوم بعمل مضاد فى الوقت المناسب ، ثم ندان .. عن أن ننتظر الى أن يتم تدميرنا ، ثم نحصل على عطف العالم » .

***

ان الحركة الصهيونية كانت واضحة الأهداف منذ البداية .. واضحة الأهداف للجميع .. ما عدانا نحن .

فعندما انتهى المؤتمر الصهيونى الأول فى « بازل » سنة ١٨٩٧ كتب « تيودور هرتزل » يقول : « فى بازل ، تأسست الدولة اليهودية » .

وعندما صدر « وعد بلفور » فى ٢ نوفمبر ١٩١٧ ، نشرته صحيفة « الديلى اكسبريس » البريطانية بعنوان : دولة لليهود ، ونشرته « التايمز » بعنوان : فلسطين لليهود ، ونشرته « الاوبزرفر » بعنوان : بعد جيل واحد تصبح فلسطين لليهود .

ومنذ البداية .. كانت الصورة التى قدمت بها الحركة الصهيونية نفسها الى العالم .. هى صورة الحركة القومية التى تريد العودة الى ارض سلبت منها . حركة قومية .. مثل كل الحركات القومية الأوروبية التى بزغت فى القرن التاسع عشر . ومعظم الكتب الاسرائيلية التى قدمناها فى الصفحات السابقة .. كانت تعرض هذه الصورة بشكل أو بآخر .

وبالطبع لم يكن هذا صحيحا ، لا علميا .. ولا تاريخيا . وأى مقارنة سرعان ما تلغى الأساس القومى للحركة الصهيونية .

فالحركة القومية لتوحيد المانيا ، جمعت بين دول كاثوليكية مثل بافاريا .. ودول بروتستانتية مثل بروسيا .

والحركة القومية الايطالية اقترنت بحرب دامية بين الايطاليين والنمسويين ، مع أن كليهما ينتهى للمذهب الكاثوليكى . واقترنت أيضا بتجريد البابا من سلطاته الزمنية ، ومن ممتلكاته الواسعة .

والحركة القومية اليوغسلافية ، وحدت « الصرب » الارثوذكس مع « الكروات » الكاثوليك مع « البوشناق » المسلمين .

وبصفة عامة .. فان الحركات القومية لم تجد أساسها فى الدين ، ولم يمثل الدين ولا المذهب فى أى منها دورا رئيسيا أو فرعيا .

ولا يمكن أن تصبح اليهودية حركة قومية ، الا اذا أصبح الارثوذكس مثلا .. قومية ، أو اصبح الكاثوليك قومية ، أو أصبح الشيعة قومية ..

ان هدم هذا الأساس النظرى للصهيونية .. هو أمر ضرورى فى مخاطبة العالم الخارجى ، لانه المقدمة التى تستخدمها الصهيونية فى المطالبة بـ « أرض اسرائيل التاريخية » . ان هذا التعبير هو الهدف الأساسى للحركة الصهيونية من البداية . وبعد قيام اسرائيل .. اصبح هذا الهدف قائما وواردا فى جدول أعمال التفكير السياسى والعسكرى الاسرائيلى . أنه هدف يريد الحصول على سيناء والاردن ومرتفعات سوريا وجنوب لبنان . وبالنسبة لهذا الهدف النهائى لا يوجد يمين ويسار بين الأحزاب السياسية فى اسرائيل . لا يوجد معتدل ومتطرف . ان الاعتدال والتطرف أمر يتعلق فقط بالاسلوب أو بالتوقيت .

مثـــلا ..

فى سنة ١٨٩٧ كان الصـــهيونى المتطرف يطالب بوطن قومى لليهود . والمعتدل يطالب بجمعية يهودية .

وفى سنة ١٩١٧ أصبح المعتدل يطالب بوطن قومى والمتطرف يطالب بدولة يهودية .

وفى سنة ١٩٤٧ كان الصهيونى المعتدل يطالب بدولة يهودية فى جزء من فلسطين والمتطرف يريد كل فلسطين .

وفى سنة ١٩٥٧ اصبح المعتدل يطالب بكل فلسطين والمتطـــرف يطالب بضم سيناء والعريش وعدم الانسحاب منهما .

وفى سنة ١٩٦٧ اصبح المتطرف يطالب بضم ســـيناء والعريش والاردن ومرتفعات سوريا .. أما المعتدل فيطالب بمعـــاهدة صلح نهائى مع العرب .

ان الهدف النهائى الثـــانى قائم دائما ، بالرغم من أن أهدافا بديلة قد تحل محله من وقت لآخر ، أو بتعبير « تيودور هرتزل » مؤسس الحركة الصهيونية الحديثـــة : « اننا فى حركتنا نحو الهدف النهـــائى .. يجب أن نكون كالقطار الذى يتـــوجه الى محطتـــه النهائية . ان القطار قد يتوقف فى محطة هنا أو محطة هناك لكى يتزود بالوقود . لكنه يستأنف سيره دائما نحو محطته المقصودة . فهو لا يتراجع عنها ولا يتراجع منها الى الوراء » .

***

هذا عن الهدف .

اما عن الأسلوب .. فان النتيجة التى نخرج بها من دراســـة اسلوب العمل السياسى الصهيونى منذ بدايته تتركز فى :

ان الحركة الصـــهيونية منذ بدايتهـــا تضــع عينيهـــا على القوتين الكبيرتين اللتين تتنازعان مناطق النفوذ فى العالم عادة . وفى مواجهة ذلك تحفظ الحركة الصهيونية لنفسها دائمـــا بجناحين . كل جناح منهما يعمل مع — وداخل — كل من القوتين الحـــاكمتين فى العالم .

ونحن نجد هـــذا الاســـــلوب قائما فعلا فى التطبيق ابتداء من الحرب العالميـــة الاولى بالذات . فعنـــدما قامت الحرب فى ســـنة ١٩١٤ واجهت المنظمة الصهيونية نفســـها بســـؤال : مع أى من الطرفين المتحاربين تقف ؟ مع المـــانيا وتركيـــا ؟ أو مع بريطانيا وفرنســـا .

وقررت المنظمة وقتها الا تضع « كل البيض فى سلة واحدة » . قررت أن تقسم نفسها الى فرعين يعملان مع الطرفين المتحاربين . كان أحدهما يعمل مع المانيا وتركيا ، والثانى يعمـــل مع بريطانيا وفرنسا والولايات المتحـــدة . وعلى كل فرع من الاثنين أن يقنع الطرف الذى يعمل معه ومن داخله .. انه أكثر تحقيقا لمصالحه . وبهذا الاسلوب ضمنت المنظمة الصهيونية أن انتصار اى طرف فى النهاية .. سيؤدى الى تحقيق مطالبهم منه .

وفى جميع المراحل التالية ، نجد هـــذا واضـــحا فى أســـلوب عمل المنظمة الصهيونية ، ثم اسرائيل بعـــد قيامها . فهى تحتفظ دائما تحت الطلب — بجناح موال لكل طرف من الطرفين المؤثرين فى العالم .

وحين يعمل كل جناح من اجنحة الصهيونية لحســـاب احـــدى القوى الدوليـــة الكبرى فانه — فى الواقع — لاينتمى الى هـــذا الطرف أو ذاك . انه صهيونى أولا ، وصهيونى الى النهاية .. انه قد يعمل لحساب هذه الكتلة فترة ، لكنه يعمل لحسابها بالقـــدر الذى يحقق له فى النهاية مكاسب جديدة .

وقد سمح هذا الاسلوب فى عمل الحركة الصـــهيونية .. بألا تقامر بمصيرها كله مع احدى الكتل الدولية ، وبأن أهدافهـــا حين

تتحقق فهى تتحقق بمناسبة ، وبحماية ، تحرك الكتلة الدولية التى تعمل معها .

ومنذ قيام اسرائيل وهى تطبق هذا الاسلوب تماما . بل ان الجيش الاسرائيلى نفسه ، بدأ أصلا فى عشرينات هذا القرن كقوة تعمل لحساب بريطانيا ، وعلى نفقتها . وفى الحرب العالمية الثانية قامت المنظمات الصهيونية فى فلسطين بالتجسس ضد المحور لصالح قوات الحلفاء . وبهذا الاسلوب حصلت على التمويل والسلاح والخبرة لنفسها واستخدمت كل ذلك فيما بعد لمصلحتها الخاصة ، وأحيانا ضد الدول الموردة نفسها .

وقبل حرب ١٩٦٧ بفترة وجيزة ، أصدر « أبا ايبان » وزير خارجية اسرائيل الحالى كتابا بعنوان « صوت اسرائيل » . ان الكتاب هو مجموعة خطب ومحاضرات ألقاها ابا ايبان « ٢٣ محاضره وخطبة » ، أبان عمله سفيرا لاسرائيل فى أمريكا .

ولأن مادة « أبا ايبان » موجهة أصلا للرأى العام الامريكى ، فاننا نجد أن الفكرة الرئيسية التى لا تغيب مرة فى هذا الكتاب ، هى اصرار « ابا ايبان » على ربط مصير اسرائيل بمصير السياسة الامريكية بصفة عامة فى الشرق الأوسط . انه يقول : « ان اسرائيل دولة صغيرة حديثة ، مسالمة ، ديموقراطية ، تريد العيش فى سلام .. بينما يحيط بها جيران كبار ، أقوياء عدائيون ، اقطاعيون . وازاء الرعب الذى تعيش فيه اسرائيل فانها أحيانا تجد نفسها مضطرة لأن تهب الى الدفاع عن نفسها مثلما حدث فى ١٩٥٦ . واسرائيل بعملها هذا انما تدافع عن الحضارة الغربية نفسها .

هكذا يقدم « أبا ايبان » اسرائيل باعتبارها جزءا من المعذبين فى الأرض ليس هذا هو المهم . ولكن المهم هو انه يستمر الى أن يصل الى السطر الذى يؤجله ٢٩٩ صفحة : ان الصراع بين الدول العربية .. واسرائيل ، هو فى جوهره صراع بين الشرق والغرب . صراع بين حضارة ..وحضارة .

يعنى : اذا كان على الغـــرب ان يدافع عن نفســـه فى الشرق الأوسط .. فليبدأ بالدفاع عن اسرائيل . واذا كان الغرب يعيش فى حالة عداء مع العرب فليست اسرائيل هى السبب . ان هـــذا العداء العربى نحو الغرب هو عداء حتمى لا دخل لاسرائيل فيه . انه عداء له أسبابه التاريخية الخاصة ، واسرائيل ليست واحدا من هذه الأسباب .

والمسالة التى لاشك فيهـــا فعلا .. ان لدينا أسبابنا الخاصـــة لمعاداة الغرب . هذا صحيح . ولكن مساندة الغرب لاسرائيل هى رأس هذه الاسباب . لقد اشتركت فرنسا فى العـــدوان على مصر سنة ١٩٥٦ ، وعاملها العرب بما تستحقه جزاء على هذا التواطؤ . لكن فرنسا الآن ــ أثناء وبعد حرب ١٩٦٧ ــ تقف موقف الحياد ، وبالتالى فان العرب أعلنوا لها عن تقـــديرهم لهـــذا الموقف . ولم يقف عربى واحد ليعلن : ان عداءنا نحـــو فرنســـا هـــو مســـألة « حتمية » . مسألة قدرية لا مفر منها ولا فكاك .

***

ان هذا يذكرنا بالأســـطورة الشرقية القديمة التى تقول : ان ثعلبا ركب على ظهر فيل . وحينما كان الفيل يشق طريقه فى الغابة دافعا الاشجار جانبا ، فان الثعلب كان ينفخ صـــدره بعجب قائلا : كم أنا قوى ؟ !

وقد لا تـــكون اسرائيـــل هى بالضبط الثعلب نفســـه الذى تتحدث عنه الاسطورة ! ولكنها بالتأكيد تتحرك بمصاحبة الفيـــل الضخم الذى يتحرك طبقا للاسطورة . لهذا .. علينا ان نفهم كل القوى التى تحالفت معها اسرائيل أو « ركبتها » اسرائيل .

***

ان اسرائيل التى نراها اليوم .. هى ثمرة الحنظلة المرة التى فرست فى الأرض العربية . ثمرة روتها قوى دولية عديدة تحالفت معها فى كل مرحلة . فى البدء كان التحالف الصهيونى الأول مع

بريطانيا . فى النهاية كان التحالف الصـــهيونى الثانى مع أمريكا . وعلى الطريق بين البدء والنهاية كانت هناك تحالفات جانبية كثيرة امتدت لاكثر من ٧٠ ســـنة . فخـــلال تلك المـــدة وضعت الحركة الصهيونية على راسها قبعات كثيرة ، كان آخرها القبعة الامريكية التى تضعها على راسها الآن .

واذا كان الصراع بيننـــا وبين اسرائيـــل اصبح يحتـــاج أكثر من اى وقت مضى ، الى الحـــركة .. واذا كان التـــوازن الدولى وموقف القوى الكبرى قد وصل الآن الى أقصى ما يمكن من درجات السكون والثبات . فان الأمر أصبح يحتاج الى مجهود خارق من جانبنا لكى نفلت من وسط طرفى المقص ، الذى أصبحنا نقف فيه.

* * *

انها ليست أول مرة نقف فيها وسط هذا المقص . فمن المضحك هنا ــ بقدر ما هو مؤلم للغاية ــ أن نرى كيف يكرر التـــاريخ نفسه . فقبل حرب ١٩٦٧ بمائة وثلاثين سنة ، تعرضت مصر لنفس الموقف بالضبط .

لقد رأى محمد على ــ حاكم مصر وقتها ــ أن العالم تتقاسمه قوتان كبيرتان هما بريطانيا وفرنسا . ولأن التنافس على مناطق النفوذ كان شديدا بين الدولتين الكبيرتين ، فقد راى محمد على أن يستعين بالثانية على الأولى . ولقد أغراه النجاح المبدئى لهذه السياسة بأن يستمر فيها ، فلم يعرف ما هى بالضبط النقطة التى يجب أن يتوقف عندها .. ان فرنسا ساعدته اقتصاديا وعسكريا ، على اساس أن كل انكماش فى نفوذ بريطانيا هو مكسب أوتوماتيكى لها .

ولكن فى اللحظة التى بدأت مصر تصبح فيها قوة مصرية ، فان القوتان الكبيرتان اتحدت مصالحهما ضدها . نعم : لم تكن بريطانيا تريد مصر فرنسية ، ولم تكن فرنسا تريد مصر بريطانية .. ولكن الاثنان معا لا يريدان مصر مصرية . وفى لحظة الصدام الرهيبة ،

تلقى محمد على الدرس بكل قسوة : انه قامر بأكثر مما يجب . ان فرنسا ليست مستعدة للمخاطرة بصدام دولى مع بريطانيا من أجل أهداف مصرية . والنتيجة : اتحدت القوتان ضد مصر ، وضد محمـــد على .

ولقد كان المجهود الدبلوماسى الاسرائيلى فى السنوات العشر ما بين ١٩٥٤ و ١٩٦٤ ، يركز على مسألة هامة للغاية : كيف تقامر اسرائيل على الجواد الرابح فى المعركة ؟ لقد دخلت لعبة الحرب الباردة الى المنطقة وعلى كل طرف فى الصراع — نحن واسرائيل — أن يختار حليفه . وخلال عشر سنوات تالية كانت النتيجة هى : انها لم تعد معركة عربية اسرائيلية ، وانما معركة بين الشرق والغرب ، بين الاتحاد السوفيتى وأمريكا .

ومرة أخرى أطل لنا الدرس بكل وضوح : لن يحمل هموم مصر .. غير أبنائها . لن يحقق آمال العرب .. غير العرب . درس عنيف ظهر لنا كما لو كان اكتشافا مفاجئا ، مع انه موجود فى التاريخ — تاريخنـــا نحن بالدرجة الأولى — قبل تاريخ اى شعب آخر غيرنا .

ان « أدوات الشرط » فى التـــاريخ تمثل فى العادة أسئلة مثيرة لليأس وخيبة الأمل ، لأنها أسئلة افتراضية ، ولأنه لا جواب لها . فهل « لو » اختفى ذلك السبب .. كانت ستختفى النتيجة ؟ لو .. لو .. لو .. كلها أسئلة افتراضية اجاباتها فى مجال الاجتهاد الشخصى الذى قد نختلف فيه .

* * *

ولكن الذى لن نختلف عليه ابدا ، هو أن هذه هى المرة الثالثة . فى هـــذا القرن — بعد الاتفاق الودى فى سنة ١٩٠٤ وحرب ١٩٤٨ التى نقف فيها نحن وسط طرفى المقص ، بينما يعاد النظر الى خريطة الشرق الاوسط داخل اطار صراع دولى . لهذا .. فان النصر أو الهزيمة هذه المرة هو نصر — أو هزيمة — لفترة طويلة قادمة ، وربما لقرون طويلة قادمة .

لهذا السبب .. فاننا أمام معركة وطنية . معركة ، لن يكون الاختيار فيها بين موقف اليمين وموقف اليسار . انما الاختيار سوف يكون بين الوطنية والخيانة .. انها حرب لاعادة استقلال الشرق الاوسط . وهى حرب تولد فيها العروبة من جديد .

وليس هذا أول امتحان تدخله منطقتنا بروح الثورة .

لقد كنا ثوارا فى سنة ١١٨٧ ، يوم حارب الشعب بقيادة صلاح الدين ضد جحافل التعصب الصليبى القادم من أوربا .

وكنا ثوارا فى سنة ١٢٦٠ ، عندما رفضنا انذار « هولاكو » قائد جيش المغول ، وانتصرنا عليه فى عين جالوت ، وكانت أول هزيمة نزلت بالمغول فى عهد هولاكو .

وكنا ثوارا يوم ان نجحت المقاومة الشعبية المصرية فى طرد الفرنسيين سنة ١٨٠١ .

وكنا ثوارا فى سنة ١٨٠٧ ــ عندما ثارت رشيد ضد الحملة الانجليزية بقيادة « فريزر » ، وانتصرنا عليهم انتصارا حاسما فى قرية الحماد .

وكنا ثوارا سنة ١٨٨١ بقيادة أحمد عرابى .

وكنا ثوارا فى سنة ١٩١٩ ــ عندما وقفت روح الشعب ضد مدافع الانجليز .

***

و .. لا أريد أن استطرد ، ففى كل مرة تعرضنا فيها لتآمر دولى .. كان الشعب الواحد الشجاع يصبح اغلبية .

وفى مواجهة حالة الميوعة والجمود فى الموقف الدولى بعد ١٩٦٧ ، فان رد الفعل الأساسى هو ان القوة أصبحت هى الحق

وليس العكس . والقوة بالنسبة لازمتنا المعاصرة انما تعنى أساسا ــ وفقط ــ القوة العربيــة . فهى وحــدها التى يجب أن تضرب المثل ، وهى وحدها التى ستصمد فى المواجهة مع اسرائيل . ولكى نكون الطرف الأقوى فى هذه المواجهة ، فلا بد أن نفهم عدونا أولا : كيف يفكر ، كيف يتحرك ، كيف يعمل . فكلمــا زادت معرفتنــا الآن .. قل أســفنا فى المســتقبل . لان الأقوياء فقط هم الذين يحرصون على هذه المعرفة . وفى النهاية .. نجد أن المعرفة هى أيضا .. قوة . وفى النهاية ، نقول مع الصينيين القدماء : اعرف نفسك مرة ، واعرف عدوك مرة ، ثم حاربه مائة مرة .

وفى صــــدامنا مع اسرائيل .. لم يقل أحد بعــد .. الــكلمة الأخيرة . والذى يصمم أكثر ، وبعد أكثر ، ويعــرف أكثر .. هو الذى سيضحك فى النهاية أكثر ! .

ان هــذا معناه .. ان أمامنــا امتحــانا قاســيا لصــلابتنا ورجولتنــا . ولابد أن يســاعد بعضنا بعضــا فى اجتيــاز هذا الامتحــان .. !

* من يتقدم .. نتبعه .
* ومن يتأخر .. نشده .
* من يتقهقر .. نرفعه .
* من يسقط .. نرفعه .
* من يمت .. نثأر له .

دار الشروق

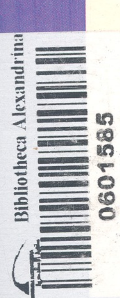
مطابع الاهرام التجارية
رقم الايداع بدار الكتب
٢٠٨٤ / ١٩٧٣

هذا الكتاب

منذ سنوات ، ظهر "موشي دايان" وزير الدفاع الاسرائيلي على شاشة التليفزيون البريطاني ، ووقتها .. سأله المذيع : ان الخطة التي اتبعتها في حرب ١٩٦٧ هي الخطة نفسها التي ذكرتها في كتابك "مذكرات حملة سيناء - ١٩٥٦" .. ألم تكن تخشى أن العرب قد يعرفون من كتابك .. خطتك المستقبلة التي ستتبعها في حرب ١٩٦٧ ، فيستعدون مقدما لمواجهتها؟

وردّ موشي دايان قائلاً :

لا .. لأن العرب لا يقرأون !



مطابع الشروق

الثمن : ٥٠ قرشاً